

١٩٩٨

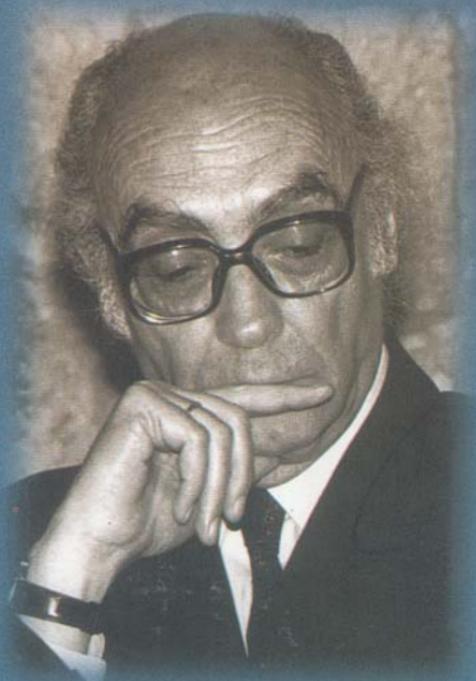
كتاب نوبل



17.2.2016

كتاب نوبل

كل الأسماء



ترجمة: صالح علاماني

١٩٩٧

مکتبہ نوبیل

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ  
كُلُّ الْأَسْمَاءِ

ترجمة

صالح علما



**كل الأسماء**



## مكتبة نوبل

**Author:** José Saramago  
**Title:** TODOS OS NOMAS  
**Translator:** Saleh Almani  
**Al- Mada P.C.**  
**First Edition:** 2002  
**Second Edition:** 2010  
**Third Edition:** 2012  
**Copyright © Jose Saramago &**  
**Editorial caminho,SA Lisboa,1997.**

اسم المؤلف : جوزيه ساراماگو  
 عنوان الكتاب : كل الأسماء  
 المترجم : صالح علماي  
 الناشر : دار المدى للثقافة والنشر  
 الطبعة الأولى ٢٠٠٢  
 الطبعة الثانية ٢٠١٠  
 الطبعة الثالثة ٢٠١٢

By arrangement with Dr.Ray-Gude Mertin,Literarische  
 Agenture, Bad Homburg, Germany  
 The Portuguese Institute for Book and Libraries  
 supported this book.

**دار** للثقافة والنشر

سوريا - دمشق ص.ب. : ٨٢٧٢ او ٣٦٦٢ - تلفون: ٢٢٢٢٧٥ - ٢٢٢٢٧٦ - فاكس: ٢٢٢٢٨٩

**Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria**  
 P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289  
[www.almadahouse.com](http://www.almadahouse.com) E-mail:[al-madahouse@net.sy](mailto:al-madahouse@net.sy)

بيروت-الحمراء-شارع ليون-بنية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦٧-٧٥٢٦١٦  
[www.daralmada.com](http://www.daralmada.com) Email:[info@daralmada.com](mailto:info@daralmada.com)

بغداد-أبو نواس- محله ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون  
 E-mail:[almada112@yahoo.com](mailto:almada112@yahoo.com)

لا يجوز نشر أي جزء، من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع ، أو  
 نقله ، على أي نحو ، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية ، أو  
 بالتصوير ، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك ، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدماً .

All rights reserved. Not part of this publication may be reproduced  
 stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any  
 means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise,  
 without the prior permission in writing of the publisher.

إلى بيلار

*Twitter: @ketab\_n*

أنت تعرفُ الاسم الذي أطلقوه عليك،  
ولكنك لا تعرف الاسم الذي هو لك.  
**كتاب التجليات**

*Twitter: @ketab\_n*

هناك فوق إطار الباب لوحة معدنية طويلة وضيقة، مطلية بالمينا. وعلى الخلفية البيضاء، توجد حروف سوداء تقول المحفوظات العامة للسجل المدني. طبقة المينا مجرحة ومشققة في بعض الأماكن. الباب قديم، آخر طبقة من الطلاء البني مقشرة، وعروق الخشب، المكسوفة، تُذكّر بجلد مخطط. هناك خمس نوافذ في الواجهة. وما إن يجتاز المرء العتبة حتى يشم رائحة الورق القديم. صحيح أنه لا يمر يوم إلا وتدخل إلى المحفوظات أوراق جديدة، لأشخاص من جنس الذكور أو جنس الإناث ممن يولدون هناك خارجاً، ولكن الرائحة لا تتبدل أبداً، وذلك في المقام الأول، لأن قدر كل ورق جديد، منذ خروجه من المصنع، هو البدء بالتحول إلى ورق عتيق، وهي المقام الثاني، لأنه لا يمر يوم على الورق القديم في العادة، وعلى الورق الجديد في أحياناً كثيرة أيضاً، إلا وتكتب عليه أسباب وفيات ومكانها وتاريخها، ويسمى كل ورق بروائحه الخاصة، وهي ليست روائح مؤذية على الدوام للأغشية المخاطية، مثلما تثبت بعض التضوعات العطرة التي تفзд بخفة أحياناً إلى جو المحفوظات العامة ويمكن للأنوف مرهفة الحساسية أن تعرف عليها كعطور ممزوجة مناسبة من الورد والأقحوان.

بعد اجتياز الباب، يظهر حاجز عالٍ مزجاج ذو مصraعين يؤدي إلى القاعة المستطيلة الفسيحة حيث يعمل الموظفون، منفصلين عن الجمهور بحاجز كونتوار طويل يمتد ما بين الجدارين الجانبيين،

باستثناء جزء منه يشكله ذلك الباب المتحرك في الاتجاهين والذي يسمح بالمرور إلى الداخل. ويراعي توزيع الأماكن في القاعة أقدمية التراتبية الوظيفية بالطبع، وكونه متناسقاً، كما هو متوقع، من هذه الناحية، فإنه متناسق كذلك من الناحية الهندسية، وهو ما يشكل دليلاً على عدم وجود أي تعارض عضال ما بين الجمالية والسلطة. فصف الطاولات الأول الموازي للكونتوار يشغل ثمانية كتبة يتولون التعامل مع جمهور المراجعين. وراغم، هناك صف من أربع طاولات، مركبة بالنسبة إلى محور التناول الذي يبدأ من الباب ويضيق أثراه هناك في العمق، عند تخوم المبنى المظلمة. ويشغل هذه الطاولات المأمورون. ويليهم نائباً المدير، وأخيراً، هناك المدير معزولاً ووحيداً، مثلما يجب أن يكون، وهم يسمونه الرئيس في التعامل اليومي.

توزيع المهام بين طاقم الموظفين يتم وفق قاعدة بسيطة، تتلخص في أنه على عناصر كل مرتبة واجب تنفيذ كل ما يمكنهم تنفيذه من العمل، بحيث لا ينتقل إلا جزء يسير منه إلى المرتبة التالية. هذا يعني أنه لا مناص لكتبة من أن يعملوا دون راحة منذ الصباح حتى الليل، بينما يعمل المأمورون بين حين وآخر، ونائباً المدير في أوقات متباude جداً، أما المدير فلا يكاد يعمل على الإطلاق. الحركة الدؤوبة المتواصلة للثمانية الذين في المقدمة، الذين ما إن يجلسوا حتى ينهضوا، ويبقوا دائمي الركض من الطاولة إلى منضدة الكونتوار، ومن منضدة الكونتوار إلى خزائن البطاقات، ومن خزائن البطاقات إلى الأرشيف، مكررين دون راحة هذه المشاهد والتوليفات وغيرها أمام لامبالة رؤسائهم، سواء الرؤساء المباشرون أو البعيدين، هي عامل لا بد منه لفهم كيف كان ممكناً وسهلاً بصورة مؤسفة افتراض التجاوزات، والمخالفات، وممارسات التزوير التي تشكل المادة المركبة لهذه القصة.

ولكي لا نفقد طرف الخيط في قضية بهذه الأهمية، فإنه من المناسب أن نبدأ ونحن نعرف أين توجد وكيف تعمل ملفات الأرشيف وخزائن البطاقات. إنها مقسمة، بصورة بنوية وقاعدية، أو وفقاً لقانون الطبيعة، إذا أردنا استخدام كلمات بسيطة، في منطقتين كبيرتين هما، منطقة ملفات وبطاقات الأموات، ومنطقة ملفات وبطاقات الأحياء. فأوراق أولئك الذين لم يعودوا أحياء توجد مرتبة إلى حد ما في القسم الخلفي من المبنى، والذي يتوجب بين فترة وأخرى هدم جداره وإعادة بنائه من جديد على بعد بضعة أمتار إلى الوراء، بسبب التزايد المستمر في أعداد الموتى. وسيكون من السهل الاستنتاج، بأن مصاعب ترتيب أمر الأحياء، وإن كانت مقلقة، آخذين في الاعتبار أن هناك أناساً يولدون على الدوام، هي أقل إلحاحاً بكثير، وقد جرى حلّها حتى الآن، بطريقة مرضية عقلانياً، سواء بأسلوب الضغط الآلي الأفقي للملفات الفردية المنضدة على رفوف الخزائن، هذا بالنسبة للملفات، أو باستخدام بطاقات رقيقة أو رقيقة جداً، بالنسبة لأرشيف البطاقات. وعلى الرغم من مشكلة الجدار الخلفي غير المريحة، والتي أُشير إليها سابقاً، فإن روح الارتجال لدى أولئك المهندسين المعماريين الذين صمموا بناء المحفوظات العامة للسجل المدني تستحق كل الإطراء والمديح، لأنهم طرحاً، في مواجهة الآراء المحافظة لبعض العقليات الحريصة المتمسكة بالماضي، ودافعوا عن إقامة هياكل الخزائن الخمس العملاقة ذات الرفوف التي ترتفع حتى السقف وراء ظهور الموظفين، وإرجاع حافة الخزانة المركزية إلى الوراء، حيث تكاد أن تلامس مقعد المدير، وتقرير حافة الخزانتين الجانبتين من منضدة الكونتور، لتبقى الاشتان، وهذا مجرد قول، في وسط الطريق. هذه الهياكل البنية، التي يعتبرها جميع المراقبين هائلة وخارقة، تمتد داخل المبنى إلى ما وراء

ما يمكن للعين بلوغه، لأن الظلمة أيضاً، بدءاً من ارتفاع معين، تأخذ بالانتشار، ذلك أن المصابيح تكاد لا تُضاء إلا عندما تكون هناك حاجة إلى تفحص ملف ما. هيأكل الخزائن ذات الرفوف تلك هي التي تحمل ثقل الأحياء. أما الأموات، فأوراقهم محشورة هناك عميقاً، في ظروف أسوأ مما يسمح به الاحترام، ولهذا لا بد من بذل جهد للعثور عليها عندما يأتي قريب أو كاتب بالعدل أو وكيل قضائي إلى المحفوظات العامة طالباً شهادات أو نسخاً من وثائق أزمنة أخرى. وسبب فوضى هذا القسم من الأرشيف واستفحالها يكمن في الواقع أن المتوفين القدماء هم الأقرب إلى المنطقة المدعوة فعالة، والتي تأتي مباشرة بعد منطقة الأحياء، مشكلة، حسب التعريف الذكي لرئيس المحفوظات العامة، ثقلاً ميتاً مرتبين، ذلك أنه نادراً ما يهتم أحد بهم، ويقتصر الأمر في أوقات متباude على مجيء أحد غربيبي الأطوار للبحث عن شذرات تاريخية تافهة لا تكشف شيئاً. وقد تبين أنه لا حلّ لهذا الوضع إلا بجسم أمر الفصل يوماً بين الموتى والأحياء، ببناء إدارة محفوظات جديدة في مكان آخر تخصص للموتى وحدهم، واتضح ذلك عندما خطر لأحد نائبي المدير، في ساعة نحس، أن يقترح تنظيم أرشيف الموتى على عكس ما هو عليه، وذلك بوضع الموتى القدماء في العمق، وقبلهم من ماتوا في تاريخ أقرب، في ترتيب يُسهل، حسب كلماته البيروقراطية، الوصول إلى الموتى المعاصرین الذين هم، كما هو معروف، أصحاب الوصايا، ومانحو الترکات، وهم بالتالي موضع منازعات وردود طلما أجسادهم ما تزال دافئة. وافق المدير على الفكرة ساخراً، شريطة أن يكون صاحب الاقتراح نفسه هو من يدفع إلى العمق، يوماً بعد يوم، الكتلة الهائلة من ملفات الموتى المنسيين الفردية، بهدف أن يحل الموتى المحدثون في الفراغ المستعاد. ولرغبة في تجاهل

هذا الخاطر الكارثي وغير القابل للتحقيق، ولكن يلهي نفسه كذلك عن الإهانة المذلة، لم يجد نائب المدير وسيلة أفضل من الطلب إلى الكتبة بأن يحولوا إليه عملاً ما، خادشاً بذلك السلام التاريخي للسلسلة الوظيفي، بالاتجاه العلوي والسفلي على السواء. أدت هذه الحادثة إلى تسامي التقصير، وازدهار الإهمال، وتفاقم التردد، إلى حد احتفى معه يوماً في متأهات سراديب أرشيف الموتى أحد الباحثين ، جاء بعد شهور من ذلك الاقتراح السخيف إلى المحفوظات العامة ليقوم بتحريات ميراثية كُلف بها. وقد عُثر عليه بما يشبه المعجزة بعد أسبوع، جائعاً، عطشاً، مستنفداً، هادياً، وبباقياً على قيد الحياة بفضل الوسيلة اليائسة في ابتلاء كميات كبيرة من الورق القديم لم يكن بحاجة إلى مضفها لأنها كانت تتحلل من تلقاء نفسها في فمه، دون أن تبقى طويلاً في معدته ودون أن تغذيه. ولأن رئيس المحفوظات العامة كان قد طلب أن يُحضرروا إلى مكتبه ملف ذلك المؤرخ المتهور لنقله إلى خانة الموتى، فقد أضطر إلى غض النظر عن الأضرار التي أحدهما، ونُسبت رسمياً إلى الفئران، ثم وقع بعد ذلك أمراً داخلياً يقضي، تحت طائلة الغرامة وتعليق الراتب، بوجوب استخدام خيط آريان<sup>(١)</sup> لكل من يدخل أرشيف الموتى.

ليس من العدل على أي حال تناسي مصاعب الأحياء. فما هو أكثر من صحيح ومعروف أن الموت، سواء لعدم كفاءة أصلية فيه، أو لسوء نية مبيبة عبر التجربة، لا يختار ضحاياه بما يتفق مع مدة حياتهم التي عاشوها، وهو سلوك، نقول ذلك بين قوسين، انتهى به المطاف، إذا

<sup>(١)</sup> آريان Ariane أو Ariadna: هي في الأساطير الإغريقية ابنة مينوس ملك جزيرة كريت. قدمت إلى ثيسیوس الخيط الذي مكّنه من معرفة طريق الخروج من المأهنة بعد أن قتل المينوتور.

ما صدقنا كلام المراجع الفلسفية والدينية المتعددة التي تعرضت للموضوع، إلى أن يبعث في الكائن البشري، بصورة انعكاسية، وعبر سبل مختلفة ومتناقضة أحياناً، تأثيراً غريباً من التصعيد الذهني للخوف الطبيعي من الموت. ولكن، بالرجوع إلى ما يهمنا، فإنه لا يمكن اتهام الموت أبداً بأنه ترك عجوزاً منسياً بصورة غير محدودة في الدنيا، مجرد أن يصير في كل يوم أكثر شيخوخة، دون أي استحقاق معروف أو سبب ظاهر للعيان. فمهما طال عمر المسنين، فإن ساعتهم ستأتي دون ريب. ولا يمر يوم إلا ويكون على الكتبة أن يُخرجوا ملفات من رفوف الأحياء لينقلوها إلى المستودع الذي في العمق، ولا يمر يوم إلا ويدفعون نحو أقصى الخزائن أولئك المتبقين على قيد الحياة، وإن يكن ذلك أحياناً، بسبب نزوة تهكمية من نزوات القدر الغامض، حتى اليوم التالي فقط. ووفقاً لما يسمى النظام الطبيعي للأشياء، فإن الوصول إلى أقصى الخزانة يعني أن الحظ قد تعب، وأنه لم يعد هناك أمام المرء مزيد من الطريق ليذرعه. فالوصول إلى نهاية الخزانة ذات الرفوف هو، بكل المعاني، بداية السقوط. ومع ذلك، قد يحدث أحياناً، دون أن يدرى أحد السبب، أن تبقى ملفات في الحافة القصوى للفراغ، غير متأثرة بهذا الدوار الأخير، لسنوات وسنوات أطول مما يقره العرف على أنه الأمد الطبيعي لحياة بشرية. في أول الأمر تثير تلك الملفات، في الموظفين، الفضول المهني، ولكنها سرعان ما تبدأ بإيقاظ ضيقهم ونفاد صبرهم، كما لو أن العناد الواقع لميدي العمر أولئك يختزل فرص الحياة لديهم، يأكلها، يلتهمها. ولا يكون هؤلاء المؤمنون بالخرافات مخطئين تماماً، إذا ما أخذنا في الاعتبار حالات الموظفين من كل الفئات العديدة الذين توجب سحب ملفاتهم من أرشيف الأحياء بصورة مبكرة، بينما الأوراق الخارجية للم Kapoorين في البقاء على قيد

الحياة آخذة بالاصلرار أكثر فأكثر، إلى أن تتحول إلى لطخات قائمة وغير جمالية في أقصى طرف الرفوف، مسيئة إلى نظرات الجمهور. وعندئذ يقول رئيس المحفوظات العامة لأحد الكتبة، استبدل أغلفة تلك الملفات يا دون جوزيه.

إضافة إلى اسمه الأول «جوزيه»، لدى السيد جوزيه كنيتان اثنان أيضاً، وهما من أكثر الكنى شيوعاً، وتخلوان من تلك الشذوذات الاسمية، إحداهما كنية أبيه، والأخرى كنية أمه، وفقاً للعرف السائد، وقد انتقلت إليه الكنيتان بصورة شرعية، مثلاً يمكننا أن نتأكد في سجل الولادات الموجود في المحفوظات العامة إذا ما كان جوهر الحالة يبرر الاهتمام بذلك، وإذا ما كانت حصيلة التقصي تعوض الجهد المبذول لتأكيد ما هو معروف. ومع ذلك، ولسبب غير معروف، ما لم يكن مبعث ذلك ببساطة هو تهاون شخصي، عندما يُسأل دون جوزيه عن اسمه، أو عندما تتطلب الظروف أن يقدم نفسه، أنا فلان الفلاني، فلن يفيده في شيء النطق بالاسم كاملاً، لأن محادثه لن يحتفظوا في ذاكرتهم إلا بالكلمة الأولى، جوزيه، والتي يضيفون إليها أو لا يضيفون بعد ذلك كلمة «دون»، حسب درجة علاقة الثقة أو الرسمية، المحاملة أو الألفة في المعاملة. وهكذا فإن كلمة «دون»، ولنقل ذلك بصرامة، ليست لها كل القيمة التي تبدو أنها توحى بها في البداية، على الأقل هنا في المحفوظات العامة، حيث واقع أن الجميع يتعاملون بهذه الطريقة، ابتداءً من المدير وحتى أحدث الكتبة عهداً في الوظيفة، لا يكون لها المدلول نفسه في ممارسة العلاقات المرتبطة الوظيفية، بل ويمكن أن تلاحظ، في طريقة النطق بالكلمة المقتصبة، وحسب مختلف درجات السلطة أو مزاج اللحظة، نغمات شديدة التنوع مثلاً هي نغمات

التفضل، النزق، التهكم، الازدراء، التذلل، التملق، وهو ما يُبيّن إلى أي حد يمكن أن تصل الإمكانيات التعبيرية للفظة مقتضبة جداً تبدو للوهلة الأولى، وكانتها تعني شيئاً واحداً فقط. بهذهين المقطعين الصوتيين في «جوزيه» والمقطع الوحيد لكلمة «دون»، عندما تسبق الاسم، يحدث الشيء نفسه تقريباً. ففي هذه المقاطع الصوتية يمكن أن نميز، عندما يتوجه أحدهم إلى المسمى، في المحفوظات أو خارجها، نبرة الازدراء، أو التهكم، أو النزق، أو التفضل. أما النغمات الأخرى، نبرات التذلل والتملق، النبرات المداهنة أو المرخمة، فإنها لا ترن مطلقاً في مسمعي الموظف الكاتب دون جوزيه، إذ ليس لهذه النغمات مدخل في التدرجات اللونية للمشاعر التي يبدونها تجاهه عادة. ولا بد من التوضيح مع ذلك، بأن بعض هذه المشاعر هي أكثر تعقيداً من تلك التي عُدّدت سابقاً، وهي أولية وجليلة بطريقة ما، مكونة من قطعة واحدة. فعندما أصدر المدير، مثلاً، الأمر: استبدل أغلفة تلك الملفات يا دون جوزيه، كان يمكن لأذن متيقظة ومرهفة أن تتعرف في صوته على شيء يمكن تصنيفه، مع تجاوز التناقض الواضح في المصطلحات، باللامبالاة السلطوية، أجل، سلطة واثقة من نفسها تماماً إلى حد لا تبدي معه تجاهلها للشخص الذي تتوجه إليه وحسب، حتى بعد النظر إليه، وإنما تترك انطباعاً واضحاً، منذ تلك اللحظة، بأنها لن تترازل بعد ذلك للتأكد من تفاصيـلـ الأمر. من أجل الوصول إلى الرفوف العليا، هناك في الأعلى، عند مستوى السقف تقريباً، يتوجب على دون جوزيه أن يستخدم سلماً يدوياً طويلاً جداً، وأنه يعاني، لسوء الحظ، من ذلك الاختلال العصبي المزعج الذي ندعوه بالعامية جاذبية الهوة، فإنه لا يجد بدأً، إذا كان لا يريد تهشيم عظامه على الأرض، من ربط نفسه إلى درجات السلم بحزام متين. وفي الأسفل، لا يخطر لأي من زملائه

في المرتبة الوظيفية، ناهيك عن الحديث عن الرؤساء، رفع عينيه ليرى إذا ما كان العمل يجري على ما يرام. ويُفهم من هذا أنها طريقة أخرى لتبرير عدم المبالاة.

في البدء، وهو بدء يرجع إلى عدة قرون خلت، كان الموظفون يقيمون في إدارة المحفوظات العامة. ليس في داخلها بالضبط، وليس في اختلاط كامل، وإنما في مساكن بسيطة وبدائية مشيدة في الخارج، على امتداد الجدران الجانبية، لها شكل صوامع صفيرة مهملة راحت تتشبث بجسد المحفوظات الراسخ. وكان لكل واحد من تلك البيوت بابان، الباب العادي، المطل على الشارع، وباب إضافي، خفي، غير مرئي تقريباً، يتصل بقاعة الأرشيف الكبرى، وهو أمر كان يعتبر في تلك الأزمنة، وعلى امتداد سنوات طويلة، مفيداً تماماً من أجل سير الخدمات على أحسن وجه، إذ لا يضطر الموظفون إلى إضاعة الوقت في التنقل عبر المدينة ولا يمكن لهم التعلل بمشاكل حركة المرور حين يأتون متأخرین. إضافة إلى هذه المزايا اللوجستية، كان من السهل إرسال التفتيش للتأكد إذا ما كان تفبيهم صحيحاً عندما يخطر لهم تقديم إجازة مرضية. وقد طرأ لسوء الحظ تغيير على وجهات النظر البلدية حول التنظيم العماني للحي الذي تقوم فيه المحفوظات العامة، أدى إلى هدم تلك البيوت الفريدة، باستثناء واحد منها، قررت السلطات المختصة الحفاظ عليه كوثيقة معمارية لمرحلة حداثة الخفيفة، كانت له حسناته أيضاً. وفي هذا البيت كان يسكن دون جوزيه. لم يكن ذلك مقصوداً، ولم يختاروه ليكون المؤمن المتبقى من زمن غابر، وإذا كان ذلك قد حصل على هذا النحو فيجب عزوه فقط إلى موقع المسكن، القائم عند زاوية لا تضر بالترافق المنظم، ولم يكن الأمر ينطوي

بالتالي على عقاب أو ثواب، وهم أمران لا يستحقهما دون جوزيه، لم يكن هذا أو ذاك، فقد سُمح له بمواصلة العيش في المسكن وحسب. على كل حال، وكإشارة إلى أن الأزمة قد تبدلت ولتجنب وضع يمكن أن يُفسر بسهولة على أنه امتياز، فقد حُكم على باب الاتصال بالمحفوظات بأن يبقى مفتوحاً، أي أنهم أمروا دون جوزيه بأن يوصده بالمفتاح ونبهوه إلى أنه لم يعد بإمكانه الدخول من هناك. وهذا هو السبب الذي يفرض على دون جوزيه أن يدخل ويخرج كل يوم من البوابة الكبيرة للمحفوظات العامة، مثلما يفعل أي شخص آخر، حتى ولو هبت على المدينة أشد العواصف عنفاً. ولكن لا بد من القول مع ذلك، إن روحه النهجية تشعر بالحرية وهي تتصاع لمبدأ المساواة، حتى ولو كان، مثلما هي الحال الآن، ضده، مع أنه، وهذا صحيح أيضاً، كان يُفضل إلا يكون هو نفسه الشخص الوحيد الذي عليه صعود السلم اليدوي دوماً لاستبدال ملفات الملفات القديمة، خصوصاً وأنه يعاني من خوف المرتفعات، مثلما قيل من قبل. ولكن دون جوزيه يتمتع بالحياة المتدح لأولئك الذين لا يمضون وقتهم في الشكوى من اختلالات عصبية ونفسية، حقيقة أو مُتخيلة، والاحتمال الأكبر هو أنه لم يُحدث زملاءه قط عن معاناته، ولو أن الأمر غير ذلك، لفعل هؤلاء ما هو أكثر من النظر إليه برببة بينما هو في أعلى السلم، خائفاً من فقدان توازنه، والوقوع فوق رؤوسهم، على الرغم من حزام الأمان المضمون. وعندما يرجع دون جوزيه إلى الأرض، وهو ما يزال نصف دائخ ومدارياً بأفضل ما يمكن آخر إمارات الدوار، لا يدور في خلد الموظفين الآخرين، سواء أمثاله الكتبة أو الرؤساء، الخطر الذي جازف بالتعرض له.

والآن حان الوقت للتوضيح بأن إصداد الباب لم يحمل إلى دون جوزيه سوى الراحة والرضى، بالرغم من اضطراره إلى القيام بذلك

الاتفاق حول البناء للدخول إلى المحفوظات العامة والعودة إلى بيته. لم يكن بالشخص الذي يتلقى زارات زملائه في استراحة الغداء، وإذا ما سقط يوماً طریع الفراش، فإنه يذهب بنفسه إلى قاعة المحفوظات، ليقدم نفسه إلى نائب المدير المسؤول لكي لا تبقى هناك أية شبّهات حول نزاهته كموظّف، وكي لا يضطروا إلى أن يرسلوا إليه الرقابة الصحّية للكشف عليه في سريره. وقد تقلصت أكثر فأكثر، مع منع استخدام الباب، احتمالات أي تدخل مفاجئ إلى تحفظه البيتي، إذا ما ترك مكتوفاً فوق الطاولة، على سبيل المثال، وبالمصادفة، ذاك الشيء الذي يكلّفه جهداً كبيراً منذ سنوات طويلة، وهو، للعلم، مجموعته من الأخبار الصحفية عن شخصيات من البلاد صارت مشهورة، سواء لأسباب طيبة أو خبيثة. أما الأجانب، ومهمماً تكون أبعاد شهرتهم، فلا يهمونه في شيء، لأن أوراقهم تُورشف في محفوظات أخرى مختلفة، إذا كانوا يطلقون هذا الاسم أيضاً هناك، وهي مكتوبة بلغات لا يستطيع فك رموزها، وتحكمهم قوانين لا يعرفها، ولا يمكنه بلوغها حتى لو استخدم أكثر السلاالم طولاً. وهؤلاء الأشخاص، من أمثل دون جوزيه، موجودون في كل مكان، يشغلون الوقت الذي يعتقدون أنه فائض عن حياتهم في جمع الطوابع، العملات، الميداليات، الفازات، البطاقات البريدية، علب الثقاب، الكتب، الساعات، القمصان الرياضية، التوقيع، الأحجار، الدمى الصلصالية، علب المرطبات الفارغة، تماثيل الملائكة المصغرة، الصباريات، برامج حفلات الأوبرا، الولاعات، رياش الكتابة، رسوم اليوم، علب الموسيقى، القوارير، القسائم، لوحات الرسم، الجرار، الغلايين، المسلاط الزجاجية، بطاطس الخزف، الدمى القديمة، أقنعة الكرنفال، ومن المحتمل أنهم يفعلون ذلك لسبب يمكن أن نطلق عليه اسم الفم الميتافيزيقي، ربما لأنهم لا يطيقون تقبل فكرة أن الفوضى

هي المتحكم الوحيد بالكون، ولهذا يعمدون، بقوائم الضعيفة، ودون عون إلهي، إلى محاولة وضع نظام ما في العالم، ويتوصلون إلى ذلك خلال بعض الوقت، طالما هم قادرون على حماية مقتنياتهم، لأنه عندما يأتي اليوم الذي تتبعثر فيه تلك المقتنيات، وهو يوم لا بد أن يأتي على الدوام، سواء بالموت أو باستنفاد جهود الجامع، يعود كل شيء إلى البداية، ويعود كل شيء إلى الفوضى.

حسن، مع اتضاح أن نزوة دون جوزيه هذه هي من أكثر النزوات براءة، فليس مفهوماً سبب حرصه الشديد على ألا يرتاب أحد في أنه يجمع قصاصات صحف ومجلات تتضمن أخبار وصور أناس مشهورين، دون أي سبب آخر سوى هذه الشهرة نفسها، ذلك أنه لا فرق لديه إذا ما كانوا سياسيين أو جنرالات، ممثلين أو معماريين، موسقيين أو لاعبي كرة قدم، دراجين أو كتاباً، مضاربين أو راقصات، قتلة أو مصريين، محظيات أو ملكات جمال. ولم يكن يسلك هذا المسار السري على الدوام. صحيح أنه لم يرغب قط في التحدث عن تسليته تلك إلى الزملاء القلائل الذين يثق بهم إلى حد ما، ولكن هذا عائد إلى تحفظه الطبيعي، وليس لاحتراس واعٍ من أن يضع نفسه في موضع سخريّة. لقد ظهر اهتمامه في الدفاع بحرص شديد عن خصوصيته بعد وقت قصير من هدم البيوت التي كان يسكنها موظفو المحفوظات العامة، أو بدقة أكبر، بعد أن جرى تبييهه إلى أنه لم يعد بإمكانه استخدام باب الاتصال المباشر. يمكن أن يكون الأمر مجرد توافق عارض، مثلما هناك الكثير من المصادفات، لأنه لا يبدو أن ثمة أي علاقة مباشرة أو قريبة بين تلك الواقعـة و حاجته المفاجئة جداً إلى التكتم، ولكن النفس البشرية تتحـذـفـ في أحـيـانـ كـثـيرـةـ، كما هو مـعـرـوفـ، قـرـاراتـ تـقـولـ إنـهـ لاـ تـعـرـفـ أـسـبـابـهاـ، وـيـفـتـرـضـ أنـهـ تـفـعـلـ ذـلـكـ بـعـدـ أنـ

تكون قد جابت دروب الدماغ بسرعة لا تجد القدرة بعد ذلك على التعرف عليها ناهيك عن المثور عليها. وسواء أكان الأمر هكذا أم لم يكن، أو كان هذا هو التفسير أو أي شيء آخر، فقد أحس دون جوزيه في ساعة متقدمة من إحدى الليالي، وبينما هو يعمل باطمئنان في تحديث أوراق مطران في مجموعته، بأن ذلك المطران سيبدل له حياته. من المحتمل أن وعيه مفاجئاً أشد قلقاً من حضور المحفوظات العامة في الجانب الآخر من الجدار السميكي، وتلك الرفوف الضخمة المترعة بالأحياء والأموات، والمصباح الصغير الشاحب المتسللي من السقف فوق طاولة المدير، المضاء طوال النهار وطوال الليل، والظلمات الكثيفة التي تكتف المرات بين الخزائن، والظلمة السحيقة التي تخيم في أقصى القاعة، والوحشة، والصمت، من المحتمل أن هذا كله، في إحدى اللحظات، عبر دروب الذهن المبهمة التي سبق ذكرها، جعله يدرك أن ثمة شيئاً أساسياً ناقصاً في مجموعاته، أجل، إنه الأصل، الجذر، المنشأ، أو بكلمات أخرى، إنه ببساطة شهادة ميلاد الشخصيات المشهورة التي ينهمك في جمع وتوثيق أخبار حياتها العامة. فهو لا يعرف مثلاً، ما هو اسم أبي المطران، ولا من هما عراباه اللذان رافقاه عند تعميده، ولا مكان ولادته الدقيق، في أي شارع، في أي مبنى، في أي طابق، وأما بالنسبة إلى تاريخ الميلاد، إذا كان وارداً بالمصادفة في إحدى هذه القصاصات، فإن السجل الرسمي للمحفوظات وحده هو الذي يقدم، بكل جلاء، المعلومة الموثوقة، وليس معلومة مفلترة لتقطتها الصحافة، ولا يدرى أحد مدى دقتها، إذ يمكن أن يكون الصحفي قد أساء السماع أو النقل، ويمكن أن يكون المصحح قد أخطأ، ولن تكون المرة الأولى التي يحدث فيها ذلك في تاريخ الأخطاء المطبعية. والحل متوفّر في متناول يده. كانت قناعة رئيس المحفوظات العامة المستندة

إلى ثقل سلطته المطلقة، تفدي يقينه بأن أي أمر يخرج من فمه يُنفذ بأقصى صرامة وبأقصى دقة، دون المجازفة بوقوع عواقب نزوية أو مضاعفات اعتباطية من جانب المرؤوس الذي يتلقى الأمر، هي السبب في إبقاء مفتاح باب الاتصال مع دون جوزيه. ما كان ليخطر له مطلقاً أن يستخدمه، وما كان ليُخرجه مطلقاً من الدرج الذي أودعه فيه، لو لم يصل إلى النتيجة بأن جهوده ككاتب سير متطوع لن تكون ذات فائدة تذكر، موضوعياً، دون تضمينها دليلاً موثقاً، أو نسخة مطابقة، لوجود من يتبع سيرتهم في الحياة، ليس واقعياً فقط، وإنما رسمياً كذلك.

وليتصور الآن كل من هو قادر على التصور حالة التوتر العصبي، والاستثارة التي فتح بها دون جوزيه لأول مرة الباب المحظور، والقشعريرة التي جعلته يتوقف عند المدخل، كما لو أنه وضع قدمه على عتبة حجرة يُدفن فيها إله لا تأتيه مهابته، على عكس ما هو شائع، من الانبعاث، وإنما من رفضه له. فالآلهة الموتى وحدهم هم الآلهة دوماً. كانت الكتل الشبحية للخزائن المترعة بالأوراق تبدو وكأنها تشق السقف غير المرئي وتعلو في السماء السوداء، وكان الضوء الشاحب فوق طاولة المدير أشبه بنجمة نائية وخامدة. ومع أنه يعرف جيداً الأرض التي يتحرك فوقها، فقد أدرك دون جوزيه، عندما استعاد ما يكفي من هدوئه، أنه بحاجة إلى مساعدة ضوء كي لا يصطدم بالأثاث، ولكن قبل ذلك، لكي يصل دون إضاعة وقت كثير، إلى الوثائق الخاصة بالمطران، البطاقة أولاً، وبعد ذلك الملف الشخصي. كان لديه مصباح يدوي في الدرج الذي يحتفظ فيه بالمفتاح. ذهب لإحضاره، وعندئذ، كما لو أن حمله الضوء قد ولد شجاعة جديدة في روحه، تقدم مصمماً تقريراً بين الطاولات، حتى بلغ الكونتوار، الذي كان يقع تحته أرشيف بطاقات الأحياء الواسع. وعثر بسرعة على بطاقة المطران وحالفة الحظ بأن

الخزانة التي يحفظ فيها الملف المطابق للبطاقة لم يكن أعلى من مدى ارتفاع الذراع. لم يتحتاج للسلم، ولكنه فكر بتوجس كيف ستكون حياته عندما سيضطر إلى الصعود إلى المناطق العليا من الخزائن، هناك حيث تبدأ السماء السوداء. فتح خزانة المطبوعات، وأخرج نموذجاً من كل نوع من الاستمرارات ورجع إلى البيت، تاركاً باب الاتصال مفتوحاً. جلس بعد ذلك، وببيده التي مازالت ترتعش، بدأ باستنساخ المعلومات الشخصية للمطران على نسخة من الاستمرارات البيضاء، الاسم الكامل، دون أن يُغفل أي كنية أو أي تفصيل، تاريخ مكان الولادة، أسماء الأبوين، أسماء العرابين، واسم الكاهن الذي عمّده، واسم موظف المحفوظات العامة الذي قام بتسجيله، كل الأسماء. وعندما وصل إلى نهاية العمل الوجيز كان مستفتداً، يداء تضحان عرقاً، وهو يشعر بقشعريرة في ظهره، كان يدرك جيداً أنه افتر خطيئة روح الفريق الوظيفي، فليست هناك عملياً ما يرهق الإنسان أكثر من اضطراره إلى النضال، ليس ضد روحه بالذات، وإنما ضد تجريد ما. فبتفحصه تلك الأوراق ارتكب مخالفة ضد الانضباط الوظيفي وأخلاقه، وربما ضد الشرعية. ليس لأن المعلومات التي تتضمنها محظورة أو سرية، فهي ليست كذلك، إذ يمكن لأي شخص أن يحضر إلى المحفوظات ليطلب نسخاً أو شهادات عن وثائق المطران دون حاجة إلى توضيح أسباب طلبه أو الأهداف التي يتواхها، وإنما لأنه كسر سلسلة المراتبة الوظيفية وتصرف دون الأمر أو التفويض اللازم من رؤسائه. وقد خطر له في تلك اللحظة أن يتراجع، أن يصلح فعلته غير النظامية بتمزيق النسخ الواقحة التي استنسخها وإزالتها من الوجود، وتسليم المفاتيح للمدير، لا أريد تحمل المسؤولية يا سيدى إذا ما حدث فقد شيء من المحفوظات، وبعد ذلك، نسيان هذه الدقائق السامة التي عاشها للتلو. ومع ذلك، فقد تغلب

عليه الرضا والفخر بأنه عرف كل شيء، وكانت هذه هي الكلمة التي قالها، كل شيء، عن حياة المطران. نظر إلى الخزانة حيث يخبيء علب مجموعات القصاصات وابتسם بتلذذ حميم، مفكراً بالعمل الذي يتنتظره الآن، بالتوييعات الليلية، بالجمع المنظم للبطاقات والملفات، وبالنسخ التي سيسخنها بأفضل خط لديه، وأحس بسعادة غامرة لم يعكر حماسه معها معرفته بأنه سيسخدم السلم اليدوي. رجع إلى المحفوظات وأعاد وثائق المطران إلى أماكنها. بعد ذلك، وبإحساس بالثقة بنفسه لم يعرف مثله طوال حياته، من بضوء المصباح على ما حوله، كما لو أنه يستحوذ أخيراً على شيء كان له منذ الأزل، ولكنه لم يستطع الاعتراف بملكيته له إلا الآن. توقف لحظة لينظر إلى منضدة الرئيس، المحاطة بهالة الضوء الشاحب الذي يسقط من أعلى، أجل، هذا ما يتوجب عليه عمله، الجلوس على ذلك المقعد، فمنذ اليوم سيكون السيد الحقيقي لأرشيف المحفوظات، فهو وحده القادر، إذا ما أراد، باضطراره إلى قضاء النهار هناك مجبراً، أن يعيش هناك الليل أيضاً بإرادته، الشمس والقمر يدوران دون توقف حول المحفوظات العامة للسجل المدني، العالم ومركز العالم. من أجل إعلان بداية شيء ما، يجري الحديث دوماً عن النهار الأول، بينما الليلة الأولى هي التي يجب أخذها بالحسبان، فهي شرط النهار، فالليل سيكون أبداً لو لم يكن هناك ليل. كان دون جوزيه جالساً على مقعد المدير، وسيبقى هناك حتى الفجر، منصتاً إلى الهمس الأصم لأوراق الأحياء فوق الصمت الكثيف لأوراق الأموات. عندما انطفأت أنوار المدينة وبدت النوافذ الخمس التي فوق الباب الكبير بلون الرماد القاتم، نهض عن المقعد ودخل إلى البيت موصداً بباب الاتصال وراءه. اغتسل، حلق ذقنه، تناول فطوره، خبأ جانباً أوراق المطران، ارتدى أفضل بدلة لديه، وعندما

أزفت الساعة، خرج من الباب الآخر، الباب المؤدي إلى الشارع، وقام بالاتفاق حول المبنى ودخل إلى المحفوظات. لم يلحظ أي من زملائه من هو القادم، وردوا على التحية كعادتهم قائلين، صباح الخير يا دون جوزيه، دون أن يدرروا مع من كانوا يتكلمون.

لحسن الحظ أن الناس المشهورين ليسوا كثيرين. وحتى باستخدام المعايير الانتقائية والتمثيلية بالغة التساهل والأريحية مثلاً هي معايير دون جوزيه التي رأيناها، لن يكون من السهل، خصوصاً حين يتعلق الأمر ببلد صغير، الوصول إلى مئة كاملة من الشخصيات المشهورة حقاً دون السقوط في التساهل والتراخي المعروف في أنطولوجيات «أفضل مئة سوناتا حب» أو «أقوى مئة مرثية»، التي نجد أنفسنا محققين تماماً في الارتياب بأن القصائد الأخيرة المختارة فيها لم تُورد إلا لاستكمال العدد. ولو نظرنا إلى مجموعة دون جوزيه بمجملها، فإنها تتجاوز المئة بكثير، ولكن العدد مئة، سواء بالنسبة إليه أو إلى مُصنف مختارات المراثي أو السوناتات، يشكل حداً، نهاية، *nec plus ultra*<sup>(1)</sup>، أو أنه يشبه قارورة، إذا تحدثنا بالصطلاحات العامية، سعتها لتر واحد ولا يمكن لها، مهما حاولنا، أن تتسع لأكثر من لتر سوائل واحد. ويمثل هذا الفهم لطبيعة الشهرة النسبية، لن يسيء لها، في اعتقادنا، وصفها بالдинاميكية، خصوصاً وأن مجموعة شخصيات دون جوزيه التي تتقسم إلى قسمين، المئة الأوسع شهرة من جهة، ومن جهة أخرى أولئك الذين

<sup>(1)</sup> عبارة لاتينية تشير إلى حدود لم يجر تجاوزها، وهي تُنسب إلى هرقل الذي قالها، كما تقول الأسطورة، عند بلوغه جبل أبيلا (سبتا) وكالبيه (جبل طارق)، أي أعمدة هرقل، وظن أنها حد العالم ونهايته، ففصل بينهما لتتحدد مياه الأطلسي بمياء البحر المتوسط.

لم يتوصلا إلى ذلك القدر من الشهرة، نقول إن تلك المجموعة تبقى في حركة دائمة في تلك المنطقة التي أطلقنا عليها اصطلاحاً تسمية الحدود. فالشهرة، آه لحالنا، هي نعمة يمكن لها أن تأتي أو تذهب، لأنها مثل رأي يمكن لها أن تدور نحو الشمال مثلاً نحو الجنوب، وبالطريقة نفسها التي يمكن بها للشخص أن ينتقل من الإهمال والنسيان إلى الشهرة دون أن يدرك السبب، فإنه ليس من النادر بعد أن يكون قد اختال مبتخراً أمام الحظوة الشعبية المتحمسة، أن ينتهي به الأمر إلى طمس اسمه في عالم النسيان. وبنطبيق هذه الحقائق المحزنة على مجموعة دون جوزيه، يُفهم أيضاً أن هناك حالات صعود مجيدة وحالات سقوط درامية كثيرة، فقد يخرج أحدهم من جماعة الاحتياطيين ويدخل في جماعة الفاعلين، وقد لا يعود في القارورة متسع لأحدهم ويتوجب الإلقاء به خارجاً. إن مجموعة دون جوزيه تشبه الحياة كثيراً.

وفي عمله الدؤوب، حتى ساعة متأخرة من الفجر أحياناً، مع ما رافق ذلك من نتائج سلبية واضحة على مؤشرات الانتاج التي عليه إنجازها في وقت الخدمة الطبيعية، أنهى دون جوزيه خلال أسبوعين جمع ونقل المعلومات الأصلية من الملفات الشخصية للمئة شخص الأوسع شهرة في مجتمعه. لقد مرّ في لحظات رعب لا توصف في كل مرة كان عليه فيها أن يتسلق السلالم حتى الدرجة الأخيرة لكي يصل إلى الرفوف العليا، حيث، كما لو أن معاناة الدوار ليست كافية، يبدو أن كل عناكب المحفوظات العامة للسجل المدني قد قررت نسج أكثر الشباك، التي يمكن يوماً لوجه بشري أن يلمسها، كثافة وتعفرأ واتساعاً. كان القرف، أو الخوف بكلمة أكثر فظاظة، يضطره إلى هز ذراعيه بجنون لكي يُزيح تلك الملامة المقززة، ولحسن الحظ أنه كان

يربط الحزام بمعناة إلى درجات السلم، ولكن كانت هناك مناسبات لم يفصله فيها إلا القليل عن السقوط، هو والسلم معاً، والارتطام بالأرض؛ مثيرةً سحابة من الغبار التاريخي تحت وابل مطر انتصاري من الأوراق. وفي واحدة من لحظات الفم تلك، وصل إلى حد التفكير بفك نفسه وتقبل المجازفة بسقوطِ دُوَّفِ حماية، حدث ذلك عندما تصور العار الذي سيلطخ اسمه وذكراه إلى الأبد إذا ما دخل الرئيس في الصباح ووجده، هو دون جوزيه، ميتاً بين خزانتين، رأسه مشحوج ودماغه ظاهر، وهو مقيد بصورة مضحكة إلى السلم بالحزام. وتوصل بعد ذلك إلى أن فك نفسه سينقذه من السخرية فقط، ولكن ليس من الموت، وهو أمر لا يستحق العناء. وفي نضاله ضد الطبيعة الرهابية التي أتى بها إلى الدنيا، وعند نهاية المهمة تقريباً، بالرغم من أنه كان قد عمل في الظلام تقريباً، تمكّن من إبداع وإنقاذ طريقة لتحديد موقع الملفات والتعامل معها أتاحت له أن يُخرج في ثوان قليلة الوثائق التي يحتاج إليها. المرة الأولى التي واتته فيها الشجاعة على عدم استخدام الحزام، كان كما لو أن انتصاراً خالداً قد سُجل في سيرته الذاتية المتواضعة ككاتب. لقد شعر بالإنهاك، بالشحوب، مع تشنجمات في بواب معدته، ولكنه كان سعيداً سعادة لا يذكر أنه أحس بها في حياته، عندما احتل المشهور المصنف في الموقع المئة مكانه في العلبة المخصصة له، بعد تحديده وفق كل أنظمة المحفوظات العامة. عندئذ فكر دون جوزيه بأنه سيكون من المستحسن، بعد هذا الجهد العظيم، نيل قسط من الراحة، وحيث أن نهاية الأسبوع توشك أن تبدأ، فقد قرر أن يرجئ المرحلة التالية من العمل إلى يوم الاثنين، هذا يعني إعطاء وضع مدني نظامي للبضعة وأربعين مشهوراً احتياطياً الذين ما زالوا في الانتظار. لم يكن يعلم بأنه يمكن حدوث شيء أكثر خطورة من

مجرد وقوعه عن السلم. ويمكن لعاقبة السقوط أن تضع حدأً لحياته، وهو ما ستكون له دون ريب أهمية من الوجهة الإحصائية والشخصية، ولكننا نتساءل، ما الذي يعنيه هذا، إذا كانت الحياة ببيولوجياً هي نفسها، أي أن الكائن نفسه، الخلايا نفسها، الملامح نفسها، القامة نفسها، الطريقة الظاهرية نفسها في النظر والرؤية والتعدد، فهذه الحياة تحولت، دون أن يهتم الإحصاء بالتبديل، لتكون حياة أخرى، وتحول هذا الشخص ليكون شخصاً آخر.

لقد تكفل مشقة كبيرة في تحمل البطء غير الطبيعي الذي تجرج به يوما العطلة، ويدا له ذلك السبت وذلك الأحد أبديين. شغل الوقت في اقطاع قصاصات من الصحف والمجلات، وفتح في بعض الأحيان باب الاتصال ليتأمل قاعة المحفوظات العامة بكل صمتها المهيّب. كان يشعر بأنه يحب عمله أكثر من أي وقت مضى، فبفضله يمكنه التوغل في حميمية الكثير من الشخصيات المشهورة، وأن يعرف على سبيل المثال، أشياء يبذل بعضهم كل ما هو ممكن لإخفائها، مثل كونهم أبناء مجاهولي الآباء أو الأمهات، أو مجاهولي كليهما، مثلما هو حال أحدهم، أو قولهم إنهم ينحدرون من حاضرة إحدى المقاطعات أو النواحي في حين أنهم ولدوا في قرية منسية، أو في مفترق طرق لاسمه وقع رهيب، إذا لم يكن في مكان يعيق ببساطة برائحة روث وزريبة أو ربما في مكان بلا اسم. بهذه الأفكار، وأفكار أخرى ذات نبرة ارتياحية مشابهة، وصل دون جوزيه إلى يوم الاثنين وقد استعاد قواه جيداً بعد الجهود المضنية التي أقدم عليها، بالرغم من التوتر العصبي المتراكم من الصراع المتواصل بين الرغبة والخوف، مستعداً للتصدي لغامرات ليلية أخرى، وعمليات تسلق جريئة أخرى.

ولكن النهار انقلب مع ذلك رأساً على عقب منذ الصباح. فنائب

المدير المسؤول عن الشؤون الإدارية أبلغ المدير بأنه بدأ يلاحظ، في الأسبوعين الأخيرين، استهلاكاً في استثمارات البطاقات ومغلفات الملفات لا يتاسب مع عدد المواليد المسجلين في المحفوظات، بالرغم من الأخذ بعين الاعتبار متوسط الأخطاء المسموح به إدارياً في عملية التسجيل. أراد المدير أن يعرف ما هي الإجراءات التي اتخذها نائب المدير لتقصي أسباب الخلل في الاستهلاك، وما هي الإجراءات الأخرى التي يفكر في اتخاذها كي لا يتكرر حدوث ذلك. فأوضح نائب المدير، برصانة، أنه لم يتخذ أي إجراء بعد، وأنه لا يسمح لنفسه بالتفكير في أي فكرة، ناهيك عن القيام بأي مبادرة، قبل أن يطرح القضية على المراجع العليا، وهو ما كان يفعله في تلك اللحظة. فرد المدير بجفاء، كعادته، ها قد طرحت الأمر، فتصرف الآن، ولا أريد سماع المزيد حول هذه القضية. ذهب نائب المدير إلى طاولته ليفكر، وبعد ساعة من ذلك حمل إلى المدير مسودة تعميم داخلي، يتم بمقتضاه إغفال خزانة المطبوعات والاستثمارات بالفتح، وبيقى ذلك المفتاح بحوزته، باعتباره الإداري المسؤول. كتب المدير: للتنفيذ، مع الموافقة، وأوصى نائب المدير الخزانة، و فعل ذلك بمبالفة ظاهرة لكي ينتبه الجميع إلى هذا التحول، فتنهى دون جزئيه الصعداء، بعد ذعر الوهلة الأولى، لأنه كان قد وجد الوقت الكافي لإنجاز الجزء الأكثر أهمية من مجموعته. وحاول أن يتذكر كم بطاقة تسجيل احتياطية ما زالت لديه في البيت، ربما حوالي اثنتي عشرة، وربما حوالي خمس عشرة. وهذا ليس بالأمر الخطير أيضاً. فعندما تنتهي، سينسخ على أوراق عادية الثلاثاء بطاقة التي ما زالت تقصصه، والاختلاف لن يسيء إلا إلى الناحية الجمالية. وفك مواسياً نفسه: ليس بالإمكان نيل كل شيء على الدوام.

لم يكن هناك أسباب للاشتباه به بأنه المتسبب المفترض في اختفاء المطبوعات أكثر من الاشتباه بأي واحد آخر من زملائه في المرتبة، ذلك أنهم وحدهم، الكتبة، من يملؤون البطاقات ومغلفات الملفات، ولكن أعصاب دون جوزيه الواهنة جعلته يخشى طوال اليوم من أن تُلاحظ الاختلاجات الخارجية لضميره المذنب وتُضبطه. وبالرغم من ذلك، خرج على ما يرام من الاستجواب الذي أخضع له. فبتعابير وجهه ونبرة صوته التي حاول تطويقها مع الوضع، أعلن أنه يتلوى أشد أشكال الحرص صرامة في استخدام المطبوعات، أولاً لأن هذه الطريقة في السلوك هي جزء من طبيعته، وأنه يعي قبل ذلك، وفي كل الظروف، أن الورق المستهلك في المحفوظات العامة يأتي من الضرائب العامة، وكم من المرات والمرات يتتحمل دافعو الضرائب التضحيات لدفعها، وأنه هو، باعتباره موظفاً مسؤولاً، يتوجب عليه أن يحترم الممتلكات العامة بصرامة ويستفيد منها إلى أقصى الحدود. وقد لقيت أقواله، سواء من حيث الشكل أو المضمون، ارتياحاً من الرؤساء، إلى حد أن زملاء الآخرين الذين تم استدعاؤهم تباعاً للاستجواب، كروها مع بعض التعديلات الطفيفة في الأسلوب، ولكن القناعة الضمنية والمعلمة، مع مرور الزمن، والتي ترسخت في ذهن العاملين من خلال شخصية الرئيس المتميزة، بأنه لا يمكن لشيء في المحفوظات، مهما حدث، أن يسير ضد مصالح الخدمة، هذه القناعة هي التي حالت دون أن يتوقف أحد عند مسألة أن دون جوزيه، منذ يومه الأول في العمل، قبل سنوات طويلة خلت، لم يتلفظ قط بمثل هذا القدر من الكلمات المتالية. لو كان نائب المدير متدرجاً على مناهج علم النفس التطبيقي في الاستجواب، لقوض في أقل من زفرة خطاب دون جوزيه المخادع، مثلما تُقْوَض قلعة من ورق اللعب زلت قدم ملك

الديناري فيها، أو مثل شخص يعاني الدوار ويهرعون به السلم. ولارتباه بأن نائب المدير المكلف بالاستجواب قد يعيد التفكير في الأمر فيما بعد، ويساوره الشك بأن **تمة** قطأً مخبأً في القضية، قرر دون جوزيه، تجنباً لما هو أسوأ، أن يبقى في بيته تلك الليلة. لن يتحرك من ركنه، لن يدخل قاعة المخطوطات حتى ولو وعدوه بالثروة التي لم يصل إليها أحد من قبل، اكتشاف الوثيقة التي طالما جرى البحث عنها منذ أن صارت الدنيا دنيا، أي شهادة الميلاد الرسمية للرب دون زيادة ولا نقصان. يقال إن الحكيم هو حكيم بقدر ما يتحلى به من حذر، ولا بد من الاعتراف، على الرغم من المخالفات التي راح يرتكبها مؤخراً، أن لدى دون جوزيه ضريباً من الحكمة، وإن تكون مبهمة وغير محددة بصورة محزنة، إنه نوع من الحكمة غير الإرادية، من تلك التي يبدو أنها تدخل الجسد من المجاري التفسية، أو لأن الشمس تضرب على الرأس، ولهذا لا تعتبر هذه الحكمة جديرة بتصنيف خاص. فإذا كان الحذر ينصحه الآن بالانسحاب، فإنه سيمثل، بحكمة، إلى صوت الحذر. فتعليق تفصياته لأسبوع أو أسبوعين سيساعد في محو أي ملمح خوف أو جزع قد يكون متبقياً في وجهه.

بعد تناول عشاءه البسيط، مثلاً تفرض عليه عادته والضرورة، وجد دون جوزيه نفسه أمام ليلة شهر طويلة دون أن يكون لديه ما يفعله. تمكّن من إلهاء نفسه خلال نصف ساعة في تصفح بعض أكثر الحيوانات شهرة في مجتمعه، أضاف إليها بعض القصاصات الحديثة، ولكن تفكيره لم يكن هناك، بل كان يشرد هائماً في عتمة قاعة المخطوطات، مثل كلب أسود عثر على طرف أثر السرّ الأخير. بدأ يفكر في أنه ليس هناك من خطير في مجرد استخدام البطاقات الاحتياطية لديه، وإن لم تكن أكثر من ثلاثة أو أربع بطاقات، لكي يشغل شطرأً

يسيرا من الليل وينام بعد ذلك مطمئناً. كان الحذر يحاول كبحه، بشده من كميته، ولكن الحذر، مثلاً ما يعرف الجميع، أو يجب عليهم أن يعرفوا، يكون جيداً عندما يتعلق بالحفظ على ما لم يعد يثير الاهتمام، فائي ضرر يمكن أن يلحقه به فتح الباب، والبحث بسرعة عن ثلاثة أو أربع بطاقات، حسن، ولتكن خمساً، فهو عدد معقود، وسيترك مخلفات الملفات إلى فرصة أخرى، وهكذا سيتجنب استخدام السلم. وأدت هذه الفكرة إلى حسمه الأمر. توغل في كوه المحفوظات الرحيب وهو يضيء الطريق بالمصباح اليدوي في يده المرتعشة، واقترب من خزانة البطاقات. كان أكثر عصبية مما اعتقده قبلاً بينما هو يدير رأسه إلى هذه الجهة وتلك بارتياب، كما لو انه مراقب من مليارات العيون المختبئة في ظلمة المرات ما بين الخزائن. لم يكن قد استعاد تمسكه من صدمة الصباح. فتح وأغلق أدراجاً بالسرعة التي أتاها له أصابعه المتوترة، باحثاً في مختلف فهارس الحروف الأبجدية عن البطاقات التي يحتاج إليها، مخططاً مرة بعد أخرى، إلى أن تتمكن أخيراً من جمع بطاقات الخمسة مشهورين الأوائل من الفئة الثانية. رجع إلى البيت راكضاً وقد انتابه الفزع حقاً، وقلبه يطفر بقوة، مثل طفل يذهب إلى خزانة الأطعمة لسرقة قطعة حلوى ويرجع من هناك تطارده كل مسوخ الظلمات. صفق الباب في وجههم وأدار المفتاح دورتين في القفل، ولم يكن يريد التفكير بأنه عليه العودة هذه الليلة مرة أخرى إلى المحفوظات لكي يعيد البطاقات اللعينة إلى أماكنها. ولكي يهدئ من روعه، شرب جرعة من زجاجة الخمر التي يحتفظ بها للمناسبات، السعيدة منها والتعيسة. ويسبب التسرع والافتقار إلى العادة، ذلك أن المناسبات السعيدة والتعيسة نفسها كانت نادرة في حياته، غص بالشراب، فسعل، ثم سعل من جديد، وهو موشك على الاختناق، إنه

كاتب بائس يحمل في يده خمس بطاقات، هو كان يعتقد أنها خمس، ولشدة السعال أفلتها من يده، ولم تكن خمساً، بل ست بطاقات، مبعثرة على الأرض، مثلاً يمكن للأي شخص أن يراها وبعدها، واحدة، اثنان، ثلاثة، أربع، خمس، ست، لم يحدث من قبل أن كان لفخول جرعة واحدة من الخمر مثل هذا التأثير.

عندما تمكن أخيراً من استعادة أنفاسه، انحنى ليلتقط البطاقات، واحدة، اثنان، ثلاثة، أربع، خمس، لا شك في ذلك، ست، وبينما هو يلتقطها على التوالي كان يقرأ الأسماء المدونة عليها، الجميع مشهورون، باستثناء واحد منها. مع التسرع واضطراب الأعصاب، كانت البطاقة الداخلية قد التصقت وبالتالي تساقها، وكان الفرق في السماكة ضئيلاً إلى حد تكاد معه أن تكون ملاحظة ذلك غير ممكنة. من الواضح أنه مهما كانت المبالغة في العناية بالخط وتميقه، فإن استساخ خمس سجلات ميلاد وحياة موجزة هو عمل يمكن إنجازه في وقت قصير. بعد نصف ساعة كان بإمكان دون جوزيه إنهاء السهرة وفتح الباب مرة أخرى. جمع البطاقات السبعة بفتور ونهض عن الكرسي. لم يكن يشعر بأي رغبة في الدخول إلى المحفوظات، ولكن ليس هناك من مهرب آخر، يجب أن تكون خزانة البطاقات كاملة وبالترتيب المعهود في الصباح التالي. لأنهم إذا ما اضطروا إلى مراجعة إحدى هذه البطاقات ولم تكن في مكانها، فإن الوضع سيتفاقم. ومن ارتياه، ومن تحقيق إلى تحقيق، سينتهي الأمر بأحدهم إلى أن يلاحظ أن دون جوزيه يعيش ملائقاً لجدار المحفوظات العامة، التي كما نعرف جيداً، لا تتمتع بأدنى قدر من الحراسة الليلية، وسيخطر لأحدهم أن يسأل أين صار ذلك المفتاح الذي يتبع الدخول، ولم يسترد. ما يجب أن يكون، يجب أن يكون، وبقوة كبيرة، فكر في ذلك دون جوزيه دون أصالة.

وتوجه نحو الباب. ولكنه توقف فجأة في منتصف الطريق، إنه لأمر مثير للضلال، فأنا لم أدقق إذا ما كانت البطاقة التي جاءت ملتصقة هي لرجل أم لامرأة. رجع إلى الوراء، جلس مجدداً، سيتأخر قليلاً على هذا النحو منصاعاً لقوة ما يجب أن يكون. كانت البطاقة لامرأة في السادسة والثلاثين، مولودة في تلك المدينة نفسها، وفي الوقوعات هناك تثبتت لواقعتين، واحدة للزواج، والأخرى للطلاق. من المؤكد أن هناك في صندوق البطاقات مئات، إن لم يكنآلاف، مثل هذه البطاقة، ولهذا لا يُفهم لماذا راح دون جوزيه ينظر إليها بملامح شديدة الغرابة، ملامح بدت للوهلة الأولى متقطعة، ولكنها شاردة وقلقة، ربما هذه هي الطريقة التي ينظر بها من هو آخذ، دون رغبة أو تنازل، بالإفلات شيئاً فشيئاً من شيء، ولا يدرى بعد أين سيضع يده ليثبت نفسه من جديد. هناك دوماً من يشير إلى تعارضات مزعومة وغير مقبولة بين القلق والشروع والتيقظ، وهؤلاء هم أشخاص يقتصرون على العيش كيما اتفق، أشخاص لم يواجهوا القدر قط وجهاً لوجه. دون جوزيه ينظر وبعيد النظر إلى ما هو مكتوب في البطاقة، لا حاجة إلى القول إن الخط ليس خطه، فهو ذو جرة انقضت «موضتها»، فقبل ست وثلاثين سنة دون كاتب آخر الكلمات التي يمكن قراءتها هنا، اسم الطفلة، اسم الأبوين، اسم العرابين، تاريخ وساعة الميلاد، الشارع، رقم البناء، الطابق الذي رأت فيه أول نور وأحسست فيه بأول ألم، بداية مثل بدايات جميع الناس، لأن الفروقات الكبيرة والصغرى تأتي فيما بعد، بعض من يولدون يدخلون الموسوعات، والتاريخ، وسير الترجم، والكتالوجات، والمراجع، ومجموعات القصاصات، والآخرون، وبمقارنة غير موفقة، هم مثل سحابة مررت دون أن تُخلف أثراً لمزورها، وإذا ما أ茅طرت، فإنها لم تتوصل إلى بل الأرض. وفكرة دون جوزيه، مثلي أنا. كانت خزانته مملوءة

برجال ونساء ممن يجري الحديث عنهم كل يوم تقريباً في الصحف، وعلى الطاولة شهادة ميلاد لشخصية مجهولة، وكان ذلك كما لو أنه قد وضع في كفتي ميزان، مئة شخصية في هذا الجانب، وبشخصية واحدة في الجانب الآخر، ثم اكتشف بعد ذلك، متراجعاً، أن أولئك جميعهم معاً لا يزنون أكثر من هذه، وأن المئة مساوون للواحد، وأن واحداً يساوي ما يساويه مئة. لو أن أحداً دخل إلى البيت في تلك اللحظة وسأله فجأة، أتظن<sup>(١)</sup> أن الواحد الذي هو أنت أيضاً، يساوي ما يساويه مئة، أي أن قيمة المئة الذين في خزانتك، كي لا نذهب بعيداً، هي مثل قيمتك أنت، فسوف يرد دون شك، سيد العزيز، أنا مجرد كاتب بسيط، لستُ أكثر من كاتب بسيط في الخمسين لم يُرفع إلى مرتبة مأمور، ولو كنت أظن أنني أساوي ما يساويه واحد فقط من أولئك الذين أحافظ عليهم، أو أي واحد من هؤلاء الخمسة الأقل شهرة، لما بدأت بجمع هذه المجموعة. لماذا لا تتوقف إذن عن النظر إلى هذه المرأة المجهولة، كما لو أنها تكتسب فجأة أهمية أكبر من كل الآخرين، لهذا السبب تحديداً يا سيد العزيز، لأنها مجهولة، دعك من هذا، فخزانة البطاقات في المحفوظات مملوءة بالمجهولين، ولكنهم في خزانة البطاقات، وليسوا هنا، ما الذي تعنيه، لا أعرف بالضبط، في هذه الحالة دعك من الأفكار الميتافيزيقية التي لم يولد دماغك من أجلها على ما أعتقد، وأعد البطاقة إلى مكانها ونم بسلام، هذا ما أسعى إلى فعله، مثلاً أفعل كل ليلة، وكانت نبرة الجواب تميل إلى المصالحة، ولكن

(١) يعمد المؤلف هنا، وعلى امتداد الرواية، مثلاً هو واضح، إلى إيراد الحوار متصلة، لا تفصل بينه إلا فواصل، ولكنه يبدأ كلام كل شخصية بحرف كبير، ولأن ذلك غير ممكن بالعربية، فقد لجأنا إلى إبراز الكلمة الأولى في المقاطع الحوارية ليتسنى للقارئ التمييز بين شخصيات المتكلمين.

كان ما يزال لدى دون جوزيه شيء يضيفه: أما بالنسبة للأفكار الميتافيزيقية يا سيدي العزيز، فاسمح لي أن أقول لك إنه يمكن لأي رأس أن يُنْجَها، حتى وإن لم يجد الكلمات المناسبة في أحياناً كثيرة.

وعلى عكس ما كان يتمناه، لم يستطع دون جوزيه النوم بالطمأنينة النسبية المعهودة. كان يقتفي في المتأهة المضطربة لدماغه الذي بلا ميتافيزيقياً أثر الأسباب التي دفعته إلى استساخ بطاقة المرأة المجهولة، ولم يستطع العثور على سبب واحد يمكن له أن يحدد، بصورة واعية، ذلك العمل غير المتوقع. فهو يكاد يكون عاجزاً عن أن يتذكر حركة يده اليسرى وهي تتناول البطاقة البيضاء، ثم بعد ذلك يده اليمنى وهي تكتب، وعينيه وهما تنتقلان من بطاقة كرتونية إلى أخرى، كما لو أنهما في الواقع هما اللتان تنقلان الكلمات من هناك إلى هنا.

كما أنه يتذكر كيف دخل، متفاجئاً بنفسه من نفسه، إلى المحفوظات العامة حاملاً المصباح البالدي بقوة، دون عصبية، دون جزع، وكيف أعاد وضع البطاقات السبعة في أماكنها، وكيف كانت البطاقة الأخيرة هي بطاقة المرأة المجهولة، وكيف بقيت مضاءة حتى اللحظة الأخيرة بضوء المصباح، ثم انزلقت بعد ذلك إلى أسفل، غارقة، ومحتفية بين كرتون حرف سابق وكرتون حرف لاحق، اسماً على بطاقة، ولا شيء أكثر. في منتصف الليل، أشعل الضوء وقد استفاده عدم النوم. ثم نهض بعد ذلك، وارتدى المعطف فوق ملابسه الداخلية وجلس إلى المنضدة. نام بعد وقت طویل جداً، ورأسه مستند إلى ساعده الأيمن وكفه اليسرى مستقرة فوق نسخة من بطاقة.

ظهر قرار دون جوزيه بعد يومين من ذلك. وعموماً لا يقال إن قراراً قد ظهر لنا، فالأشخاص شديداً الغيرة على هويتهم، مهما كانت غامضة، وعلى سلطتهم، مهما كانت ضئيلة، يفضلون الإيحاء بأنهم يفكرون مسبقاً قبل أن يقدموا على الخطوة الأخيرة، وأنهم أمعنوا النظر في المنافع والمضار، وفكروا مليأً في الاحتمالات والخيارات، وأنهم، بعد بذل جهد ذهني مكثف، اتخذوا أخيراً القرار. لا بد من القول إن الأمور لا تحدث على هذا النحو. فليس هناك من تخطر لذهنه فكرة الأكل ما لم يشعر بشهية كافية، والشهية لا ترتبط بإرادة كل شخص، وإنما هي تتشكل من تقاء ذاتها، تنتج عن احتياجات موضوعية للجسد، إنها مسألة فизيو-كيميائية يمكن حلها، بصورة مرضية، بهذا القدر أو ذاك، في محتويات الطبق. بل إن عملاً شديد البساطة مثل النزول إلى الشارع من أجل شراء الصحفة لا يفترض فقط وجود رغبة كافية لتلقي معلومات، ونوضح هنا، أن كون هذا العمل رغبة، فهو بالضرورة شهية، ونتيجة فعاليات فизيو-كيميائية خاصة بالجسم، وإن تكون من طبيعة مختلفة، كما يفترض هذا العمل الروتيني كذلك، على سبيل المثال، اليقين، أو القناعة، أو الأمل، غير الواقعي، بـلا تتأخر سيارة التوزيع أو ألا يكون كشك بيع الصحف مغلقاً بسبب مرض مالكه أو تفريحه الإرادي. أضف إلى ذلك، إذا ما أحاجنا في التأكيد على أننا نحن من نتخذ قراراتنا، علينا أن نبدأ بتوضيح، وتبصر، وتمييز من

هو، في ذواتنا، ذاك الذي اتخد القرار ومن هو الذي سوف ينفذه بعد ذلك، وهما عمليتان مستحبيلتان حيثما توجدان. فتحن في الواقع لا نتخد قرارات، وإنما القرارات هي التي تتخذنا. والدليل نجده في أننا نمضي حياتنا في التنفيذ المتوالي لأكثر الأفعال تنوعاً، دون أن يسبق كل واحد منها فترة تفكير، تقويم، حساب، نعلن في نهايتها، وفي نهايتها فقط، أننا في شروط نستطيع معها أن نقرر إذا ما كانا سنذهب للغداء، أو لشراء الصحيفة، أو للبحث عن المرأة المجهولة.

لهذه الأسباب، لن يعرف دون جزئيه، حتى لو كان خاضعاً لأكثر الاستجوابات تركيزاً، أن يقول كيف ولماذا اتخد القرار، ولنستمع إلى التفسير الذي سيقدمه، ما أعرفه فقط هو أنها كانت ليلة الأربعاء، وكانت في البيت، ولم أشأ تناول العشاء لشدة التعب الذي كنت أشعر به، فقد كنت أحس بأن رأسني ما زال يدور لأنني أمضيت النهار كله فوق ذلك السلم، يتوجب على الرئيس أن يفهم أنني لم أعد في سن تتبع لي القيام بتلك البهلوانيات، وأنني لست فتياً بأي حال، فضلاً عن المعاناة. أي معاناة. أعني من الدوخة، الدوار، جاذبية الهاوية، أو أي شيء يسمونه، لم تشک من ذلك قط، لا أحب الشكوى، هذا جميل منك، تابع، كنت أفكر في أن آوي إلى الفراش، إنني أكذب، فقد كنت قد خلعت حذائي، عندما اتخدت القرار فجأة، إذا كنت قد اتخدت القرار، فأنت تعرف لماذا اتخدته، أظن لأنني لم أتخده أنا، وإنما كان هو الذي اتخدني، الأشخاص الطبيعيون يتذمرون القرارات، ولا يتخذون هم من قبل القرارات، هكذا كنت أفكر أنا أيضاً حتى ليلة الأربعاء، وما الذي حدث في ليلة الأربعاء. حدث هذا الذي أرويه لك، كانت بطاقة المرأة المجهولة على الكوميدينو، ورحت أنظر إليها كما لو أنني أراها للمرة الأولى، ولكنك كنت قد رأيتها من قبل، منذ يوم الاثنين لم أكن

أقبل في البيت شيئاً آخر غير ذلك، كنتَ تبكيت القرار، أو أنه كان بيبيتي، هيا، دعنا من هذا الكلام، ولا تعد إليه مرة أخرى، انتعلتُ الحذاء من جديد، ارتديت السترة والمعطف وخرجت، حتى أتنى لم أتذكر ربطة العنق، وكم كانت الساعة، حوالي العاشرة والنصف، وأين ذهبت بعد ذلك، إلى الشارع الذي ولدت فيه المرأة المجهولة، وبمالي نية ذهبت، أردتُ رؤية المكان، المبني، البيت، أنت تعرف أخيراً بأنه كان هناك قرار، وأنك أنت، مثلاً يجب أن يكون الأمر، من اتخاذ ذلك القرار، لا يا سيدى، كل ما هنالك أنتي وعيته، لا شك في أنك تتقن المحاججة، مع أنك لست سوى كاتب، ليس هناك من يهتم بالكتبة عموماً، ولا من ينصفهم، تابع أقوالك، كان البناء هناك، وكان هناك ضوء في التواجد، أنت تعني بيت المرأة، أجل، وماذا فعلتَ بعد ذلك، مكثتُ هناك بضع دقائق، وأنت تنظر، أجل يا سيدى، وأنا أنتظر، تنظر فقط، أجل يا سيدى، أنظر فقط، وبعد ذلك، بعد ذلك، لا شيء، ألم تطرق الباب، ألم تصعد، ألم توجه أسئلة، يا لهذه الفكرة، لم يخطر مثل هذا الخاطر في ذهني بأي حال، في مثل تلك الساعة من الليل، وكم كانت الساعة، لا بد أنها كانت عندئذ قد قاربت الحادية عشرة والنصف، أذهبت مشياً على قدميك، أجل يا سيدى، وكيف رجعت، مشياً على الأقدام أيضاً، أي أنه لا شهود لديك، أي شهود، الشخص الذي التقاك عند الباب، إذا كنتَ قد صعدت، أو سائق ترام أو حافلة، على سبيل المثال، وعلى أي شيء سيكونون شهوداً، على أنك كنت فعلاً في شارع المرأة المجهولة، وما الفائدة من هؤلاء الشهود، لكي يثبتوا أن كل هذا لم يكن حلماً، لقد قلتُ الحقيقة، الحقيقة وحدها، ولا شيء سوى الحقيقة، إنني تحت القسم، وكلمتى يجب أن تكون كافية، يمكن لها أن تكفي، ربما، لو لم يكن في قصتك تفصيل مريض جداً، أو لنقل

غير لائق. أي تفصيل تعني، ربطه العنق، وما علاقة ربطه العنق بهذه القضية، الموظف في المحفوظات العامة للسجل المدني لا يذهب إلى أي مكان دون أن يضع ربطه العنق، هذا مستحيل، لأن ذلك سيكون خطأ ضد الطبيعة نفسها، لقد قلت لك إنني لم أكن في وعيي، وإنني كنت مُتَعَذِّداً من قِبَل القرار، وهذا دليل آخر على أنك كنت تحلم، لا أرى سبباً لذلك، أمامك أحد أمرين، إما أن تعرف بأنك قد اتخذت القرار مثلاً يفعل الجميع، وسأكون عندئذ مستعداً لأن أصدق بأنك ذهبت دون ربطه عنق إلى شارع المرأة المجهولة، وهو انحراف معيب في السلوك المهني لا أريد التدقيق فيه حالياً، وإما أن تصر على القول بأن القرار اتخاذك، وهذا أمر، إضافة إلى مسألة ربطه العنق غير القابلة للتأويل، لا يمكن القبول به إلا في حالة الحلم، أكرر أنني لم أتخذ القرار، نظرت إلى البطاقة، انتعلت الحذاء وخرجت، كنت تحلم إذن، لم أحلم، استلقيت، غلب النعاس، حلمت بأنك ذاهب إلى شارع المرأة المجهولة، يمكنني أن أصف الشارع، عليك أن تُثبت لي أنك لم تمر من هناك قط من قبل، يمكنني أن أقول لك كيف هي البناءة، هيا، دعك من هذا، فجميع البناءيات تبدو رمادية في الليل، الرمادية في الليل هي القطة، والبناءيات أيضاً، أنت لا تصدقني إذن، لا، مثاذاً، إذا تكررت وسمحت لي بالسؤال، لأن ما تؤكد أنك فعلته لا يدخل في واقعي، وما لا يدخل في واقعي لا وجود له، الجسم الذي يحلم هو واقع، ولا بد وبالتالي، إلا إذا كان هناك رأي أكثر دقة، من أن يكون الحلم الذي يحلم به الجسم واقعاً أيضاً، الحلم له واقعيته كحلم وحسب، أتعني بأن واقعيتي الوحيدة هي هذه، أجل، هذه هي واقعيتك المعاشرة الوحيدة، هل أستطيع العودة إلى العمل، يمكنك ذلك، ولكن عليك أن تستعد لأنه ما زال علينا أن نناقش مسألة ربطه العنق.

بعد أن تخلص دون جوزيه بنجاح من التحقيق الإداري حول الاستثمارات المفقودة، ولكي لا يفقد المكاسب الديمغرافية المتحققة، ابتدع في ذهنه توهם هذا الحوار الجديد، الذي خرج منه منتصراً بسهولة، على الرغم من النبرة الساخرة والمتوعدة للمجادل، في قراءة جديدة، أكثر تيقظاً، يمكنه إثباتها. وقد حاجج بقناعة كبيرة إلى حد كان قادرًا على أن يكذب حتى على نفسه ثم تأكيد الكذبة بعد ذلك دون أي تأنيب ضمير، كما لو أنه لم يكن هو أول من يعرف أنه دخل فعلاً إلى المبنى وصعد الدرج، وأنه ألسق أذنه على باب الشقة التي، حسب البطاقة، ولدت فيها المرأة المجهولة. صحيح أنه لم يجرؤ على قرع الجرس، وقد قال الحقيقة في هذه النقطة، ولكنه بقي بضع دقائق على بسطة الدرج المعتمة، ثابتًا، متورتاً، محاولاً تمييز الأصوات التي تأتي من الداخل، بفضول شديد كاد أن ينسى معه الخوف من أن يُفاجأ ويُحسب لصاً من لصوص البيوت. سمع البكاء الفاضل لطفل ذي أقمطة، لا بد أنه الابن، ثم سمع همساً عذباً لتهليلة مهد أنوثية، إنها هي، وفجأة صوت رجل قال من الجانب الآخر، هذا الطفل لن يسكت أبداً، طفر قلب دون جوزيه من الخوف، إذا ما انفتح الباب، وهو أمر يمكن أن يحدث، وربما خرج الرجل، سيسأله، من أنت، ما الذي تبحث عنه هنا، ماذا سأفعل الآن، تساعل دون جوزيه، يا لبوسيه، لم يفعل شيئاً، بقي مسلولاً هناك، أعزل، وحالفة الحظ بأن أبي الطفل لا يمارس العادة القديمة بالذهاب إلى المقهى بعد العشاء لتبادل الأحاديث مع أصدقائه. حينئذ، وعندما لم يعد يسمع سوى بكاء الطفل، بدأ دون جوزيه بنزول الدرج ببطء، دون أن يشعّل الضوء، ملامساً الجدار بيده اليسرى كيلاً يفقد توازنه، كانت انحناءات درايزين الدرج شديدة البروز، وفي مستوى معين غمرته موجة رعب حين فكر بما سيحدث إذا ما جاء شخص

آخر، صامتاً، وغير مرئي لعينيه، صاعداً في تلك اللحظة الدرج وهو يتلمس الجدار بيده اليمنى، لن يمضي وقت طويل قبل أن يصطدم، رأس الآخر سيصطدم بصدره، صحيح أن الحال سيكون أسوأ بكثير مما لو كان في أعلى السلم اليدوي وجاءت عنكبوت لتعلق وجهه، ويمكن أن يكون قد لحق به كذلك إلى هنا أحد من المحفوظات العامة بنية مفاجأته متلبساً بالجريمة ويمكنه بذلك عقد المحكمة الانضباطية، وربما تكون هذه المحكمة قد بدأت مسارها، وأن ما ينقصها هو الدليل الموس. عندما وصل دون جوزيه أخيراً إلى الشارع كانت ساقاه ترتعدان، والعرق يسيل على جبهته. لقد تحولت إلى لفافة من الأعصاب، قال مؤنباً نفسه. بعد ذلك، وبصورة هذيانية، كما لو أن دماغه قد اختل فجأة وتحرك في كل الاتجاهات، وكما لو أن الزمن قد انكمش، من الوراء إلى الأمام ومن الأمام إلى الوراء، لينحصر في لحظة مكثفة، فكر في أن الطفل الذي سمعه يبكي خلف الباب هو المرأة المجهولة نفسها، قبل ست وثلاثين سنة، وأنه هو نفسه صبي في الرابعة عشرة من عمره، ليس لديه أي سبب للبحث عن أحد، وخصوصاً في مثل هذه الساعة من الليل. وبينما هو واقف على الرصيف، نظر إلى الشارع وكأنه لم يره بعد، فمنذ ست وثلاثين سنة كانت مصابيح الإنارة العامة تقدم ضوءاً أشد شحوناً، ولم تكن حجارة الشارع قد عُبدت بالإسفلت بعد، كانت حجارة مرصوفة في خطوط متassقة، وكانت لوحة المترجر الذي على الناصية تعلن عن أحذية وليس عن وجبات سريعة. تحرك الزمن، وبدأ يتمدد شيئاً فشيئاً، ثم بسرعة أكبر، بدا وكأنه يهتز في ارتجاجات عنيفة، كما لو أنه في داخل بيضة يجاهد للخروج منها، الشوارع تتواли ليحل بعضها محل بعض، البناءات تظهر وتختفي، يتبدل لونها، وشكلها، وكل الأشياء تبحث بجزع عن

أماكنها قبل أن يأتي ضوء الفجر لينقل الأماكن مجدداً. وراح الزمن يعد الأيام منذ البداية، مستخدماً الآن جدول الضرب لكي يستعيد التأثير، وقد فعل ذلك بصورة صائبة تماماً بحيث أن دون جوزيه عاد مرة أخرى إلى الخمسين من عمره فور وصوله إلى البيت. أما الطفل الباكى، فكان هو وحده من كُبرَ ساعة، مما يثبت أن الزمن ليس متماثلاً لدى الجميع، بالرغم من أن الساعات الآلية ت يريد أن تقعننا بعكس ذلك.

أمضى دون جوزيه ليلة عسيرة، ليضيفها إلى ساقطاتها التي لم تكن أفضل منها. ومع ذلك، على الرغم من الانفعالات الجياشة التي عاشها خلال رحلته الليلية القصيرة، فإنه لم يكدر ينطلي أذنه بطيبة الملاعة، كعادته، حتى غرق في نوم يمكن لأى شخص أن يسميه، للوهلة الأولى، عميقاً ومرهماً للقوى، ولكنه ما لبث أن خرج منه فوراً، بصورة مفاجئة، كما لو أن أحداً قد هزه من كتفه، دون احترام أو تروٍ. لقد أيقظته فكرة مباغطة بربت في منتصف حلمه، بصورة صاعقة جداً لم تُلحِ الوقت لأن يختلط نسيج حلم بها، فكرة أن تكون المرأة المجهولة، صاحبة البطاقة، هي في نهاية المطاف تلك التي سمعها تهدد للطفل، امرأة الزوج نافذ الصبر، وفي هذه الحالة يكون بحثه قد انتهى، انتهى سخيف، في اللحظة التي يجب أن يبدأ فيها تحديداً. ضفت غم مفاجئ على حنجرته، بينما العقل المحزون يحاول المقاومة، يريد منه أن يبدي عدم مبالاته، أن يقول لنفسه، هذا أفضل، فهوذا سيكون لدى عمل أقل، ولكن الفم لم يزايله، واصل الضفت، وكان هو [الفم] من سُؤل العقل، وما الذي سيفعله هو، إذا لم يستطع تحقيق ما يفكر فيه، سيفعل ما دأب على فعله دوماً، سيجمع قصاصات صحف، صوراً، أخباراً، مقابلات، وكان شيئاً لم يحدث، يا للمسكين، لا أظنه سيتوصل إلى ذلك، لماذا، عندما يأتي الفم، فإنه لا يغادر بهذه السهولة، يمكنه أن

يختار بطاقة أخرى ثم يبدأ بعد ذلك البحث عن هذا الشخص الجديد، المصادفة لا تختار، وإنما تعرض، والمصادفة هي التي جاءته بالمرأة المجهولة، والمصادفة وحدها هي التي تملك صلاحية الاختيار في هذا الشأن، لن يعدم وجود مجهولين في خزانة البطاقات، ولكنه سيعدم المبررات لاختيار واحد منهم وليس آخر، واحد منهم بالتحديد وليس واحداً عشوائياً من بين كل الآخرين، لا أظن أن تسلیم قيادنا للمصادفة سيكون قاعدة جيدة للحياة، سواء أكانت قاعدة جيدة أم لم تكن، وسواء كانت مناسبة أم لا، فإن المصادفة هي التي وضعت بين يديه تلك البطاقة، وماذا لو كانت المرأة هي نفسها، لو كانت المرأة نفسها، فإن المصادفة هي التي شاعت ذلك، دون أية عواقب أخرى، ومن نكون نحن حتى نتكلم عن العواقب، إذا كنا لا نكاد نرى من الرتل غير المتاهي الذي يسیر باتجاهنا دون توقف إلا أوله، هذا يعني أنه ما زال بالإمكان حدوث شيء، شيء، لا، بل كل شيء، لستُ أفهم، إننا نعيش منذهلين إلى حد لا نلاحظ معه بأن ما يحدث لنا، في كل لحظة، لا يمس ما يمكن أن يحدث لنا، هل يعني هذا أن ما يمكن أن يحدث يأخذ بالتواتر بصورة دائمة، إنه لا يتواتد فقط بقدر ما يتکاثر، ويکفي أن نقارن بين يومين متتاليين، لم أفكّر قط بأن الأمر على هذا النحو، إنها أمور لا يعرفها جيداً إلا المغمومون.

وكما لو أن المحادثة لم تكن معه، كان دون جزئيه يتقلب في السرير دون أن يجد إلى النوم سبيلاً. إذا ما كانت المرأة هي نفسها، كان يكرر، إذا ما كانت المرأة بعد كل شيء هي نفسها، فسامزق البطاقة اللعينة ولن أفكر في الموضوع أكثر. كان يعرف أنه إنما يحاول التستر على الإحباط، يعرف أنه لن يتحمل العودة إلى الأفكار المعهودة، كان يبدو وكأنه كان على وشك الإبحار لاكتشاف الجزيرة السرية الفامضة

في اللحظة الأخيرة، بينما هو يضع قدمه على معبر الصعود إلى السفينة، يظهر أحدهم وهو يحمل خريطة مبسوطة، ليس هناك ما يستحق عناء انطلاقك في هذه الرحلة، فالجزيرة المجهولة التي تريد العثور عليها موجودة هنا، انظر، على خط العرض كذا، وعلى خط الطول كذا، فيها موانئ ومدن، جبال وأنهار، وكلها لها أسماؤها وتاريخها، من الأفضل أن تقنع بقبول كونك ما أنت عليه. ولكن دون جوزيه لا يريد الاستسلام، ويوافق النظر نحو الأفق الذي يبدو ضائعاً، وفجأة، كما لو أن سحابة سوداء قد انقضت لتسمح بظهور الشمس، انتبه إلى أن الفكرة التي أيقظته كانت خادعة، وتذكر أن البطاقة تتضمن واقعتين، إحداهما واقعة الزواج، والأخرى هي الطلاق، وتلك المرأة التي في البناء متزوجة بالتأكيد، ولو أنها المرأة نفسها فلا بد للبطاقة من أن تتضمن واقعة الزواج الجديد، صحيح أن المحفوظات قد تخطئ أحياناً، ولكن دون جوزيه لم يشأ التفكير في ذلك.

متعللاً بأسباب خاصة ذات قوة كبرى لا تقاوم، اعتذر بأنه لا يستطيع الإفصاح عنها، ومذكراً على كل حال بأنها المرة الأولى خلال خمس وعشرين سنة من الخدمة المخلصة والتقييد الدقيق بمواعيد العمل التي يفعل فيها ذلك، طلب دون جزئه الإذن له بالخروج قبل ساعة من موعد انتهاء العمل. ومتبعاً التدابير التي تنظم علاقات السلسل الوظيفي في المحفوظات العامة للسجل المدني، بدأ بعرض رغبته على مأمور قسمه، الذي تتوقف على طيب أو سوء استعداده الروحي الطريقة التي سيُنقل بها الطلب إلى نائب المدير المختص، والذي سيحذف بدوره أو سيضيف بعض الكلمات، وسيشدد على هذا المقطع الصوتي أو يحذف ذاك، بحيث يمكنه، إلى حد ما، أن يؤثر في القرار النهائي. ومع ذلك، كانت الشكوك حول هذه النقطة أكبر بكثير من اليقين، لأن الأسباب التي تدفع المدير إلى منح موافقته على الإذن أو ذاك، أو حجبها عنه، لا يعرفها أحد سواه، وليس هناك من مذكرة أو سجل، خلال سنوات طويلة من عمل المحفوظات، لبلاغ وحيد، خطيء أو شفوي، يتضمن القواعد المناسبة. ولهذا ستبقى مجهولة إلى الأبد الأسباب التي منح بمقتضاهما دون جزئه الإذن بالخروج قبل نصف ساعة من انتهاء الدوام بدلاً من الساعة الكاملة التي طلبها. من المشروع أن نتصور، وإن لم يكن ذلك سوى تأمل مجاني، لا يمكن إثباته، بأن المأمور أولاً، أو نائب المدير بعد ذلك، أو كليهما معاً، قد أضافا بأن مثل

ذلك التغيب الطويل سيؤثر سلباً على سير العمل، ومن المحتمل جداً أن يكون المدير قد انتهز الفرصة لكي يُذلّ مجدداً مرؤوسه باستعراض سلطاته المتميزة. وعندما أبلغه المأمور بالقرار الذي كان نائباً للمدير قد أبلغه به، أجرى دون جوزيه حساباً للوقت وتوصل إلى أنه سيضطر، إذا كان لا يريد مواجهة صاحب البيت عائداً من عمله، إلى أن يستقل سيارة أجراة، وهي ترف إذا ما وجدت، نادر جداً في حياته. لن يكون بانتظاره هناك، وقد يحدث ألا يكون هناك أحد في البيت في تلك الساعة، ولكن ما يرحب فيه، قبل كل شيء، هو ألا يجد نفسه مضطراً إلى المواجهة مع رجل متبرم، لأن إرضاء ريبة شخص كهذا ستكون أصعب مناً من الرد على أسئلة امرأة تحمل طفلاً بين ذراعيها.

لم يفتح الرجل الباب، كما أنه لم يسمع صوته بعد ذلك من داخل البيت، وهذا يعني أنه ما زال في العمل أو أنه قادم في الطريق، ولم تكن المرأة تحمل الطفل بين ذراعيها. أدرك دون جوزيه على الفور أن المرأة المجهولة، سواءً كانت متزوجة أم مطلقة، لا يمكن لها أن تكون هي نفسها تلك التي أمامه. فمهما بلغ سعيها للحفاظ على شبابها، ومهما بلغ ترقى الزمن في معاملتها، فإنه من غير الطبيعي لشخص يحمل في جسده ستة وثلاثين سنة أن يبدو دون الخامسة والعشرين في ملامح وجهه. وكان يمكن لدون جوزيه أن يدير لها ظهره وينصرف ببساطة، أو أن يتلهم بأي تبرير سريع، كأن يقول، مثلاً، المعدرة، لقد أخطأت، إنني أبحث عن شخص آخر، ولكن طرف خيط آريان الخاص به، من أجل استخدام اللغة الميثولوجية على النسق البيروقراطي، كان هناك بطريقة أو بأخرى، وهذا دون إغفال الاحتمال العقلاني بوجود أشخاص آخرين يعيشون في البيت، ومن بينهم المرأة التي هي محطة بحثه، مع أن روح دون جوزيه، مثلاً نعرف، كانت ترفض هذا الاحتمال بحدة. أخرج

البطاقة من جيبيه، بينما هو يقول، مساء الخير يا سيدتي، مساء الخير،  
ماذا تريد، سأله المرأة، أنا موظف من المحفوظات العامة للسجل المدني  
ومكلف بالتحري حول بعض اللبس الذي نشأ في سجل شخص نعرف  
أنه ولد في هذا البيت، لم أولد أنا ولا زوجي هنا، وإنما ابنتنا فقط،  
و عمرها الآن ثلاثة شهور، ولا أظن أنها المغنية، يا لهذه الفكرة،  
الشخص الذي ابحث عنه امرأة في السادسة والثلاثين، أنا عمري سبع  
وعشرون، لا يمكن أن تكوني المرأة المقصودة بالطبع، قال دون جوزيه  
ذلك ثم أضاف، ما اسمك. أعطته المرأة الاسم، وتوقف هو برهة  
ليتسم، ثم سألها بعد ذلك، هل تعيشين في هذا البيت منذ زمن طويل،  
منذ سنتين، وهل تعرفت على الأشخاص الذين كانوا يقيمون هنا من  
قبل، هؤلاء، وقرأ اسم المرأة المجهولة وأسمى أبيوها، لسنا نعرف أي  
شيء عن هؤلاء الناس، كان البيت شاغراً واتفق زوجي على استئجاره  
مع وكيل الملك، هل هناك في البناء مستأجر قديم، في الشقة اليمنى  
من الطابق فوق الأرضي تعيش سيدة مسنة، وهي كما سمعتُ أقدم  
مستأجرة في البناء، ربما لم تكن تعيش هنا قبل ست وثلاثين سنة،  
فالناس ينتقلون كثيراً هذه الأيام، هذا ما لا يمكنني الحسم فيه، من  
الأفضل أن تتحدث معها، والآن علىّ أن أنصرف، فزوجي على وشك  
المجيء وهو لا يرافقه أن يراني أتحدث مع الغريباء، كما أنتي أقوم  
 بإعداد العشاء، إنني موظف في المحفوظات العامة للسجل المدني،  
ولستُ غريباً، وقد جئت في مهمة، وإذا كنتُ قد أزعجتك فإنني أطلب  
المعذرة، لهجة دون جوزيه اللطيفة لينت المرأة، لا، أنت لم تزعجني في  
الحقيقة، وما أردتُ قوله فقط هو أنه لو كان زوجي هنا لطلب منك أولاً  
ثبوتياتك، ساريك بطاقة كموظف، انظري، آه، حسن جداً، أنت تدعى  
دون جوزيه، ولكنني عندما قلت ثبوتياتك كنتُ أعني الوثيقة الرسمية

التي تُذكر فيها القضية التي تحقق فيها، المدير لم يفكر في أنني سأقابل بالريبة، لكل شخص طريقته في النظر إلى الأمور، والجارة التي تسكن في الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي هي.. إنها كارثة، لا تفتح بابها لأحد، أما أنا فمختلفة، فأنا أحب التحدث مع الناس، أشكرك على لطفك في التعامل معي، يؤسفني أنني لم أستطع أن أفيدك أكثر، بل على العكس، لقد ساعدتني كثيراً، فقد حدثتني عن السيدة التي في الطابق فوق الأرضي وعن مسألة الثبوتيات، لحسن الحظ أنك تفكير بهذه الطريقة. وكان يبدو أن المحادثة ستستمر لبضع دقائق أخرى، ولكن سكون البيت قطع فجأة بكاء الطفل الذي استيقظ، فهو طفل، قال دون جوزيه، لا، ليس طفلاً، بل طفلة، لقد قلت لك ذلك من قبل، وابتسمت المرأة فابتسم دون جوزيه أيضاً. وفي هذه اللحظة سمع صوت الباب السفلي وأضيء نور الدرج. فهمست المرأة، إنه زوجي، فأنا أعرف طريقته في الدخول، انصرف متظاهراً بأنك لم تتحدث معي. لم ينزل دون جوزيه. وإنما صعد بسرعة، دون أن يحدث ضجة، على رؤوس أصابعه، إلى بسطة الدرج العلوية وبقي هناك، مستنداً إلى الجدار، وقلبه يخفق كما لو أنه يعيش مغامرة خطيرة، بينما خطى الرجل الشاب الواثقة تتعالى وتقترب. قرع الجرس، وما بين فتح الباب وإغلاقه كان بكاء الطفلة ما يزال مسماً، ثم ملأً بعد ذلك صمت عظيم حلزون الدرج. وبعد دقيقة من ذلك انطفأ النور العام. وعندئذ انتبه دون جوزيه إلى أن كل الحوار مع المرأة قد دار في عتمة جوف البناء المتواطة، كما لو أن أحدهما يريد إخفاء شيء، وكان التواطؤ هو الكلمة غير المتوقعة التي وردت إلى ذهنه، تواطؤ بأي شيء، تواطؤ لأي شيء، تسأله، والحقيقة أن المرأة لم تُعد إشعال الضوء حين انطفأ بعد تبادلهما الكلمات الأولى. بدأ أخيراً نزول الدرج، متخيلاً كل

الحضر في أول الأمر، ثم متراجلاً بعد ذلك، ولم يتوقف إلا ببرهة ليسترق السمع أمام باب الشقة اليمنى في الطابق فوق الأرضي، وكان يتأتي صوت يجب أن يكون صادراً عن مذيع، لم يفكر في قرع الجرس، سيؤجل التحريرات الجديدة إلى نهاية الأسبوع، حتى يوم السبت أو الأحد، وعندئذ لن يكون غافلاً، سيحضر ووثيقة التكليف في يده، سأتهي مزوداً بصلاحية رسمية لا يتجرأ أحد على التشكيك فيها. ستكون وثيقة مزيفة، طبعاً، ولكنها ستجنبه، بقوة أنها ستكون مكتوبة على ورقة رسمية وممهورة بخاتم حقيقي، الجهد في محاولة إبعاد الشبهات قبل الدخول في لب القضية. أما بالنسبة إلى توقيع الرئيس، فإنه يشعر بالطمأنينة التامة، فمن غير المحتمل أن تكون السيدة مديدة العمر ساكنة الطابق فوق الأرضي قد رأت من قبل توقيع المدير، ولن يكون من الصعب عليه، إذا ما أمعن التفكير، أن يقلد التوقيع بفضل سعة مخيلته التمييقية. وإذا ما سار كل شيء على ما يرام هذه المرة، مثلاً هو متتأكد أنه سيحدث، فسوف يستخدم الوثيقة كلما واجهته مصاعب أو أحاس أنها ستواجهه في تحريراته المستقبلية، لأنه كان مقتطعاً بأن تقصيه لن ينتهي في الطابق فوق الأرضي. فلو افترض أن المستأجرة موجودة منذ الزمن الذي كانت فيه أسرة المرأة المجهولة تعيش في البناء، فمن الممكن أن يتبيّن أنه لم يكن هناك وئام بينهم، وأن كل شيء يختزل، في ذاكرة العجوز المتعبة، ببعض ذكريات غائمة، وهذا يعتمد على عدد السنوات التي انقضت منذ انتقال الأسرة من الطابق الثاني إلى مكان آخر في المدينة. أو إلى مكان آخر من البلاد، أو من العالم، فكر في ذلك قليلاً وقد صار في الشارع. الشخصيات المشهورة في مجتمعه، أينما ذهبـت، هنالك دائمـاً صحيفـة أو مجلـة تقـتفـي آثارـهم وتشـرمـهم رائـحـتهم لالتـقـاطـ صورـةـ أخرىـ لهمـ، لـتوـجـيهـ سـؤـالـ آخرـ

إليهم، أما الناس العاديون فلا أحد يتذكّرهم، لا أحد يهتم فعلاً بهم، ولا أحد يحفل بمعرفة ما يفعلون، أو ما يفكرون، أو بما يشعرون، حتى عند محاولة جعلهم يعتقدون عكس ذلك، فإن التصنّع يبدو واضحاً. إذا ما كانت المرأة المجهولة قد ذهبت لتعيش خارج البلاد، فإنها ستكون بعيدة عن متناول يده، وستكون كما لو أنها ميّة، نقطة وانتهى، هكذا ستنتهي القصة، غمغم دون جوزيه، ولكنه قدر بعد ذلك أن الأمر لن يكون على هذا النحو، فلا بد أن تكون قد خلّفت وراءها حياة قبل رحيلها، ربما حياة قصيرة فقط، أربع سنوات، خمس سنوات، لا شيء يُذكر تقريباً، أو ربما خمس عشرة أو عشرين سنة، لقاء ما، تألق ما، خيبة ما، بعض ابتسamas، بعض دمعات، ما هو للوهلة الأولى متشابه لدى الجميع بينما هو في الواقع مختلف من واحد إلى آخر، ومختلف أيضاً في كل مرة. سأصل إلى حيث يمكن لي الوصول، قرر دون جوزيه بهدوء ليس من شيمه. وكما لو كانت تلك هي النتيجة المنطقية لما فكر فيه، دخل إلى مكتبة واشتري دفتراً سميّكاً مُسطّر الأوراق، من تلك التي يستخدمها الطلاب لتدوين المواد المدرسية كلما ازداد ظنّهم بأنهم آخذون في فهمها.

لم يأخذ منه تزييف وثيقة التوكيل وقتاً طويلاً. فخمس وعشرون سنة من الممارسة الكتابية اليومية تحت مراقبة مأمورين غيريين ونائبي مدير متشددين زودته بسيطرة كاملة على سلاميات أصابعه، وعلى معصميه، وعلى مفتاح اليد، وثبات مطلق سواء في الخطوط المائلة أو المستقيمة، وحسن شبهه غريزي لجرة القلم الغليظة والرفيعة، وحدس متقن لدرجة انسياط الأخبار أو لزوجتها، والتي أعطت محصلتها، حين وُضعت موضع الاختبار في هذه المناسبة، وثيقة يمكن لها أن تصمد حيال تحريات أشد عدسات التكبير قوة. الأشياء الوحيدة التي قد تشـ

بها هي آثار البصمات ورائحة العرق غير المرئية المتبقية في الورقة، ولكن احتمال إجراء أي نوع من هذه الاختبارات هو ضئيل إلى أدنى الحدود دون شك. ويمكن لأي خبير خطوط، إذا ما استدعي للإدلاء بشهادته، أن يقسم بأن الوثيقة موضع البحث مكتوبة بيد وبخط رئيس المحفوظات، وأنها أصلية كما لو أنها كُتبت في حضور شهود مؤهلين. كما أن الصياغة المتلκفة، وأسلوبها، والمفردات المستخدمة فيها يمكن لها أن تضيف بدورها عالم نفسٍ، يعزز تقرير الزميل العزيز، ويبت إلى حد الإشاع بأن كاتبها هو شخص متسلط إلى أقصى الحدود، ذو طبع صارم، دون مرونة ولا شروخ، واثق من صواب رأيه، مزدرٍ للرأي الآخر، وهو ما يمكن لطفل أن يستخلصه بسهولة من قراءة النص الذي يقول ما يلي، باسم الصلاحيات المنوحة لي والتي أقسمت على تحملها وتطبيقاتها والدفاع عنها، وبصفتي مدير هذه المحفوظات العامة للسجل المدني، أحيط الجميع علماً، عسكريين أو مدنيين، عامين أو خاصين، ومن يرون، ويقرؤون، ويراجعون هذا التكليف المكتوب والموقع بيدي وخطي، بأن فلان الفلاني، الذي يعمل كاتباً تحت أمرتي في المحفوظات العامة التي أترأسها، وأحكمها وأديرها، قد تلقى مني مباشرة الأمر والتکليف بتحري واستنفاد كل ما له علاقة بالحياة الماضية والحاضرة والمستقبلية لفلانة الفلانية، المولودة في هذه المدينة، في يوم كذا من شهر كذا، ابنة بيلترانو كذا وثوتانا كذا، ويتوجب بالتالي أن يُعترف له، دون إثباتات أخرى، خلال الوقت الذي يستغرقه التحقيق، بالصلاحيات المطلقة التي أفوضها لشخصه، في هذا السبيل ومن أجل هذه القضية. للتنفيذ وفق ما تستدعيه مقتضيات الخدمة الوقائية وتقرره مشيئتي. سيرتجف من الخوف المخلوق الذي سيتمكن بمثابة من قراءة الورقة شديدة الواقع، وسيهرع للاحتماء في حضن

أمه، متسائلاً كيف أمكن لكاتب مثل دون جوزيه هذا، ذي الطبع المسالم، والعادات الرشيدة، أن يكون قادراً على أن يتصور، يتخيل، يختلف في رأسه التعبير عن السلطة المطلقة بمثيل تلك الدقة، وهذا أقل ما يمكن أن يقال في الأمر، دون أن يكون لديه نموذج مسبق يسترشد به، ذلك أنه ليس من المعمول به ولم تكن ثمة ضرورات فنية لأن تقدم المحفوظات العامة يوماً وثيقة تكليف. وسيكون على ذلك المخلوق الخائف أن يأكل الكثير من الخبز والكثير من الملح قبل أن يبدأ بفهم الحياة، وعندئذ لن يفاجأ حين يكتشف، عندما تحين الفرصة، كيف يمكن حتى للطبيعين أن يتحولوا إلى متصلبين ومتجبرين، وإن يكن ذلك بكتابة وثيقة تكليف، مزورة أو غير مزورة. سيقولون على سبيل الاعتذار، الواقع أنتي لم أكن أنا نفسي، بل كنت أكتب، أو أتصرف باسم شخص آخر، ويكون ما يريدونه في أفضل الحالات هو خداع أنفسهم، لأن التصلب والتجبر، هذا إن لم نقل القسوة، كانت في الحقيقة تتبدى في داخلهم، وليس في شخص آخر، مرئية أو غير مرئية. ومع ذلك، وبتقدير ما جرى حتى الآن بآثاره، فإن الاحتمال ضئيل بأن تؤدي نوايا وأعمال دون جوزيه المستقبلية إلى إلحاق أضرار جدية بالعالم، ولهذا سترى حكمنا معلقاً بصورة مؤقتة، طالما لم تتكلف أفعال أخرى أكثر كشفاً، سواء بالمعنى الطيب أو المعنى الخبيث، برسم صورته النهاية.

لبس يوم السبت أفضل بدلة لديه، وقميصاً نظيفاً ومكوباً، وربطة عنق مضبوطة إلى حد ما، تتناسب تقربياً مع لون البدلة، وخبأ في جيب الجاكيت الداخلي المغلف المدموج وفيه كتاب التكليف، ركب دون جوزيه سيارة أجرة من باب بيته، ليس من أجل كسب الوقت، فالاليوم عطلة وهو له بالكامل، وإنما لأن الفيوم كانت تتدبر بھطول مطر، ولم يشأ الظهور أمام سيدة الشقة اليمنى في الطابق فوق الأرضي وهو

يقطر من أذنيه، وثبات بنطاله ملطخة بالوحش، مجازفاً بذلك بأن تصفق الباب في وجهه قبل أن يتمكن من عرض سبب مجئه. كان يشعر بالاستثناء وهو يتصور كيف ستستقبله السيدة المسنة، والتاثير الذي ستحده في العجوز، وردت لفظة «العجوز» التحقرية إلى ذهنه دون أن يفكر فيها، قراءة ورقة مثل تلك، المُنذرة والمُخيفة، هناك أشخاص يكونون رد فعلهم عكس ما هو متوقع، فعسى أن تكون الحالة على هذا النحو. ربما استخدم في تحرير الوثيقة ألفاظاً مفرطة في الصلابة والتجبر، ولكن الرؤية الاحتمالية تفرض عليه مع ذلك أن يكون وفياً لطبع المدير كوفائه للخط، أضف إلى ذلك أن الجميع يعرفون بأنه من الصحيح تماماً أن اقتناص الذباب لا يتم بالخل، ولكن ما لا يقل صحة عن ذلك هو أن بعض الذباب لا يسمح باقتناصه حتى بالعسل. فتهدى، سترى. كان أول ما تمكّن من رؤيته، بعد أن أجاب على الأسئلة المُلحة التي أنتهت من الداخل، من أنت، ماذا تريدين، من أرسالك، ما علاقتي أنا بهذا، هو أن سيدة الشقة اليمنى في الطابق فوق الأرضي ليست كبيرة السن مثلاً ما كان قد تصورها، لم تكن تينك العينان عيني مسنة، ولا ذلك الأنف المستقيم، ولا ذلك الفم النحيل إنما الثابت، ودون تجمدات في جانبيه، المكان الذي يُلحظ فيه التقدم في السن هو ترهل جلد الرقبة، وربما دقق في هذا التفصيل بالذات لأنه كان قد بدأ يلاحظ في عنقه بالذات هذه العلامة المؤكدة للتردي الجسدي مع أنه لم يتجاوز الخمسين. لم تفتح السيدة الباب بالكامل، وكانت تتقول وتعاود القول إنها لا تحفل بأمور الجيران، وهي من أكثر الإجابات تعقلأً، خصوصاً وأن دون جوزيه، متبعاً طريقة خاطئاً، بدأ بالإعلان عن أنه يبحث عن شخص من الشقة اليسرى في الطابق الثاني. وبدأ أن اللبس قد زال عندما ذكر أخيراً اسم المرأة المجهولة، فقد انفتح الباب

عندئذ أكثر قليلاً، لكي يعود بعد ذلك إلى وضعه السابق، هل تعرفين هذه السيدة، سأله دون جوزيه، فقالت المرأة، أجل، كنتُ أعرفها، أود أن أوجه إليك بعض الأسئلة عنها، ومن تكون حضرتك، إنني موظف مخول من المحفوظات العامة للسجل المدني، وقد قلتُ لك ذلك من قبل، وكيف يمكنني أن أعرف أن هذا صحيح، لدلي تكليف موقع من مديرى، إنني في بيتي، ولا أريد لأحد أن يزعجني، أنت مضطربة في مثل هذه الحالات إلى التعاون مع المحفوظات العامة، أية حالات، توضيح بعض الالتباسات الموجودة في السجل المدني، ولماذا لا تسألونها هي، لأننا لا نعرف عنوانها الحالي، فإذا كنتِ تعرفيه، أعطييني إياه ولن أزعجك أكثر، منذ ثلاثين سنة، إذا لم تخني الذاكرة، لم أتلقي أي معلومات عن هذه المخلوقة، وكانت عندئذ طفلة، أجل، بهذه الكلمة الوحيدة أوحىت المرأة بما يشير إلى أنها تعتبر المحادثة منتهية، ولكن دون جوزيه لم يستسلم، إذا كان عليه أن يخسر المائة، فماذا يهمه لو خسر الألف، أخرج المغلف من جيبه، فتحه وسحب منه التكليف، ببطء لا بد أنه بدا متوعداً، وأمرها، أقرئي، هزت المرأة رأسها، لن أقرأه، فالمسألة لا تعنيني، إذا كنتِ لم تقرئيه، فسوف أرجع برفقة الشرطة، وسيكون ذلك أسوأ لحضرتك، أذعنـت المرأة لتسليم الورقة التي قدمها إليها، أضاءت نور المرء، ووضعت على عينيها نظارة كانت تعلقها في عنقها وقرأت. ثم أعادـت الوثيقة بعد ذلك وفتحـت له طريق الدخـول، من الأفضل أن تتفضل بالدخول، فلا بد أن من يقطـنـون الشقة المقابلة يتـصـتون علينا من وراء الباب، وحيـالـ التحـالـفـ غيرـ المـعلنـ الذيـ بدـاـ أنـ استـخدـامـ الضـميرـ الشـخصـيـ يـمـثلـهـ، أـدرـكـ دونـ جـوزـيهـ أنهـ قدـ كـسبـ المـبارـزةـ. وـقدـ كانـ هـذـاـ الـانتـصارـ، بـطـرـيقـ ماـ غـيرـ مـحدـدةـ، هوـ الـانتـصارـ المـوضـوعـيـ الأولـ فيـ حـيـاتهـ، صـحـيـحـ أـنهـ اـنتـصارـ اـحتـيـاليـ، ولـكـ إـذـاـ كانـ هـنـاكـ أـنـاسـ

كثيرون يعلنون أن الفانية تبرر الوسيلة، فمن يكون هو حتى يفند ذلك ويكتذبهم. دخل دون تفاخر، مثل منتصر تمنعه شهامته من التازل للبغاء السهل بإذلال المهزوم، مع أنه كان يُقدّر أن عظمته، على أي حال، كانت ملحوظة.

قادته المرأة إلى صالة صفيرة مرتبة بعناية ونظيفة، ذات ديكور من زمن آخر. قدمت له كتبة، وجلست هي أيضاً بدورها، وقالت دون أن تتبع للزائر الوقت لتوجيهه أسئلة أخرى، إنني عرابتها. كان دون جوزيه يتوقع سماع كل شيء باستثناء هذا الكشف. كان هناك كموظف بسيط ينفذ أوامر رؤسائه، وبالتالي دون أي متطلبات ذات طبيعة شخصية، فهكذا يجب أن تراه المرأةجالسة قبالتها، ولكنه هو وحده كان يعرف مقدار الجهد الذي بذله لكي يمنع نفسه من الابتسام بلذة راضية. أخرج من جيب آخر نسخة البطاقة، ونظر إليها ببطء، وكأنه سيحفظ في ذاكرته كل الأسماء التي تتضمنها، ثم قال بعد ذلك، وهل كان زوجك هو العراب، أجل، هل يمكنني التحدث إليه أيضاً، إنني أرملة، آه، وكان في هذا الهاون الأصم من الراحة الحقيقية بقدر ما فيه من الحزن المتلكف، فها قد نقص شخص آخر من يتوجب عليه مقارعتهم. قالت المرأة، لقد كانت علاقتنا جيدة، أعني الأسرتين، أسررتنا وأسرتها، كما أصدقاء حميمين، وعندما ولدت الطفلة طلبوا منا أن تكون عرابيتها، وكم كان عمر الطفلة عندما انتقلوا من البيت، أظنها كانت تقترب من الثامنة، كنت قد قلت لي من قبل إنك لم تعرفي أخباراً عنها منذ ثلاثة سن، وهو كذلك، أفصحي أكثر، لقد تلقيت رسالة بعد انتقالهم بوقت قصير، ممن تلقيتها، من الطفلة، وماذا تقول الرسالة، لا شيء خاصأ، فقد كانت رسالة من طفلة في الثامنة، بالكلمات القليلة التي تعرفها، والتي تستطيع كتابتها إلى عرابتها، أمازلت تحفظين بالرسالة، لا،

وماذا عن الوالدين، ألم يكتب إليك قط، لا، أليس ذلك غريباً، لا، لماذا، إنها شؤون خاصة، ليست لنشرها على الملا، ليست هناك شؤون خاصة تخفي عن المحفوظات العامة للسجل المدني. نظرت إليه المرأة بتمعن، من أنت، لقد أطلعتك على التكليف بالمهمة للتو، أطلعوني على اسمك فقط، أنت دون جوزيه، أجل، أنا دون جوزيه، إنك توجه إلى ما تشاء من الأسئلة، بينما لا أستطيع أنا أن أوجه إليك أي سؤال، من أجل استجوابي أنا، لا يمكن أن يفعل ذلك إلا موظف أعلى مني مرتبة في المحفوظات العامة، أنت شخص سعيد، يمكنك الحفاظ على أسرارك، لا أعتقد بأنه يمكن لشخص أن يكون سعيداً لمجرد أنه يحتفظ بأسرار، أنت سعيد، ليس مهمأ ما أنا عليه، فقد أوضحت لك من قبل بأن المراتب الوظيفية الأعلى هي وحدها المخولة باستجوابي، هل لديك أسرار، لن أجيبك، أما أنا ففيتوجب علي أن أجيبك، من الأفضل لك أن تفعلي، ماذا تريدينني أن أقول لك، ما هي تلك الشؤون الخاصة. مرت المرأة بيدها على جبهتها، وتركت جفونها الداودية تسدل بيضاء، ثم قالت بعد ذلك دون أن تفتح عينيها، كانت أمها تشكي بآثني على علاقة حميمة مع زوجها، وهل كان ذلك صحيحاً، كان صحيحاً، ومنذ وقت طويل سابق، لهذا السبب رحلوا، أجل. ثم فتحت المرأة عينيها وسألت، أتعجبك أسراري، لا يهمني منها إلا ما له علاقة بالشخص الذي أبحث عنه، كما أنتي غير مخول بأية أشياء أخرى، أنت لا تريدين أن تعرف إذن ما الذي حدث بعد ذلك، بصورة رسمية لا، ولكنك ربما أردت أن تعرف، بصورة خاصة، ليس من أساليبي التجسس على حياة الآخرين، قال دون جوزيه ذلك، متassisياً المئة وبضعاً وأربعين حياة التي يحتفظ بها في خزانته، ثم أضاف، ولكنني لا أظن بأن شيئاً استثنائياً جداً قد حدث لك، خصوصاً وأنك قلت لي إنك أرملة، لديك ذاكرة جيدة، إنه

شرط أساسى ليكون المرء موظفاً في المحفوظات العامة للسجل المدني، فرئيسي على سبيل المثال، وهذا لكي تكون لديك فكرة فقط، يعرف عن ظهر قلب كل الأسماء الموجودة والتي ستوجد، كل الأسماء وكل الكنى، وبماذا يفيد ذلك، إن دماغ مدير المحفوظات هو مثل نسخة أخرى من المحفوظات، لست أفهمك، بما أن دماغ رئيسى قادر على تحقيق كل التوليفات المحتملة للأسماء والكنى، فإنه لا يعرف أسماء كل الأشخاص الأحياء وكل الموتى وحسب، وإنما يمكنه كذلك أن يخبرك كيف سيسمى كل الذين سيولدون منذ الآن وحتى نهاية الدنيا، أنت تعرف أكثر من رئيسك، ولا بأي حال، فأنا لا أساوى شيئاً بالمقارنة معه، ولهذا هو مدير وأنا لست إلا مجرد كاتب عادي، كلاماً يعرف اسمي، هذا صحيح، ولكنه لا يعرفعني أكثر من اسمي، معلمٌ حق في هذا، والفرق يكمن في أنه كان يعرفه من قبل، أما أنا فعرفته عندما تلقيت التكليف بهذه المهمة، ويقفزة واحدة تقدمت عليه، فأنت هنا، في بيتي، يمكنك رؤية وجهي، وسماعي وأنا أقول إنني قد خنت زوجي، وأنت الشخص الوحيد الذي أخبره بذلك، خلال كل هذه السنوات، فما الذي تحتاجه أكثر من هذا لتفتح بآن رئيسك ليس أكثر من جاهل بالمقارنة معك، لا تقولي هذا، فهو غير لائق، هل لديك أي سؤال آخر، أي سؤال تعنين، إذا ما كنت سعيدة مثلاً في زواجي بعد الذي حدث، هذا موضوع غير مرتبط بالملف، ليس هناك ما هو غير مرتبط، فمثلاً توجد كل الأسماء في رأس رئيسك، فإن ملف أي شخص هو ملف الجميع، أنت تعرفين الكثير، هذا طبيعي، فقد عشت كثيراً، أنا لي من العمر خمسون سنة، ولست أعرف شيئاً بالمقارنة معك، لا يمكنك أن تتصور ما الذي يمكن تعلمه بين سن الخمسين والسبعين، وهذا هو عمرك، بل أكثر قليلاً، هل كنت سعيدة بعد الذي حدث، هذا يعني أنك مهتم بذلك،

لأنني لا أعرف إلا القليل عن حياة الأشخاص، مثلما هو حال رئيسك، ومثلك هي محفوظاتك، افترض ذلك، لقد تلقيت الصفح، إذا كان هذا ما تود معرفته، تلقيت الصفح، أجل، وهو ما يحدث بكثرة، اصفحوا بعضكم عن بعض، مثلما يقال عادة، العبارة المشهورة ليست هكذا، بل أحبو بعضكم بعضاً. الأمر سيان، فمن يصفح يحب، ومن يحب يصفح، أنتَ ما زلتَ صبياً، وما زالَ أمامكَ الكثير لتعلمِه، أرى أنكَ على حق، هل أنتَ متزوج، لا، ألمْ تعيش مع امرأة قط، عيش، بما تعنيه الكلمة عيش، لم أعش، أقمتَ علاقات عابرة، آنية فقط، ولا هذه، فأنا أعيش وحيداً، وعندما تضفتَ على الحاجة، أفعل ما يفعله الجميع، أبحث وأدفع، هل لاحظتَ أنكَ تجib على أسئلة، أجل، ولكن ذلك لم يعد يهمي الآن، ربما كانت هذه هي الطريقة للتعلم، بالإجابة، سأوضح لكَ أمراً، ما هو، سأبدأ بسؤالك إذا ما كنتَ تعرف كم شخصاً يشكلون الزواج، الثنان، الرجل والمرأة، لا يا سيدى، هناك في الزواج ثلاثة أشخاص، هناك المرأة، وهناك الرجل، وهناك ما أدعوه الشخص الثالث، وهو الأهم، الشخص الذي يتشكل من الرجل والمرأة معاً، لم أفكِر في ذلك قط، إذا ما ارتكب أحد الاثنين الزنا، مثلاً، فإن أشدَهما استياء، من يتلقى أقسى ضربة، مهما بدا ذلك غير معقول، ليس الآخر، وإنما ذلك الآخر الذي هو الاشنان، إنه ليس واحداً، وإنما هو اتحاد الاثنين، وهل يمكن العيش حقاً مع هذا الواحد المكون من اثنين، فأنا أجده مشقة في العيش حتى مع نفسي بالذات، أكثر ما هو شائع في الزواج هو رؤية الرجل أو المرأة، أو كليهما، وكل واحد يريد من جانبه تحطيم هذا الثالث الذي هو هما، هذا الذي يصمد، هذا الذي يريد البقاء على قيد الحياة كيما اتفق، هذه مسألة حسابية شديدة التعقيد بالنسبة لمداركي، تزوج، اعثر لك على امرأة وبعد ذلك أخبرني، لقد

انقضى الزمن بالنسبة لي، من الأفضل ألا تراهن على ذلك، فمن يدري ما الذي ستتجده عندما تصل إلى نهاية مهمتك أو ما شئت أن تسميتها، الشكوك التي أرسلوني للكشف عنها هي شكوك تخص المحفوظات العامة، وليس تهمني شخصياً، وما هي تلك الشكوك، إذا كنت لا أثقك عليك بأسئلتي، إنني ملتزم بالتكتم على السر الرسمي، لا يمكنني الإجابة، السر لا يفيدك إلا قليلاً يا دون جوزيه، فالآن سيكون عليك أن تغادر، وسوف تغادر وأنت لا تعرف إلا ما كنت تعرفه عند دخولك، لا شيء، هذا الذي تقولينه صحيح، وهز دون جوزيه رأسه محبطاً.

نظرت إليه المرأة كما لو أنها تدرسه، ثم سأله، منذ متى بدأت السير في هذا التحقيق، بالنسبة لي، بدأت اليوم، ولكن المدير سيفضب كثيراً عندما سأعود إليه صفر اليدين، أنه شخص شديد التململ، سيكون ظلماً فادحاً بحق موظف لا يتمتع، كما أرى، بالاستراحة من العمل أيام السبت، لم يكن لدى أي شيء خاص أفلته، وكانت هذه وسيلة للتقدم في المهمة، ولكنك لم تحقق تقدماً يذكر، أليس كذلك يا سيدي، يتوجب عليّ أن أفك، اطلب النصيحة من رئيسك، فلهذا هو رئيس، أنت لا تعرفيه، فهو لا يتقبل توجيهه الأسئلة إليه، إنه يصدر الأوامر وكفى، ومادا ستفعل الآن، لقد قلت لك، يجب عليّ أن أفك، فكر إذن، هل صحيح أنك لا تعرفين شيئاً، إلى أين ذهبوا عندما رحلوا من هنا، لا بد أن الرسالة التي تلقيتها كانت تحمل عنوان من أرسلها، أجل، لا بد أنها تحمل العنوان، ولكن تلك الرسالة لم تعد موجودة، لم تردي عليها، لا، لماذا، في الخيار بين القتل والاستسلام للموت، فضلت القتل، إنني أتكلم بالمعنى المجازي بالطبع، إنني في طريق مسدود، ربما لست كذلك، ماذا تعنين، أعطني ورقة وشيئاً يكتب، قدم لها دون جوزيه بيدين مرتعشتين قلم رصاص، يمكنك أن تكتبي

هنا بالذات، على قفا البطاقة، في نسخة مستنسخة. وضفت المرأة النظارة، وكتبت بعض الكلمات بسرعة، ها هو، ولكنه ليس عنوانها، إنه فقط اسم الشارع حيث كانت المدرسة التي ترتادها ابنتي في العماد بعد انتقالهم، ربما تتمكن من هناك الوصول إلى حيث تشاء، إذا كانت المدرسة ما تزال هناك. وجدت روح دون جوزيه نفسها منقسمة بين الامتنان الشخصي للجميل والضيق الرسمي لأنها ماطلت طويلاً. صرف الامتنان قائلاً، شكراً، دون أي إضافة أخرى، ثم قال بنبرة معقدلة، ولكنه سمح لضيقه بأن يظهر فيها، لا يمكنني أن أفهم سبب تأخرك كل هذا الوقت في إعطائي عنوان المدرسة، مع أنك تعلمين بأنه يمكن لأي معلومة، مهما بدت تافهة، أن تكون ذات أهمية حيوية بالنسبة لي، لا تبالغ كثيراً، على الرغم من كل شيء، أنا ممتن لك كثيراً وأقول هذا باسمي وباسم المحفوظات العامة للسجل المدني التي أمثلها، ولكنني ألح على أن توضحي لي سبب تأخرك طويلاً في إعطائي العنوان، السبب بسيط جداً، لأنه ليس لدى من أتبادل الحديث معه. نظر دون جوزيه إلى المرأة، وكانت هي تنظر إليه، ليس ثمة مبرر لهدر الكلمات في تفسير التعبير الذي كان في عيني أحدهما وعيني الآخر، والمهم فقط هو ما استطاع أن يقوله بعد صمت طويل، وأنا أيضاً. عندئذ نهضت المرأة عن المقهى، وبحثت في أحد أدراج الصيوان الذي كان وراءها وأخرجت منه ما يشبه الألبوم، إنها صور، فكر في ذلك دون جوزيه مبهجاً. فتحت المرأة الكتاب، تصفحته، وخلال ثوان قليلة وجدت ما تريده، لم تكن الصورة ملصقة، بل كانت مثبتة بأربع زوايا ورقية صفيرة ملصقة على الصفحة، قالت، ها هي، خذها، هذه هي الصورة الوحيدة لها التي أحتفظ بها، وأمل ألا تسألني الآن أيضاً عما إذا كانت لدى صور لأبويها. لن أسألك. مد دون جوزيه يده المتربدة، تلقى صورة

بالأبيض والأسود لطفلة في الثامنة أو التاسعة من عمرها، لها وجه يجب أن يكون شاحباً، وعينان جديتان تحت خصلة شعر تلامس الحاجبين، وفم بقي هكذا لأنه كان يهم بالابتسام ولم يستطع. قلب حساس، وأحس دون جوزيه بعينيه تقipسان بالدموع، لا يبدو عليك أنك موظف في المحفوظات، قالت المرأة، إنه الشيء الوحيد الذي أنا عليه، قال هو، أترغب في فنجان من القهوة، سيكون جيداً.

تحادثاً قليلاً بينما هما يشربان القهوة ويقضمان قطعة البسكويت، بعض الكلمات فقط تبادلاها حول السرعة التي ينقضي بها الزمن اللعين. يمضي، ولا نكاد نتبه إليه، منذ قليل كان الصباح،وها هو ذا الليل يوشك أن يحلّ الآن، كان يلاحظ في الواقع أن المساء آخذ بالاقتراب أخيراً، ولكنهما ربما كانوا يتحدثان عن الحياة، عن حياتيهمما، أو عن الحياة عموماً، هذا ما يحدث عندما نحضر محادثة ولا نكون منتبهين، فيفلت منا على الدوام أهم ما يقال. انتهت القهوة، وكانت الكلمات قد انتهت، فنهض دون جوزيه وقال، يجب أن أصرف، شكرها على الصورة، وعلى عنوان المدرسة، فقالت المرأة، إذا ما مررت يوماً بهذه المنطقة، ثم رافقته حتى الباب، مدّ يده، وعاد للقول، شكراً جزيلاً، ومثل فارس من عصر آخر قربها من شفتـيه، عندئذ ابتسمت المرأة بخبيث وقالـت، ربما لا يكون البحث في دليل الهاتف بالفكرة السيئة.

كانت الصدمة قاسية جداً إلى حدّ أن دون جوزيه، بينما هو يطأ الشارع بقدميه المضطربتين، تأخر في الانتباه إلى أن مطرًا خفيفاً، شبه شفاف، من تلك الأمطار التي تبلل في اتجاه عمودي وفي اتجاه أفقى، إضافة إلى جميع الميل الأخرى، يهطل عليه. ربما لا يكون النظر في دليل الهاتف بالفكرة السيئة، قالت العجوز بخث لدى الوداع، وكل كلمة من هذه الكلمات، التي تبدو بريئة بذاتها، ولا يمكن لها أن تُغضِّب أشد المخلوقات حساسية، تحولت في لحظة واحدة إلى شتيمة عدوانية، إلى شهادة بلاهة لا طلاق، كما لو أنها خلال المحادثة، بالغة الغنى بالمشاعر منذ لحظة معينة، كانت تراقبه ببرود، لكي تتهي بأن الموظف الآخر المرسل من المحفوظات العامة للسجل المدني للبحث عما هو بعيد وخفى، كان عاجزاً عن رؤية ما هو أمام عينيه وفي متناول يده. تلقى دون جوزيه، وهو بلا قبعة ولا مظلة، رذاذ المطر على وجهه مباشرة، كان الرذاذ دوارياً ومحاطاً مثل الأفكار المزعجة التي تروح وتجيء في رأسه، وكلها تدور، مثلاً بدأ يلاحظ سريعاً، حول نقطة مركبة محددة، راحت تصبح شيئاً فشيئاً أكثر صفاء. صحيح أنه لم يخطر له أمر شديد البساطة واليومية مثل استشارة دليل الهاتف، وهو الشيء المعهود عندما يريد أحد معرفة رقم أو عنوان شخص يكون الهاتف مسجلاً باسمه. وكان لا بد أن يكون هذا هو أول عمل يقوم به، إذا أراد أن يتحرى مستقر المرأة المجهولة، وفي أقل من دقيقة سيعرف أين يجدها، وبعد ذلك، بحجة استيضاح شكوك التسجيل في السجل

المدنى، يمكنه أن يرتب معها لقاء خارج المحفوظات، متذرعاً بأنه يريد أن يوفر عليها دفع رسوم مالية مثلاً، وبعد ذلك، سيجاذب بكل شيء في إيهامه جريئة، في اليوم نفسه أو بعد عدة أيام، حين تتولد بينهما الثقة، ويطلب منها، قصي على حياتك. لم يتصرف على هذا النحو، وقد بدأ الآن، بالرغم من جهله بفنون علم النفس وخفايا العقل الباطن، يدرك السبب بصورة تقريبية. فلنتصور صياداً، كان دون جوزيه يمضي وهو يقول ذلك لنفسه، فلنتصور صياداً أعد أدواته بكل عناء، البندقية، جعبة الطلقات، كيس الطعام، زمزمية الماء، الكيس الشبكي الذى سيجمع فيه صيده، حزمة البرية، ولنتصوره خارجاً مع كلابه، مصمماً، مفعماً بالحماس، متأهباً ليوم طويل مثلاً هي الحال في مغامرات القنص، ولكنه ما إن ينطوف عند الناصية التالية، وهو ما يزال إلى جوار بيته، حتى يخرج له سرب من الحجل مستسلماً له ليقتله، يطير ولكنه لا يبتعد من هناك مهما جندل الرصاص منه، كهدية ومفاجأة للكلاب التي لم ترفي حياتها قط سقوط المن من السماء بمثل تلك الكميات. ما الذي ستكونه، بالنسبة إلى الصياد، متعة صيد بهذه السهولة، تُقدم فيه طيور الحجل نفسها، بهذا المعنى تماماً، لفوهات البنادق، تسائل دون جوزيه، وقدم الجواب الذي يبدو جلياً لأى شخص، لا توجد أي متعة. وهو ما يحدث لي، أضاف، يجب أن يكون في رأسى، وبكل تأكيد في رؤوس الجميع، فكر حقيقي يفك لحسابه الخاص، ويقرر دون مشاركة الفكر الآخر، ذاك الذي نعرفه منذ أن نعرف أنفسنا والذى نعامله دون تكليف، ذاك الذى يسلم قياده ليحملنا إلى حيث نعتقد ونحن واعون أننا نود الذهاب، مع أنه يمكن، في نهاية المطاف، أن يُقتاد هذا عبر طريق آخر، في اتجاه آخر، وليس إلى أقرب منعطف، حيث ينتظرون سرب من الحجل دون أن يعلم، ولكننا نحن نعلم، في النهاية، بأن ما يعطي معنى حقيقياً للقاء هو البحث وأنه لا بد من

السير كثيراً من أجل بلوغ ما هو قريب. وضوح التفكير، سواء أكان هذا أم ذاك، الخاص أو المعهود، بعد الوصول لا يعود مهماً في الحقيقة مثل أهمية كيفية الوصول، كان ذلك مبهراً إلى حد أن دون جوزيه توقف مذهولاً في وسط الرصيف، يلفه الرذاذ الضبابي وضوء مصباح الأنوار العامة الذي أضيء مصادفة في تلك اللحظة بالذات. عندئذ، ومن أعماق روحه الحزينة والممتنة، ندم على الأفكار الخبيثة وغير الجديرة، وكانت واعية جداً، التي أطلقها على السيدة مديدة العمر والعطوفة ساكنة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي، بينما هو مدين لها في الواقع، ليس فقط بعنوان المدرسة وبالصورة، وإنما كذلك بأكمل تفسير وأكثره وضوحاً لتصرف لم يكن يملكه ظاهرياً. وبما أنها تركت تلك الدعوة لزياراتها معلقة في الهواء، إذا ما مررت يوماً من هذه المنطقة، هكذا كانت كلماتها، واضحة بما يكفي للتخلص من بقية الجملة، وعاهد نفسه أن يعود يوماً ويطرق بابها، سواء لإطلاعها على ما حققه من تقدم في تحرياته أو ليواجهها بالكشف عن السبب الحقيقي لرفضه الاستعانة بدليل الهاتف. وهذا يعني بالطبع أنه سيعترف لها بأن وثيقة التكليف كانت زائفـة، وأن تحرياته لم تكن بناء على أوامر من المحفوظات العامة، وإنما هي من بنات أفكاره، ولن يجد مفرأً من إخبارها بكل ما تبقى. وما تبقى هو مجموعته من الشخصيات المشهورة، وخوفه من المرتفعات، والأوراق المسودة، وشباك العنكبـوت، وخزائن ملفات الأحياء الـرتيبة، وفوضى خزائن الأموات، والعـفونـة، والـغـبار، والـلـيـأس، وأخيراً البطاقة التي خرجت لسبب ما ملتـصـقة بالـبطـاقـات الأخرى، حتى لا ينسوها، والـاسم، اسم الطـفلـة التي أحـمـلـها هنا، وتذكر الصـورـة، ولم يـمـنـعـهـ من إخـرـاجـهاـ منـ جـيـبـهـ لـيـنـظـرـ إـلـيـهاـ سـوىـ دـوـامـاتـ المـطـرـ التيـ كـانـتـ تـواـصـلـ الـهـطـولـ منـ السـمـاءـ. إذاـ ماـ قـرـرـ يومـاـ أنـ يـخـبـرـ شـخـصـاـ كـيـفـ هـيـ المـحـفـظـاتـ العـامـةـ منـ الدـاخـلـ، فـإـنـ ذـلـكـ

الشخص سيكون سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي. هذه مسألة سيتكلف الزمن بحلها، هكذا قرر دون جوزيه. في هذه اللحظة بالذات أسعفه الزمن بمجيء الحافلة التي ستقله إلى مقرية من بيته، وفيها أناس كثيرون مبللون، رجال ونساء مختلفو الأعمار والهيئات، بعضهم شباب وبعضهم شيوخ، بعضهم قريب وبعضهم بعيد. المحفوظات العامة للسجل المدني تعرفهم جميعهم، تعرف أسماءهم، وأين ولدوا ومن، تحصيهم وتحسم أيامهم واحداً فواحداً، فتلك المرأة على سبيل المثال، ذات العينين المطبقتين، تلك التي تسند رأسها إلى زجاج النافذة، يجب أن يكون عمرها خمساً وثلاثين، ستة وثلاثين سنة، وكان ذلك كافياً لكي يمنع دون جوزيه أجنهحة لخيالته، وماذا إذا كانت هي نفسها المرأة التي أبحث عنها، مستحيل، لا يمكن القول إنها هي، فالحياة ملأى بالأشخاص المجهولين، ولكن لا بد من الإذعان، لا يمكننا أن نمضي متجلولين نسأل الناس جميعهم، ما اسمك، ثم نخرج البطاقة من الجيب لنرى إذا ما كان ذلك الشخص هو الذي نريده. بعد محظتين نزلت المرأة، وتوقفت بعد ذلك على الرصيف منتظرة أن تواصل الحافلة طريقها، لا بد أنها تريد قطع الشارع، وأنها لم تكن تحمل مظلة، فقد تمكّن دون جوزيه من رؤية وجهها مواجهة بالرغم من قطرات المطر المشببة بزجاج النوافذ، وكانت هناك لحظة، ربما لأن صبرها نفد من تأخر الحافلة في الانطلاق، رفعت فيها رأسها والتقت نظراتها. وبقيا على تلك الحال إلى أن انطلقت الحافلة، ووصلها ذلك طوال الوقت الذي يستطيعان رؤية كل منهما الآخر، دون جوزيه يلتقط برقبته ويمطها، والمرأة تتبع من الشارع الحركة، وتساءلت هي صدفة، من تراه يكون، وأجاب هو بينه وبين نفسه، إنها هي.

لم تكن المسافة بين موقف الحافلة التي يتوجب على دون جوزيه النزول فيه والمحفوظات العامة كبيرة، وهي لفتة من خدمات النقل

جدية بالشأن، من أجل التسهيل على الأشخاص الذين يحتاجون إلى تسوية معاملاتهم في المحفوظات العامة. ومع ذلك، فقد دخل دون جوزيه إلى بيته مبللاً من رأسه حتى قدميه. خلع سترته على عجل، ونزع بنطاله وجوربيه وحذاءه، وفرك شعره الذي يقطر ماء بمنشفة، وكان يواصل حواره الداخلي بينما هو يفعل كل ذلك. إنها هي، ليست هي، يمكن أن تكون هي، يمكن أن تكون، ولكنها ليست هي، وماذا لو كانت هي، سترى ذلك عندما تعثر على صاحبة البطاقة، وإذا كانت هي، سأقول لها بأننا سبق والتقيينا، وبأننارأينا بعضنا في حافلة، لن تتذكر، إذا لم تتأخر طويلاً في العثور عليها، فسوف تتذكر بالتأكيد، ولكنك لا تريد العثور عليها خلال وقت قصير، وربما لا تريد ذلك خلال وقت طويل أيضاً، لأنك لو كنت تريد العثور عليها لبحثت عن اسمها في دليل الهاتف، فمن هناك يتوجب عليك أن تبدأ، لم يخطر لي ذلك، دليل الهاتف موجود هناك في الداخل، ليست لدى رغبة الآن في الدخول إلى المحفوظات، إنك تخاف من الظلام، لست أشعر بأي خوف، فأنا أعرف ذلك الظلام مثل راحة يدي، خير لك أن تقول إنك لا تعرف حتى راحة يدك، إذا كان هذا هو رأيك، فدعني على جهلي، فالعصافير أيضاً تفرد ولا تعرف لماذا تفعل ذلك، إنك غنائي، إنني حزين، هذا طبيعي، بهذه الحياة التي تعيشها، تصور أن تكون امرأة الحافلة هي امرأة البطاقة الحقيقة، وتتصور أنتي لن أعود للقاء بها ثانية، وبأن تلك المرة هي الفرصة الوحيدة، وبأن القدر كان هناك وتركته يمضي، لديك طريقة واحدة فقط لإنقاذ الوضع، وما هي، أن تفعل ما قالته لك مستأجرة الشقة اليمني من الطابق فوق الأرضي، المرأة العجوز، مزيداً من اللباقة فيما يتلفظ به لسانك، أرجوك، ولكنها عجوز، إنها سيدة متقدمة في السن، دعك من النفاق، فجميعبنا لدينا سننا، والمسألة هي في معرفة كم من السن لنا، فإذا كانت قليلة، يكون

المرء شاباً، وإذا كانت كثيرة، يكون عجوزاً، وما سوى ذلك ليس إلا ثرثرة، فلتنته من هذا، حسن، فلتنته، سأنظر في الدليل، هذا ما أقوله لك منذ نصف ساعة. دخل دون جوزيه إلى المحفوظات بالبيجامة والخف، متذراً ببطانية. كانت تلك الملابس الغريبة تبعث فيه نوعاً من الاستياء، كما لو أن في ذلك إساءة احترام للملفات الموقرة، ذلك النور الأصفر السرمدي الذي يطفو، مثل شمس محتضرة، فوق منضدة المدير. كان دليل الهاتف هناك، على أحد أركان المنضدة، ولم يكن مسماحاً البحث فيه دون إذن، حتى ولو تعلق الأمر بمحكمة رسمية،وها هو ذا دون جوزيه يستطيع الآن، مثلاً فعل في السابق، أن يجلس على المقعد، صحيح أنه فعل ذلك مرة واحدة من قبل، في لحظة فريدة بدت له لحظة انتصار ومجده، ولكنه لم يتجرأ على الجلوس الآن، ربما بسبب ملابسه غير اللائقة، وخوفاً من أن يفاجئه أحد وهو بذلك المظهر، ومن ذا الذي يمكنه أن يفاجئه، ما دام لا يمكن لكاين حي، باستثنائه هو، أن يتواجد هناك خارج ساعات الخدمة. فكر في أنه سيكون من الأنسب أن يأخذ الدليل معه، ففي البيت سيشعر بطمأنينة أكبر، دون الحضور المتوعد للخزائن الشاهقة التي تبدو وكأنها تريد أن تتهاوى من أعلى عتمة السقف، هناك حيث تسج العناكب شباكها وتلتهم طرائدتها. ارتعش كما لو أن الشبّاك المغبرة واللزجة تهوي عليه ولو لا قليل لارتکب هفوة تناول الدليل دون أن يكون قد احتاط مسبقاً بتقدير دقيق للمسافة التي تفصله، من أعلى ومن الجانبين، عن حواف المنضدة، ومن يذكر الأبعاد سيذكر كذلك الزوايا، هذا إذا لم ينتبه إلى أن الوضع المفضل لانحناءات المدير الهندسية والطوبغرافية يميل بوضوح إلى الزوايا المستقيمة والخطوط المتوازية. دخل إلى البيت واثقاً من أنه بعد قليل، عندما سيعيد دليل الهاتف إلى مكانه، فإنه سيضعه في موضعه الدقيق بالضبط، دون مليمتر واحد من الانحراف، ولن يكون على المدير أن

يأمر نائب المدير بالتحقيق حول من الذي استخدم الدليل، وكيف، ومتى، ولماذا. لقد كان ينتظر حتى اللحظة الأخيرة أن يحدث شيء يمنعه من حمل الدليل، همسة، فرقعة مريبة، ضوء مفاجئ يأتي من الأعمق الجنائزية للمحفوظات العامة، ولكن السلام كان مطلقاً، ولم يكن يسمع حتى صوت فكوك الحشرات الضئيل وهي تخر الخشب.

الآن يجلس دون جوزيه، والبطانية فوق ظهره، إلى منضدته الخاصة، وأمامه دليل الهاتف، يفتحه من بدايته ويماطل في استعراض تعليمات الاستخدام، والرموز، وقوائم تعرفة المكالمات، كما لو أن هذا هو هدف بحثه. وبعد بعض دقائق، يضطرب دافع مفاجئ، لم يفكر فيه، إلى تجاوز الصفحات بسرعة، نحو الأمام، نحو الوراء، إلى أن يتوقف في الصفحة التي يجب أن يكون فيها اسم المرأة المجهولة. إما أنها غير موجودة، وإما أن عينيه تأبیان أن تريا. لا، ليست موجودة. يجب أن تكون بعد هذا الاسم بالضبط وهي غير موجودة. يجب أن تكون قبل هذا الاسم وهي ليست كذلك. هذا ما كانت قد قلته، فكر دون جوزيه، ولم يكن صحيحاً أنه قال ذلك يوماً، وإنما هي أساليب لجعل المرأة نفسه على حق في مواجهة العالم، للتفریج عن النفس، وفي مثل هذه الحالة، حالة النشوة، كان يمكن لأي محقق شرطة أن يعبر عن معارضته بتوجيهه ضربة من قبضته إلى المنضدة، أما دون جوزيه فلم يفعل ذلك، فقد أشهـر دون جوزيه ابتسامة التهكم التي يبديها من يرجع، بعد إيفاده للبحث عن شيء يعرف مسبقاً أنه غير موجود، وعلى شفتيه عباره، لقد قلت لكم ذلك، فإما أنها لا تملك هاتفاً أو أنها لا تريد أن يرد اسمها في الدليل. وقد بلغت سعادته حدأً دفعه على الفور، دون إضاعة الوقت في التفكير في الفوائد والمضار، إلى البحث عن اسم والد المرأة المجهولة، وكان هذا موجوداً. لم ترتعش شعرة واحدة في بدنـه. بل على العكس، فقد فكر الآن في إحراق كل الجسور وراءه، بجرجره دافع لا

يمكن أن يشعر به إلا الباحثون الحقيقيون، بحث عن اسم الرجل الذي كانت المرأة المجهولة قد طلقت منه ووجده أيضاً. لو كانت لديه هنا خريطة للمدينة، لاستطاع أن يضع علامات تشير إلى النقاط الخمس الأولى التي تقاصها، اشتان في الشارع الذي ولدت فيه طفلة الصورة، وأخرى في المدرسة، وهاتان الاشتان الآن، بداية تصميم مثلاً هو تصميم كل الحيوانات، مكون من خطوط منكسرة، وصلبان، وتقاطعات، ولكن ليس من تفرعات على الإطلاق، لأن الروح لا تذهب إلى أي اتجاه دون قدمي الجسد، والجسد لا يمكنه التحرك إذا ما كان يفتقر لأجنحة الروح. دون ملاحظة عن المسakens، ثم سجل ما يتوجب عليه أن يشتريه، خريطة كبيرة للمدينة، قطعة ورق مقوى سميك بمثيل حجم الخريطة لتشبيتها عليها، علبة دبابيس ذات رؤوس ملونة، حمراء لكي تظهر عن بعد، فالحيوانات مثل لوحات الرسم، ومن الأفضل النظر إليها دوماً عن بعد أربع خطوات، حتى ولو توصلنا في أحد الأيام إلى لس بشرتها، وشم رائحتها، وتذوق طعمها. كان دون جوزيه مطمئناً، لا يقلقه واقع أنه صار يعرف أين يقطن أبوها المرأة المجهولة وزوجها، وهذا الأخير، يا للفضول، يقطن قريراً من المحفوظات العامة، سيدهب بالطبع عاجلاً أو آجلاً ليطرق بابه، ولكنه لن يفعل ذلك إلا عندما يشعر بأن الوقت قد حان، عندما تتهيأ اللحظة المناسبة. أطبق دليل الهاتف، وأعاده إلى منضدة الرئيس، إلى المكان الدقيق الذي أخذه منه، ورجع إلى البيت. كانت عقارب الساعة تشير إلى موعد العشاء، ولكن لا بد أن انفعالات النهار قد ألهت معدته التي لم تعط ما يشير إلى نفاد صبرها. جلس مجدداً، دثر جسده بالبطانية، وشد أطرافها ليغطي ساقيه وتناول الدفتر الذي كان قد اشتراه من المكتبة. لقد حان الوقت للبدء بتدوين ملاحظات حول تقدم عملية البحث، واللقاءات، والمحادثات، والتأملات، وخطط وتكلبات تحقيق يبدو أنه سيكون معقداً، وفك، الخطوات التي

يتبعها أحد في البحث عن أحد، ومع أن العملية كانت في بدايتها في الحقيقة، إلا أنه كان لديه الكثير ليرويه، لو أنها كانت رواية، تمتم بذلك وهو يفتح الدفتر، فإن المحادثة مع سيدة الشقة اليمني من الطابق فوق الأرضي وحدها ستكون فصلاً قائماً بذاته. تناول قلم الحبر ليبدأ، ولكن في منتصف الحركة، وجدت عيناه الورقة التي دون عليها العناوين، كان يجول في ذهنه خاطر لم يفكر فيه من قبل، فالاحتمال الأكبر هو أن تكون المرأة المجهولة قد ذهبت، بعد طلاقها، للعيش مع أبيها، والاحتمال الممكن الآخر أن يكون الزوج هو من ترك المنزل، مستقبلاً الهاتف باسمه. فإذا كان هذا هو الحال، وباعتبار أن البيت المذكور على مقرية من المحفوظات العامة، فمن يدرى إذا لم تكن امرأة الحافلة هي المرأة المجهولة نفسها. وظهرت دلائل على أن الحوار الداخلي سيتجدد، إنها هي، لم تكن هي، بل هي، ليست هي، ولكن دون جوزيه تجاهل ذلك الحوار هذه المرة، وانحنى على الورقة، وبدأ يكتب أول الكلمات، هكذا، دخلتُ المبنى، صعدتُ الدرج إلى الطابق الثاني وأصختُ السمع أمام باب البيت الذي ولدت فيه المرأة المجهولة، وعندئذ سمعتُ بكاء طفل رضيع، ففكرت في أنه قد يكون الابن، وسمعتُ في الوقت نفسه تهديل امرأة، أ تكون هي، وعرفت بعد ذلك أنها ليست هي.

على عكس ما يعتقد الناس على الدوام تقربياً، عند النظر إلى الأمور من الخارج، فإن الحياة في المؤسسات الرسمية ليست سهلة في العادة، وخصوصاً في هذه المحفوظات العامة للسجل المدني، التي تركز فيها إلى أقصى الحدود، منذ أزمنة لا يمكننا القول إن الذاكرة لا ترقى إليها، لأن فيها سجلاً لكل شيء وكل شخص، وبفضل الجهد الدؤوب لسلسلة متواصلة من المديرين العظام، كل عظام وصفائر الوظيفة العامة، تلك التي تجعل من الموظف كائناً معزولاً، منتفعاً وفي الوقت نفسه تابعاً للحizin الجسدي والذهني المحدود بالمدى الذي تبلغه ريشته. وبعبارات بسيطة، وبالتعلل إلى تفهم أكثر دقة للواقع العامة المقدرة بصورة مجردة في هذه الديباجة، فإن ما لدى دون جوزيه هو مشكلة يجب حلها. ولمعرفتنا كم كان مكلاً له تجاوز المانعات القانونية للمراتب الوظيفية العليا من أجل تغيب نصف الساعة تلك عن العمل، والتي بفضلها تجنب أن يفاجئه متبلاً بالجريمة المشهود زوج السيدة الشابة ساكنة الشقة اليسرى من الطابق الثاني، يمكننا أن نتصور الكروب التي يعانيها الآن، ليلاً ونهاراً، وهو يحاول العثور على مبرر نافع يتتيح له أن يطلب، ليس ساعة واحدة، وإنما ساعتين، وليس ساعتين، بل ثلاثة، ربما ستكون ضرورية لكي ينجز، بالفائدة المرجوة، زيارته إلى المدرسة والتدقيق الذي لا مفر منه في أرشيفها. وسرعان ما تبدت آثار هذا القلق الثابت، المتسلط على عقله، في أخطاء في العمل، وفي عدم الانتباه، وفي إغفاءات نهارية مفاجئة سببها قلة النوم ليلاً، وباختصار،

فابن دون جوزيه الذي كان يحظى حتى الآن بتقدير رؤسائه العديدبن باعتباره موظفاً كفؤاً، منهجياً ودؤوباً، بدأ يتحول إلى هدف للتبيهات القاسية، والتحذيرات، ولفت النظر، التي لم تؤد إلا إلى زيادة اضطرابه أكثر فأكثر، دون ذكر أنه، في أثناء ذلك، كان موقناً من أنه سيتلقى الرد السلبي إذا ما وصل به الأمر إلى طلب الإذن المنشودة. وقد بلغ الوضع تلك الحدود التي لم يعد معها من مفر، بعد الدرس والمراجعة المتتالية التي قام بها المأمورون ونائباً المدير، دون التوصل إلى نتائج، سوى رفع الأمر إلى تقدير المدير نفسه الذي لم يتمكن، في اللحظات الأولى، أن يستوعب ما يحدث، لشدة عبيته. فإهمال موظف لواجباته إلى هذا الحد هو أمر يجعل من المستحيل ظهور أي ميل إلى الرحمة يمكن له أن يبرر قراراً بالترئية، وهو أمر يسيء بصورة جدية لتقالييد عمل المحفوظات العامة، أمر لا يمكن أن يبرره إلا الإصابة بمرض خطير. وكان هذا هو السؤال الذي وجهه المدير إلى دون جوزيه عند افتياض المذنب للممثل في حضرته، هل أنت مريض، لا أظن ذلك يا سيدى، إذا لم تكن مريضاً، فكيف تفسر إذن سوء أدائك للعمل خلال الأيام الأخيرة، لستُ أدرى يا سيدى، ربما لأنني أنام بصورة سيئة، هذا يعني أنك مريض، كل ما هنالك إتنى أنام بصورة سيئة، إذا كنتَ تنايم بصورة سيئة، وهذا يعني أنك مريض، لأن الشخص السليم ينام دوماً بصورة جيدة، اللهم إلا إذا كان هناك ما يُثقل على ضميرك، خطيئة تستحق اللوم، من تلك التي لا يغفرها الضمير، فالضمير أمر مهم جداً، أجل يا سيدى، إذا ما كان قصورك في الخدمة ناجماً عن الأرق وكان الأرق ناجماً عن عذابات الضمير، فلا بد لك إذن من الكشف عن الخطأ الذي ارتكبه. لم أرتكب أي خطأ يا سيدى، مستحيل، فالشخص الوحيد الذي لا يرتكب أي خطأ هنا هو أنا، وما الذي يحدث الآن، لماذا تتظر إلى دليل الهاتف، لقد سهوتُ يا سيدى، لهذا مؤشر سيئ، فأنت

تعلم أنه يتوجب عليك أن تتظر إلى طوال الوقت وأنا أكملك، وهذا وارد في القواعد الانضباطية، فأنا الوحيد الذي له الحق بأن يشرد بعينيه، أجل يا سيدى، ما هي خطيبتك، لا أعرف يا سيدى، الوضع أشد خطورة في هذه الحالة، فالأخطاء المنسية هي الأسوأ، لقد كنتُ أنجز واجباتي على أكمل وجه على الدوام، المعلومات المتوفرة لدى بشأنك كانت مرضية، ولكن هذا بالتحديد لا يفيد إلا في إثبات أن سوء سلوكك المهني في هذه الأيام ليس نتيجة خطيئة منسية، وإنما خطيئة حديثة العهد، خطيئة حالية، ضميري لا يؤنبني، الضمائر تصرّت أكثر مما هو مطلوب منها، ولهذا ابتدعت القوانين، أجل يا سيدى، يتوجب عليّ أن أتخاذ قراراً، أجل يا سيدى، وهو أنذا قد اتخذته، حاضر يا سيدى، إنني أعقابك بجسم يوم، وهل الجسم يا سيدى هو من الراتب فقط أم من الخدمة أيضاً، سأله دون جزئه وهو يلمح بارقة أمل تحضيء من الراتب، من الراتب، فلا يمكن الإضرار بالعمل أكثر مما فعلته، أضف إلى ذلك أنه لم يمض وقت طويل على منحي لك إذنا بالخروج لنصف ساعة، ولا تقل لي إنك تأمل في أن أكافئ سوء مسللك بمنحك يوم إجازة كاملاً، لا يا سيدى، وأتمنى، من أجل مصلحتك، أن تتبع العقوبة في تقويمك، وأن تعود سريعاً لتكون الموظف المستقيم الذي كنتَه من قبل، من أجل مصلحة هذه المحفوظات العامة، حاضر يا سيدى، ليس لدى ما أضيفه، ارجع إلى مكانك.

رجع دون جزئيه إلى حيث أمر قانطاً، منهار الأعصاب، وموشكًا على البكاء. خلال الدقائق القليلة التي استغرقتها المحادثة الشاقة مع الرئيس، كان العمل قد تراكم على المنضدة، كما لو أن الكتبة الآخرين، زملاءه، قد انتهزوا فرصة الوضع الانضباطي المتدهور الذي وجده فيه، وأرادوا، من جانبهم، أن يعاقبوه أيضاً. كما أن عدة مراجعين كانوا ينتظرون دورهم لتلبية طلباتهم. جميعهم كانوا قبالته، ولم يكن ذلك

صادفة، أو لأنهم فكروا، حين دخلوا إلى المحفوظات العامة، في أن الموظف الغائب هو أكثر لطفاً وترحاباً ممن هم أمام أنظارهم على امتداد منضدة الكونتوار، وإنما لأن أولئك الموظفين أنفسهم أشاروا إليهم بأنه عليهم التوجه إلى هناك. وبما أن الأنظمة الداخلية تشدد على أن خدمة المراجعين يجب أن تولى الأسبقية على العمل المكتبي، فقد توجه دون جوزيه إلى منضدة الكونتوار، وهو يعلم أن وابل الأوراق وراءه سيواصل الهطول على منضدته. كان ضائعاً. فالآن، بعد التحذير الغاضب من المدير وما تلاه من عقاب، لن يستطيع، ولو اختلق العذر بميلاد ابن مستحيل، أو بموت قريب مريب، أن يُخرج من رأسه أي أمل بأن يمنحوه في المدى المنظور إذناً بالخروج قبل انتهاء العمل أو بالمجيء بعد بدء العمل بساعة، أو نصف ساعة، أو حتى دقيقة واحدة. الذاكرة في دار الملفات هذه عنيدة، بطيئة النسيان، بطيئة إلى حد لا تصل معه إلى محو أي شيء بالكامل. فلتدع يا دون جوزيه، من الآن ولدة عشر سنوات، في لحظة سهو، مهما كانت تافهة، وسترى كيف أن أحدهم سيُذكر في الحال بكل تفاصيل هذه الأيام المنحوسة. ربما كان هو ما يعنيه المدير عندما قال إن أسوأ الأخطاء هي تلك التي تبدو مناسبة ظاهرياً. لقد كانت بقية اليوم بالنسبة إلى دون جوزيه أشبه بتعذيب مؤلم، فهو مثلث بالعمل، ومくだراً الفكر. وبينما كان جزء من وعيه يقدم التوضيحات الصائبة لجمهور المراجعين، وهو يملاً ويختتم الوثائق، ويؤرشف البطاقات، كان الجزء الآخر، برتابة، يلعن الحظ والمصادفة اللذين حولا شيئاً لا يمكن له حتى أن يخطر لخيالة شخص رصين، متزن الرأس، إلى فضول مرضي. وكان دون جوزيه يفكر، الرئيس على حق، فلا بد أن تكون مصالح المحفوظات فوق أي اعتبار، ولو أنتي كنت عاقلاً، طبيعياً، لما كنت انهمكت، وأنا في هذه السن، في جمع ممثرين ورافضات ومطارنة ولاعبي كرة قدم، إنها بلاهة، عمل غير مجدٍ، أمر

مضحك، في الميراث الجميل الذي سأخلفه عند موتي، لحسن الحظ أنه ليس لي ذرية، والسيئ هو أنه ربما كان كل هذا يحدث لي لأنني أعيش دون صحبة، فلو كانت لدى امرأة. وما إن وصل إلى هذه النقطة حتى انقطع تفكيره، ثم اتخذ بعد ذلك سبيلاً آخر، طريقاً ضيقاً، ملتبساً، يمكن رؤية صورة طفلة صغيرة عند مدخله، وفي نهايته، إذا ما كانت له نهاية، الشخصية الواقعية لأمرأة سوية، ناضجة، لها من العمر الآن ست وثلاثون سنة، وهي مطلقة، ولماذا أريدها أنا، لماذا، ما الذي سافعله بها بعد أن أتمكن من العثور عليها. وانقطع التفكير مرة أخرى، وعاد القهقرى بفظاظة فوق الخطوات التي قطعها، وكيف تتصور أنك ستجدها، إذا كانوا لا يسمحون لك بالذهاب للبحث عنها، سائله(تفكيره) ولم يرد هو عليه، فقد كان مشغولاً في هذه اللحظة في إخبار آخر شخص في صف المراجعين بأن وثيقة الوفاة التي طلبها ستكون جاهزة في اليوم التالي.

ومع ذلك، هناك أسئلة لجوجة لا تتراءع، وقد انقضّ عليه أحدها من جديد عندما دخلأخيراً إلى البيت، وهو منهوك الجسد ومست念佛 الحماس. ألقى بنفسه على السرير مثل خرقه، يريد أن ينام، أن ينسى وجه الرئيس، العقاب الجائر، ولكن السؤال استلقى إلى جانبه، متسللاً بخفة، لا يمكنك البحث عنها، لن يسمحوا لك بذلك، وكان من المستحيل عليه هذه المرة أن يتظاهر بأنه مشغول بالتحدث إلى جمهورة المراجعين، وحاول مع ذلك إبداء عدم مبالاته، فقال إنه سيجد طريقة ما، وإذا لم يجدها، فسيتخلى عن كل شيء، إلا أن السؤال ألح عليه، إنك تستسلم بسهولة، ولهذا لم يكن هناك ما يستحق عناء أن تعمد إلى تزوير وثيقة التكليف وأن تجبر تلك السيدة البائسة واللطيفة ساكنة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي، على أن تروي لك قصة ماضيها الخاطئ، فالدخول إلى البيوت بتلك الطريق، والتدخل في خصوصيات الناس

الحميمة هو تصرف ينم عن إساءة الاحترام. جعلته الإشارة إلى وثيقة التكليف يعتدل جالساً على السرير فجأة بذعر. إنها في جيب سترته، وقد لازمته طوال هذه الأيام الماضية، تصور لو أنها سقطت منه بسبب أو آخر، أو أنه انهار، في اضطرابه العصبي، فاقداً الوعي، وبينما أحد زملائه يفك أزرار ملابسه لكي يتمكن من التنفس، رأى، دون سوء نية، المخلف الأبيض وعليه دمغة المحفوظات العامة وقال، ما هذا، وبعد ذلك أحد المأمورين، ثم نائب المدير، ثم الرئيس نفسه. ولم يشأ دون جوزيه أن يفكر في ما سيحل به على اثر ذلك، فنهض قافزاً، تناول المسترة المعلقة على مسند أحد الكراسي، أخرج وثيقة التكليف، وبينما هو ينظر فيما حوله متلهفاً، تساءل في أية شياطين يمكنه أن يخبطها. لم تكن لديه أي قطعة أثاث مزودة بقفل، وكل ممتلكاته القليلة كانت في متناول يد أي روح فضولية تدخل البيت. عندئذ توقف عند المجموعات المرتبة في الخزانة، هناك يجب أن يكون المخرج من المأذق الصعب. اختار ملف المطران وأدخل فيه المخلف، فلا يمكن لمطران أن يستثير الفضول مهما بلغت سمعته في الورع والتقوى، فهو ليس دراجاً ولا متسابقاً من متسابقي الفورملا واحد (الفئة الأولى). رجع إلى السرير هادئ الروع، ولكن السؤال كان بانتظاره، لم تتحقق أي تقدم، فالمشكلة ليست في وثيقة التكليف، ولا فرق في أن تخفيها أو تُظهرها، فليس هذا هو الذي سيوصلك إلى المرأة، لقد قلت لك إنني سأجد طريقة ما، أنا أشك في ذلك، فقد قيّدك المدير جيداً من قدميك ويديك، ولن يسمع لك بأن تخطو خطوة واحدة، سأنتظر إلى أن تهدأ الأمور، وماذا بعد ذلك، لست أدرى، ولكن فكرة ما ستخطر لي، بإمكانك أن تحل المسألة الآن بالذات، وكيف ذلك، تتصل هاتفياً بأبويها، وتقول لهما إنك تتكلم باسم المحفوظات، وتطلب منهمما أن يعطياك العنوان، هذا ما لا يمكنني أن أفعله، وغداً تذهب إلى بيت المرأة، ولا يمكنني تخيل الحديث الذي

سيدور بينكما، ولكنك ستطمن على الأقل، ربما لن أكلمها عندما أجدها أمامي، إذا كانت هذه هي الحال، فلماذا تبحث عنها، لماذا تتحرى عن تفاصيل حياتها، إنني أجمع أوراقاً عن المطران أيضاً ولست مهتماً بالتحدث إليه يوماً، يبدو لي الأمر ضريراً من العبثية، إنها عبثية، ولكن الوقت قد حان لعمل شيء عبثي في هذه الحياة، أتريد أن تقول لي إنك إذا ما توصلت إلى لقاء المرأة، فإنها لن تعلم بأنك كنت تبحث عنها، هذا هو الاحتمال المؤكد، ولماذا، لا يمكنني تفسير ذلك، على كل حال، لن يكون بإمكانك الذهاب إلى مدرسة الطفلة، فالمدارس مثل المحفوظات العامة، تبقى مغلقة في عطلة نهاية الأسبوع، ولكنني أستطيع الدخول إلى المحفوظات في أي وقت أشاء، لا يمكن القول إنها مأثرة حقيقة خارقة، فباب بيتك يؤدي إليها، يبدو أنك لم تذهب هناك قط بنفسك، إنني أذهب حيثما تذهب أنت، وأشهد ما تفعله، يمكنني أن تواصل، سأواصل، ولكنك لن تستطيع دخول المدرسة، سنرى ذلك، نهض دون جوزيه، وكان قد حان موعد تناوله العشاء، إذا كانت تستحق هذه التسمية تلك التوليفات الخفيفة التي اعتاد على تناولها ليلاً. وبينما هو يأكل، كان يفكر، وبعد ذلك غسل الطبق والكأس وأدوات الطعام، والتقاط الفتات الذي سقط على الشرشف، وكان يواصل التفكير، ثم فتح الباب المؤدي إلى الشارع، كما لو أن هذه الحركة هي النتيجة المؤكدة لما فكر فيه، قبالته، في الجهة الأخرى من الشارع، كانت هناك كابينة هاتف، على مرمى حجر كما يقال، فعشرون خطوة تمكنه من إمساك طرف الخيط الذي سينقل صوته، والخيط نفسه سيحمل له جواباً، وهناك، سواء من هذا الاتجاه، أو من الاتجاه الآخر، سينتهي البحث، ويمكنه العودة إلى بيته مطمئناً، ويستعيد ثقة رئيسه، وبعد ذلك، سيسعد العالم مداره المعهود، ليدور على أثره الخاص وغير المرئي، ويستعيد السكينة العميقه من ينتظر ببساطة الساعة التي تكمل

فيها كل الأشياء، إذا ما كان لهذه الكلمات، التي طلما قيلت وتكررت، أي معنى حقيقي. لم يجتز دون جوزيه الشارع، بل ارتدى السترة والمعطف، وخرج.

كان عليه أن يستبدل الحافلة مرتين قبل أن يصل إلى هدفه. كانت المدرسة بناء طويلاً، من طابقين وعليّات ملحقة على السطح، يفصله عن الشارع سور مرتفع. ولا بد أن الحيز الوسيط، وهو عبارة عن شريط من الأرض تتمو فيه أشجار قصيرة متفرقة، كان يستخدم كباحة لفسحة التلاميذ. لم يكن هناك أي ضوء. نظر دون جوزيه فيما حوله، كان الشارع مقفراً بالرغم من أن الوقت لم يكن متأخراً، وهذا هو الجيد في هذه الأحياء البعيدة عن المركز، وخصوصاً إذا كان الوقت لا يسمح بفتح النوافذ، والجيران ينزوون داخل بيوتهم، إضافة إلى أنه لا يوجد ما يستحق الرؤية في الخارج. مشى دون جوزيه حتى نهاية الشارع، ثم غير الرصيف، وهو يأتي الآن ماشياً باتجاه المدرسة، بتمهل، مثل من يروقه الخروج للتمتع بالبرودة الليلية وليس هناك من ينتظره. وعند البوابة، انحنى مثل من اكتشف لته أن رباط حذائه مفلت، إنها حيلة قديمة ومستهلكة، لا تتطلّي على أحد، ولكنها تُستخدم لعدم وجود أفضل منها عندما لا تُسعف المخيلة بالزائد. دفع البوابة بمرفقه، فتحركت قليلاً، لم تكن مقفلة بمقفلة. وبصورة منهجية عقد دون جوزيه عقدة أخرى فوق الأولى، ثم نهض واقفاً وضرب قدمه على الأرض ليتأكد من متانة عقدة الرباط، وواصل طريقه، بسرعة أكبر الآن، كما لو أنه تذكر فجأة أن هناك من ينتظره.

عاش دون جوزيه ما تبقى من أيام الأسبوع كما لو أنه يشهد أحلامه الخاصة. لم يلاحظوا في المحفوظات اقترافه لأي خطأ، فهو لم يسأله، ولم يخطئ ويستبدل ورقة بأخرى، وأنجز كميات ضخمة من العمل كانت تدفعه في أوقات أخرى إلى الاحتجاج، بالصمت طبعاً، ضد

المعاملة غير الإنسانية التي يقع الكتبة ضحية لها منذ الأزل، وقد أنجز كل ذلك وتحمله دون كلمة واحدة، ودون تمتمة واحدة. نظر إليه المدير مرتين من بعيد، ونحن نعرف أن ذلك ليس من عادته، فليس من عادته النظر إلى مرؤوسيه، وخصوصاً إذا كانوا من المرتبة الدنيا، ولكن التركيز الروحي لدون جوزيه بلغ حدأً من الزخم يستحيل معه عدم الانتباه إليه في أجواء المحفوظات العامة الراكدة على الدوام. ويوم الجمعة، عند انتهاء العمل، ودون أن يستشعر أحد ذلك، خالف المدير كل الأنظمة، وازدرى كل التقاليد، وأذهل جميع الموظفين لدى خروجه، عندما سُأله دون جوزيه وهو يمر بجانبه، هل أنت أحسن حالاً. فرد دون جوزيه بنعم، وبأنه أحسن حالاً بكثير، وأنه لم يعد يعرف الأرق، فقال المدير، لقد أثمرت المحادثة بيننا، وبدا عليه أنه سيضيف شيئاً آخر، فكرة ما خطرت له فجأة، ولكنه أطبق فمه وخرج، هذا ما كان ينقصه، فإلغاء عقوبة مفروضة سيكون خرقاً لأنظمة الانضباط. الكتبة الآخرون، والمأمورون وكذلك نائباً المدير نظروا إلى دون جوزيه وكأنهم يرونها لأول مرة، فقد حولته كلمات الرئيس القليلة إلى شخص مختلف، مثلما يحدث بهذا القدر أو ذاك، عندأخذ طفل وليد لتعميده، لأنه يكون شخصاً عندما يؤخذ ويصير شخصاً آخر عند إرجاعه. انتهى دون جوزيه من ترتيب المنضدة، ثم انتظر بعد ذلك دوره للخروج، فقد كان من المتواافق عليه أن من يخرج أولاً هو نائب المدير الأقدم، وبليه المأمورون، وبعد ذلك الكتبة، ودائماً حسب الأقدمية، أما نائب المدير الآخر فيتوجب عليه إقفال الباب. وعلى خلاف عادته، لم يقم دون جوزيه بالاتفاق حول المحفوظات العامة ليذهب إلى بيته، وإنما سار باتجاه الشوارع القريبة، ودخل ثلاثة متاجر مختلفة، واشترى حاجة من كل واحد منها، نصف كيلو غرام من شحم الخنزير من أحدها، ومنشفة خشنة من متجر آخر، واشترى شيئاً آخر كذلك، شيئاً ضئيلاً، تتسع له

راحة اليد، وقد خباء في جيب سترته الخارجي، لأنه لا يحتاج إلى اللف. وبعد ذلك توجه إلى البيت. كان قد انقضى وقت طويل على منتصف الليل عندما خرج. في هذه الساعة كانت الحافلات التي تجوب الشوارع قليلة، ولا تظهر واحدة منها إلا في أوقات متباعدة، ولهذا قرر دون جوزيه، للمرة الثانية منذ أن ظهرت له بطاقة المرأة المجهولة، أن يستقل سيارة أجرة. كان يشعر بنوع من الارتجاج في بباب معدته، كأنه أزيز، كأنه هيagan، ولكن رأسه بقي ساكناً أو أنه، ببساطة، كان عاجزاً عن التفكير. في إحدى اللحظات انكمش دون جوزيه في مقعد سيارة الأجرة وكأنه يشعر بالخوف من أن يُرى، بل حاول أن يتخيل ما الذي يمكن أن يحدث له، والنتائج التي قد تلحق بحياته، إذا ما أخفق في مسعاه الذي يوشك أن يُقدم عليه، ولكن تفكيره اختباً وراء أحد الجدران، وقال من موقعه ذاك، لن أخرج من هنا، وقد تفهم هو ذلك، لأنه يعرف جيداً أن تفكيره يريد أن يحميه، ليس من الخوف، وإنما من الجبن. عندما صار قريباً من هدفه، أمر سيارة الأجرة بالتوقف، سيتجاوز المسافة القصيرة المتبقية مشياً على قدميه، كان يضع يديه في جيبه، ممسكاً، تحت المطف المزرر، اللافتين اللذين تضمان الشحم والمنشفة. وفي اللحظة التي كان سينعطف فيها عند الناصية ليدخل إلى الشارع الذي فيه المدرسة، سقطت عليه قطرات مطر متفرقة، ما لبثت أن تحولت بعد ذلك، عندما اقترب من البوابة، إلى وابل كنس الشارع بصخب. لقد قيل منذ الأزلمة الكلاسيكية بأن القدر يحمي الجسورين، وقد كانت الوسيلة المكلفة بالحماية في هذه الحالة هي المطر، أو بكلمات أخرى، السماء مباشرة، لأنه إذا ما كان هناك أحد في تلك الأنحاء، في مثل هذه الساعة المتأخرة، فإنه سيكون مشغولاً دون شك بحماية نفسه من الوابل المفاجئ أكثر من اهتمامه بمراقبة الحركات المرية لشخص يرتدي معطفاً، لا لقد هرب من وابل

المطر بسرعة غير متوقعة بالنسبة إلى عمره الظاهري، فقد كان الآن بالذات هنا وها هو لم يعد موجوداً. كان دون جوزيه محتمياً تحت إحدى أشجار الرصيف، قلبه يخفق بجنون، وهو يتنفس بجزع، مذهولاً من الرشاشة التي تحرك بها، وهو الذي لم يتعدّ، في مسألة التمارين البدنية، حدود تسلق سلم المحفوظات العامة، والله يعلم بأي إرادة يفعل ذلك. صار بمنجي من النظرات في الشارع، وكان يظن أنه بالتعلق الحذر من شجرة إلى شجرة، يمكنه الوصول إلى بوابة المدرسة دون أن ينتبه إليه أحد في الخارج. وكانت لديه قناعة بأنه لا وجود لحراسة في الداخل، أولاً بسبب عدم وجود نور مضاء، سواء في المرة السابقة أو اليوم، ثم لأن المدارس، اللهم إلا لأسباب خاصة واستثنائية، ليست بالأمكنة التي تغري بالسطو عليها. وقد كانت أسبابه خاصة واستثنائية، ولهذا ذهب إلى هناك، مسلحاً بنصف كيلو غرام من الشحم، ومنشفة ومقص زجاج، وهذا هو الشيء الذي لم يكن بحاجة إلى لفه. عليه أن يفكّر الآن جيداً في ما سيفعله. الدخول من الجهة الأمامية سيكون تهوراً، إذ يمكن لجار يسكن في أحد الطوابق العليا من الجهة الأخرى للشارع أن يطل ليتأمل المطر الذي يواصل الهطول بغزارة ويرى رجالاً يكسر نافذة المدرسة. هناك أناس كثيرون لا يحركون إصبعاً ليحلوا دون وقوع عمل عنف، بل إنهم يسدلون الستارة ويعودون إلى الفراش قائلين، ما شأنا، ولكن هناك أشخاصاً آخرين إذا كانوا لم يخلصوا العالم، فإنما لأن العالم لا يريد الخلاص، وهؤلاء يستدعون الشرطة فوراً، ويطلون من الشرفة وهم يصرخون، حرامي، وهذه كلمة قاسية لا يستحقها دون جوزيه، الذي تبدو كلمة مُزيّف كثيرة عليه، ولكن هذا أمر نعرفه نحن فقط. التف إلى الجهة الخلفية، ربما كان الأمر أسهل من هناك، هكذا فكر دون جوزيه، وربما كان على حق، فكثيراً ما تكون الجهات الخلفية من المباني سيئة الحماية، وتكون فيها أمتعة قديمة

مكومة، ودلا، تنتظر استخدامها من جديد، وعلب طلاء قديمة، وبعض الطوب المفتت المتبقى من ورشة ترميم، وهذا أفضل ما يمتناه من يسعى إلى ارتجال درج يصعد عليه من أجل بلوغ نافذة، والدخول منها. الواقع أن دون جوزيه وجد بعض هذه الأشياء النافعة، ولكن كل شيء كان مرتبأ تحت ظلة مائلة متلصقة بالجدار، ولا بد كما يبدو من التلمس هنا وهناك بعذر، مما يستدعي الكثير من الجهد والوقت من أجل اختيار وإخراج، في الظلام، ما هو مناسب أكثر من سواه للحاجات البنيائية للهرم الذي سيصعد عليه، لو أن بإمكان الصعود إلى السطح، هكذا غفف، وقد كانت الفكرة من حيث المبدأ رائعة، لأن هناك نافذة تعلو شبرين عن موقع التحام حافة الظلّة العلوية بالجدار، ولكنه فكر، لن يكون الأمر سهلاً على هذا النحو مع ذلك، فالسقف شديد الميل، ولا بد أن يكون زلقاً جداً مع هذا المطر. أحس دون جوزيه بفقدان الحماس، وهذا ما يحدث لمن ليست لديه خبرة في السطوة، من لم يستفاد من دروس معلمي التسلق والتسلل، بل لم يخطر له أن يستطلع المكان مسبقاً، وكان بإمكانه أن يستغل ذلك اليوم الذي تأكد فيه من أن البوابة ليست مقفلة بمقفلة بمقفلة، ولكنه أحس في تلك المناسبة بأن الحظ قد حالفه كثيراً وفضل لا يتمادي. كان يضع في جيبيه المصباح اليدوي الصغير الذي يستخدمه في المحفوظات العامة ليضيء البطاقات، ولكنه لم يشأ أن يشعله هنا، فوجود كتلة في العتمة، تكاد لا تلفت الانتباه، هو شيء، وشيء آخر مختلف جداً، وأسوأ بكثير، هو حزمة ضوء تتحرك وتتشي بنفسها، انظروا، إنني هنا. وبينما هو محتمٌ تحت الظلّة، كان يسمع المطر يقرع صفيح السقف بلا كلل، دون أن يدرى ماذا عليه أن يفعل. كانت هناك في هذا الجانب أيضاً أشجار أكثر طولاً وتشابكاً من أشجار الجهة الأمامية، ولو كان ثمة بنایات مخبأة وراءها فلن يكون بإمكانه رؤيتها من موقعه، وبالتالي، لا يمكن لهم هم أيضاً أن

يروني، هكذا فكر دون جوزيه، وبعد أن تردد لحظة، أشعل المصباح وحرّكه من جانب إلى آخر، في حركة سريعة. لم يكن مخطئاً، فمستودع المدرسة المبني من حدائق قديمة كان معداً ومكيفاً ببعد نظر، وكأن أجزاءه قطع آلية متداخلة. أعاد إشعال المصباح، ووجه بؤرة الضوء هذه المرة نحو الأعلى. كان هناك سلم مطروح فوق الأمتعة، ومفلت عما سواه، كقطعة تُستخدم بين حين وآخر. وسواء بسبب هذا الاكتشاف غير المتوقع، أو بسبب ذكرى مفاجئة ولا إرادية لأعلى المحفوظات العامة، بدا في عيني دون جوزيه شيء، طريقة في التعبير معهودة تُغنى عن استخدام كلمة دوار التي تتردد على أفواه العامة الذين لم يولدوا من أجل هذا. لم يكن السلم طويلاً بحيث يصل إلى النافذة، ولكنه يكفي للصعود إلى سطح الظلّة، ومن هناك، فليحدث ما يشاءه رب.

ولذكر اسمه، قرر الرب أن يساعد دون جوزيه في هذه اللحظة الحرجة، وهو ليس بالحدث الاستثنائي إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الأعداد الهائلة من لصوص السطو على البيوت الذين حالفهم الحظ، مذ صارت الدنيا دنيا، في العودة من عمليات سطوهم، ليس محملين بالغائم وحسب، وإنما سليمي الأجساد كذلك، أي بكلمة أخرى، دون تعرضهم لعقاب إلهي. وقد شاعت العناية الإلهية أن تكون الألواح الإسمنتية المجددة التي تشكل سقف الظلّة، فضلاً عن خشونتها عند تصنيعها، ذات حواف بارزة في نهايتها السفلية، وبيدو أن تصممها، غير المتيقظ، في المصنع، لم يستطع مقاومة جاذبيتها التزيينية. وبفضل تلك النتوءات، وعلى الرغم من شدة ميلان السطح، بوضع قدم هنا، ويد هناك، وبالتأوه، والتهجد، والكشط بأظفاره، وخدش مقدمة حذائه، تمكّن دون جوزيه من الزحف إلى أعلى. لم يعد عليه الآن سوى الدخول. حسن، لقد حان الوقت لأن نقول إن دون جوزيه قد استخدم،

في شؤون التسلق والخلع، أساليب غير معاصرة على الإطلاق، حتى لا نقول إنها أساليب قديمة، بل ومفرقة في القدم. فقد قرأ في وقت سابق، وهو لا يذكر متى ولا في أي كتاب أو ورقة، بأن شحم الخنزير ومشففة خشنة هما من اللوازم الاضطرارية لمن يريد قص الزجاج، حين يكون ما يرمي إليه هو الدخول من نافذة بنوایا خبيثة، وقد تزود بهذه الوسائل غير المعتادة، فضلاً عن تسلحه بثقة عمياً. كان بإمكانه، دون ريب، لكي يختصر الوقت، أن يوجه لكمبة بسيطة إلى الزجاج، ولكنه خشي، حين خطط للاقتحام، أن ينبع الدوى، الذي سيتلو الضربة حتماً، الجيران، ومع أن دوى الطبيعة العاصف سيخفف من المخاطرة، فقد فضل أن يتقييد بانضباطية المنهج بصرامة. وهكذا، بينما هو يستند قد미ه إلى الحافة الناتئة التي وفرتها له العناية الإلهية، ويثبت ركبتيه على خشونة ألواح السقف، بدأ دون جوزيه بقص الزجاج بالماسة عند مستوى إطار النافذة. وبعد ذلك، وهو يلهث من الجهد والوضع غير المريح الذي هو فيه، مسح الزجاج بمنديله كيما اتفق، كي لا يضر بقدرة الشحم المنشودة في الالتصاق، أو بما تبقى من الشحم، ذلك أن الجهد العنفيه التي أقدم عليها ليتسلق السطح المائل حولت لفافة الشحم إلى عجينة لزجة وعديمة الشكل، مع النتائج التي يمكن تصورها في ما يتعلق بهندام ملابسه الذي جاء به. ومع ذلك، فقد استطاع أن يوزع على الزجاج طبقة من الشحم لا بأس بسماكتها، ثم أصدق فوقها، بأقصى ما يمكن من عناء، المشففة التي تمكّن، بعد ألف حركة متلوية، من إخراجها من جيب معطفه. صار عليه الآن أن يحسب بدقة متاهية قوة الضربة، التي يجب لا تكون ضعيفة جداً فيضطر إلى تكرارها، ولا قوية جداً بحيث تُفسد التصاق فتات الزجاج بالمشففة. وبينما هو يضغط الجزء العلوي من المشففة إلى إطار النافذة بيده اليسرى كي لا تنزلق، أطبق دون جوزيه قبضته اليمنى، ودفع ذراعه إلى الوراء ووجه

ضريبة حاسمة جاءت لحسن الحظ صماء، ومخنوقة، مثل طلقة من سلاح مزود بكمام للصوت. لقد أنجر ذلك من الضريبة الأولى، وهذه مأثرة باهرة بالنسبة إلى متدرّب. سقطت شظية أو اثنان، فقط، من فتات الزجاج إلى الداخل، ولكن لا أهمية لذلك، فليس هناك أحد في الداخل. بقي دون جوزيه لعدة ثوانٍ، بالرغم من المطر، مستلقياً على السطح، كي يستعيد قواه ويتلذذ بالنصر. وبعد ذلك، استوى بجسده، وأدخل ذراعه من الفتحة، بحث عن مزلاج النافذة وووجهه. رياه، كم هي قاسية حياة لصوص المنازل، فتح النافذة على مصراعيها، ثم تمسك بالحافة، وبمساعدة مفمومة من قدميه اللتين لم تعودا تجدان نقاط ارتكاز، تمكن من دفع جسده إلى أعلى، ومن رفع إحدى ساقيه، ثم الأخرى، لكي ينتهي إلى السقوط في الجانب الآخر، بخفة، مثل ورقة أفللت من الشجرة.

احترام حقيقة الواقع والواجب الأخلاقي البسيط في عدم المساس بمصداقية من استعد لتقيل مفاجآت ذلك البحث الفريد على أنها عقلانية ومتراقبة، تستدعي التوضيح الفوري بأن دون جوزيه لم يسقط بنعومة من حافة النافذة، مثل ورقة أفلتت من غصن. بل على العكس، فما حدث هو أنه سقط بخدلان، مثلاً تسقط الشجرة بأكملها، في الوقت الذي كان فيه من السهل عليه الانزلاق شيئاً فشيئاً من موقعه المؤقت إلى أن تلمس قدماه الأرض. لقد أثبتت له السقطة، بسبب قسوة الارتطام وبسبب تواصل الملامسة المؤلمة، وحتى قبل أن تتمكن عيناه من تأكيد ذلك، بأن المكان الذي هو فيه كان أشبه بامتداد للظللة الخارجية، أو أنه على الأرجح جانبها الداخلي، فالمكانان كلاهما مخصص للأمتعة المهملة، ولكن هذا المكان أولاً، وبعد أن لم يعد يتسع، شيدوا الآخر الخارجي. بقي دون جوزيه جالساً بضع دقائق ينتظر انتظام تنفسه وتوقف ارتعاش ذراعيه وساقيه. وبعد فترة الانتظار تلك، أشعل المصباح اليدوي، محاذراً لا يضيء سوى الأرض التي أمامه، ورأى أن هناك، بين الأثاث المتراكם بين هذا الجانب وذاك، ممراً تُرك فارغاً يؤدي إلى الباب. راوده القلق حين فكر في أنه قد يكون مغفلًا بمفتاح، وسيكون عليه في هذه الحالة أن يخلعه دون امتلاك الأدوات المناسبة، مع ما سيتبع ذلك من ضجة لا مفر منها. كان المطر يواصل الهطول في الخارج، ولا بد أن الجيران قد ناموا، ولكن لا يمكننا الثقة كثيراً بذلك، فهناك أشخاص نومهم خفيف إلى حدٍ يمكن معه لطين

بعوضة أن يواظبهم، وهم ينهضون بعد ذلك، ويذهبون إلى المطبخ ليشربوا كأس ماء، وينظرون مصادفة إلى الخارج ويرون ثقباً أسود مستطيلاً في جدار المدرسة، وربما يعلقون، يا لقلة انتباه القائمين على المدرسة، فهم يتركون النافذة مفتوحة في مثل هذا الطقس، أو أنهم يفكرون، تلك النافذة، إذا لم تخني الذاكرة، كانت مغلقة، ولا بد أن قوة الريح هي التي فتحتها، ولن يفكر أحد في إمكانية أن يكون هناك لص في الداخل، أضف إلى ذلك أنهم سيكونون مخطئين تماماً، لأن دون جوزيه، وأذكر بذلك مرة أخرى، لم يأت إلى هنا لسرقة. لقد خطر له الآن بالذات أنه يتوجب عليه إغلاق النافذة لكي لا يسمعوا في الخارج صوت الخلع، ولكنه متشكك، وهو يتساءل عما إذا لم يكن من الأفضل تركها على حالها، سيعتقدون أن الريح هي السبب أو إهمال أحد المستخدمين، أما إذا أغلقتها فسوف يلاحظ فوراً كسر الزجاج، خصوصاً وأن زجاج النافذة غير شفاف، وأقرب إلى البياض. ولثقته بأن بقية العالم تستخدم ما لديها من الروح بطريقة استنتاجية كطريقته، قرر دون جوزيه أن يترك النافذة مفتوحة وراح يزحف بعد ذلك بين قطع الأثاث حتى بلغ الباب. لم يكن مغلقاً بالمفتاح. تنفس الصعداء، فلن تكون ثمة عقبات بعد الآن. إنه بحاجة لمقعد مريح، ومن الأفضل أن تكون أريكة، لكي يستريح خلال ما تبقى من الليل، بل يمكنه أن ينام أيضاً إذا ما أتاحت له أعصابه ذلك. وكان، مثل لاعب شطرنج محرب، قد حسب المشاكل ودرسها، والواقع أنه ليس من الصعب، حين يكون المرء متأكداً من الأسباب الموضوعية المباشرة، التقدم بصورة تقييبة عبر مروحة المؤثرات المحتملة والممكنة وتحولها إلى أسباب، فكل شيء يتولد من توالي مؤثرات فأسباب فمؤثرات، وأسباب فمؤثرات فأسباب، إلى ما لا نهاية، ولكننا نعرف أن حالة دون جوزيه لن تصل بعيداً. وربما سيبدو للحدりين حماقة أن يحشر الكاتب

العمومي نفسه في فم الذئب، وهو الآن، كما لو أن الجسارة التي أقدم عليها صفيرة، يريد أن ينام باطمئنان خلال ما تبقى من الليل وكل نهار الغد، مع المجازفة بأن يفاجئه متلبساً في الجريمة شخص أكثر قدرة على الاستدلال منه في مسألة النوافذ المفتوحة. ولا بد من الاعتراف مع ذلك بأن ما هو أكثر حماقة من ذلك، التقل من قاعة إلى أخرى وإشعال الأنوار فيها. فالجمع بين النافذة المفتوحة والنور المضاء، عندما يكون معروفاً أن مستخدمي البيت أو المدرسة الشرعيين غائبون، هي عملية ذهنية في متداول أي شخص مهما كان قليل التشاك، وهو سيلجا عموماً إلى استدعاء الشرطة.

كان دون جوزيه يشعر بالآلام في كل أنحاء جسده، لا بد أن ركبته مجرحتان، وربما هما ترzan، لأن الإزعاج الذي تسببه له ملامسة البنطال لا تغفي شيئاً آخر، أضف إلى ذلك أنه كان مبللاً ومتسخاً من رأسه حتى قدميه. خلع المعطف الذي كان يقطر، وفك، ولو كان ثمة ركن داخلي معزول هنا، لاستطعت إشعال النور، ولوجدت غرفة حمام، غرفة حمام حيث يمكنني أن أغسل يدي على الأقل. وبينما هو يتلمس الطريق، يفتح الأبواب ويغلقها، وجد ما كان يبحث عنه، أولاً ركن صغير بلا نوافذ، فيه خزائن ذات رفوف تحفظ فيها مواد مدرسية ومكتبية، أقلام رصاص، دفاتر، أوراق، أقلام حبر، ممحایات، زجاجات حبر، مساطر، مثلثات، زوايا قائمة، علب رسوم، أنابيب صمغ، علب مشابك، ولم يتمكن من رؤية أكثر من ذلك. وعلى النور المضاء، تمكناً أخيراً من تفحص الأضرار التي أحدثتها المغامرة. لم تكن جراح ركبتيه بالسوء الذي توقعه، فالخدوش سطحية، وإن كانت مؤلمة. عندما يطلع ضوء النهار، ولا يكون مضطراً إلى إشعال الأنوار، سيبحث عما هو موجود في كل المدارس، خزانة الإسعافات الأولية البيضاء، المعقم، ماء الأكسجين، القطن، الضماد، نسيج الكمامات، لصاقات الجروح، مع أنه

لن يكون بحاجة إلى كل ذلك. ولكن هذه الوسائل الدوائية لن تساعده بشأن المعطف، فداؤه هو القذارة، إنه شحم الخنزير الذي تشرب في القماش، وفكر دون جوزيه، ربما سأتمكن من إزالة البقع الكبيرة بالكحول. ثم بحث بعد ذلك عن دورة مياه، وقد حالفه الحظ، لم يكن بحاجة إلى المشي كثيراً للعثور على واحدة منها، ولا بد أنها دورة المياه التي يستخدمها الأساتذة، نظراً إلى ترتيبها ونظافتها. وكان لนาذتها، التي تطل كذلك على الجهة الخلفية من المدرسة، إضافة إلى زجاجها غير الشفاف، وهو يحتاج إليه هنا أكثر مما في حجرة المهملات التي دخل منها، مصاريع إضافية من الخشب، مما أتاح لدون جوزيه أن يشنل النور أخيراً ويفتسل وهو يرى ما يفعله. وبعد ذلك، حين استعاد قواه وصار نظيفاً إلى حد ما، بحث عن مكان ينام فيه. ومع أنه في الأزمنة التي كان فيها طالباً لم يمر في مدرسة مثل هذه، بهذا الجهاز وهذه الأبعاد، فقد كان يعرف بأن لكل مدرسة مدير، وأن لكل مدير مكتباً، وأن كل مكتب توجد فيه أريكة، وهذا هو بالضبط ما يطلبه جسده الآن. واصل فتح الأبواب وإغلاقها، نظر داخل القاعات التي يenniferها الضوء الخارجي الخافت مظهراً شبحياً، حيث تبدو مقاعد التلاميذ أشبه بجثوات ترابية متراصفة، وحيث منضدة المعلم أشبه بمذبح قرابين قاتم، والسبورة السوداء كأنها المكان الذي تدون عليه حسابات الجميع. وكانت تتدلّى على الجدران، مثل البقع الغامضة التي يخلفها الزمن على بشرة المخلوقات والأشياء، خرائط للقبة السماوية، والعالم، والبلدان، ومخططات سوائل وتضاريس الجسد البشري، أقنية الدم، الانقال الهضمي، تناسق العضلات، اتصال الأعصاب، هيكل العظام، كير الرئتين، متاهة الدماغ، بلاط العين، اختلاط الأعضاء التنايسية. وكانت قاعات الدرس تتوالى على امتداد الممرات التي تدور مخترقة المدرسة، وتنتشر في كل مكان رائحة الطباشير، وهي رائحة

قديمة كرائحة الأجساد تقربياً، هناك من يقول إن الرب حين أراد أن يعجن الطين الذي قرر أن يصنع منه الرجل والمرأة، بدأ برسمهما بقطعة طباشير على سطح الليلة الأولى، ومن هنا جاءتنا اليقين الوحيد المؤكد بأننا كنا وما زلنا وسنكون تراباً، وأننا في ليلة عميقة مثل تلك سوف نفقد أنفسنا. لقد كان الظلام كثيفاً، وتماماً، في بعض الأماكن، كما لو أنهم قد غطوها بأقمصة سوداء، بينما كانت تطفو في أماكن أخرى انعكاسات متذبذبة كما في بركة ماء، إضاءة فسفورية مائلة إلى الزرقة لا يمكن لها أن تكون آتية من مصابيح الشارع، أو أنها، إذا كانت آتية منها، تحول لدى اختراقها الزجاج. فتذكر دون جوزيه الضوء الأبدى الشاحب المتذليل فوق منضدة المدير، والذي تحيط به الظلمة وتبدو أنها على وشك أن تقترسه، فغمغم: المحفوظات العامة مختلفة، ثم أضاف، وكأنه بحاجة إلى الرد على نفسه، ربما كلما تعاظم الاختلاف، تعاظم التمايل، وكلما تعاظم التمايل، تعاظم الاختلاف، ولم يكن قد توصل في تلك اللحظة بعد إلى معرفة إلى أي حد يمكن للعقل أن يسعفه.

لم يكن في هذا الطابق سوى قاعات، لا بد أن يكون مكتب المدير في الطابق العلوى، بعيداً عن الأصوات. عن الصخب المزعج، عن ازدحام الدخول إلى الدروس والخروج منها. كانت هناك كوة في أعلى درج الصعود إلى الطابق العلوى، ومع الارتفاع يتم الصعود تدريجياً من العتمة إلى النور، وهو ما لا يتحمل، في هذه الظروف، معنى آخر سوى التمكن من رؤية موطن قدميه. وشاءت مصادفة البحث الجديد أن يدخل دون جوزيه، قبل أن يعثر على مكتب المدير، إلى سكرتارية المدرسة، وهي قاعة ذات ثلات نوافذ تطل على الشارع. الأثاث فيها من النوع المألوف في مثل هذه الأماكن، فهناك بعض طاولات، وعدد مماثل من الكراسي، وخزائن، وملفات، وأدراج بطاقات، وقد طفر قلب دون

جوزيه حين رأها، فهذا هو ما يبحث عنه، بطاقات، ونشرات، وسجلات، ودرجات، وتاريخ المرأة المجهولة وأوضاعها التعليمية في مرحلة طفولتها ومراهقتها، على افتراض أنه لم تكن هناك مدارس أخرى في حياتها بعد هذه المدرسة. فتح دون جوزيه أحد أدراج خزانة البطاقات دون تعين، ولكن الضوء الآتي من الشارع لم يكن كافياً لكي يدرك ما هو نوع المعلومات التي تتضمنها البطاقات. لدى متسع من الوقت، هكذا فكر دون جوزيه، وما أنا بحاجة إليه الآن هو النوم. خرج من السكرتارية وبعد بابين من ذلك وجد أخيراً مكتب المدير. إذا ما قورن المكتب بتقشف المحفوظات العامة، فلن تكون ثمة مبالغة في الحديث عن الرفاهية هنا. فالأرضية مغطاة بالموكيت، وتوجد على النافذة ستائر من قماش سميك، وهي مسدلة الآن، والمنضدة الفسيحة ذات طراز قديم، والمقدّع من جلد أسود، وحديث، وكل هذا عرفه دون جوزيه لأنّه عندما فتح الباب ووُجد نفسه في ظلام دامس، لم يتّردد في إشعال المصباح اليدوي أولاً، ثم مصباح السقف بعد ذلك مباشرة. فحين صار داخلاً، لم يرَ أي ضوء من الخارج، وبالتالي لا يمكن لأحد في الخارج أن يرى الضوء في الداخل أيضاً. كان مقدّع المدير مريحاً، يمكنه أن ينام عليه، ولكن الأفضل منه بكثير هي الأريكة الطويلة والعريضة ذات الثلاثة مواضع التي بدّت وكأنّها تفتح له ذراعيها بحنان، لكي تحتضنه وتُريح جسده المنهوك. نظر دون جوزيه إلى الساعة، ما زالت هناك بعض دقائق لتبلغ الثالثة. وحين رأى أن الوقت قد تأخر، ولم يكن قد انتبه إلى مروره، أحس بفترة بالتعب الشديد، وفكّر: لم أعد قادرًا على تحمل المزيد، ودون أن يتمكّن من كبح نفسه، وبفعل الإنهاك العصبي، بدأ بالنحيب، ثم صار بكاء منفلتاً، أشبه بالنشيغ، فهو يقف هناك، كما لو أنه عاد ليكون مجددًا، في مدرسة أخرى، ذلك الصبي في أحد الصفوف الأولى الذي اقترف مشاغبة واستدعاء المدير ليتلقى

العقاب الذي يستحقه. ألقى بالمعطف المبلل على الأرض، أخرج المنديل من جيب بنطاله ورفعه إلى عينيه، ولكن المنديل كان مبتلاً مثل كل شيء، فكل شخصه، من رأسه إلى قدميه، وقد لاحظ ذلك الآن، كان كمن ينز ماء، كما لو أنه كله ليس سوى ممسحة مفتولة تُعصر، جسده متسرخ، روجه موجوعة، وكلاهما تعس. ما الذي أفعله هنا، تسأله، ولكنه لم يشأ الرد، فقد خشي أن يbedo له السبب الذي قاده إلى هذا المكان، إذا كشف عنه بهذه الصورة المجردة، سخفاً، وتفاهة، وعملاً مجنوناً. هزته قشعريرة مفاجئة، لقد أصبت بالزكام، قال ذلك بصوت عال، بعد أن عطس مرتين، وبعد ذلك، بينما هو ينف أنفه، وجد نفسه يتذكر، عبر درب نزوبي لتفكير يمضي حيث يشاء دون تقديم أي تفسير، أولئك الممثلين السينمائيين الذين يسقطون في الماء دوماً وهم بملابسهم أو يظهرون وهم يقطرون تحت وابل من المطر، ولا يصابون قط بنزلة صدرية ولا حتى بمجرد الرشح، مثلما يحدث كل يوم في الحياة الواقعية، وما يفعلونه، في أقصى الحالات، هو التذر ببطانية فوق ملابسهم المبتلة، وهي فكرة ستكون في منتهى الحماقة إذا نحن لم نعرف بأن التصوير يتوقف لكي يؤخذ الممثل إلى قمرة، فيستحمل في حمام دافئ ويرتدي البرنس الذي يحمل الحروف الأولى من اسمه. بدأ دون جوزيه بخلع حذائه، ثم خلع بعد ذلك السترة والقميص، وخلع بنطاله وعلقه على شماعة قائمة في أحد الأرکان، ولم يعد ينقصه إلا أن يتمكن من أن يتذر ببطانية الفيلم، وهي إكسسوار يصعب العثور عليه في مكتب مدير المدرسة، اللهم إلا إذا كان المدير شخصاً متقدماً في السن، من أولئك الذين تبرد أقدامهم عندما يجلسون لوقت طويل. روح دون جوزيه الاستدلالية قادته، مرة أخرى، إلى النتيجة الصائبة، فقد كانت البطانية مطبوبة بعنابة فوق مسند المقعد. لم تكن كبيرة، وهي لا تكفي لأن تذرها بالكامل، ولكنها أفضل من أن يمضي الليل بجسد

بجسده عارٍ. أطفأ دون جوزيه نور السقف، واسترشد بالصبح اليدوي، وتتمدد، وهو يتنهد، على الأريكة، ثم انكمش على نفسه بعد ذلك بحيث يلتحف بكماله تحت البطانية. كان ما يزال يرتعش، فالملابس الداخلية التي ما زالت على جسده رطبة، ربما كان التعرق هو السبب، الجهد المبذول، لأنه لا يمكن للمطر أن يكون قد تغلغل إلى ذلك الحد. جلس على الأريكة، تخلص من القميص والسروال الداخليين، خلع جوربيه، ثم التحف بالبطانية وكأنه يريد أن يجعل منها جلدًا ثانياً له، وبينما هو ملتف على نفسه مثل دودة قز، غرق في ظلمة المكتب، آمالاً أن يأتيه القليل من رحمة الدفع لتقلله إلى رحمة النوم. تأخر أولهما، وتأخر الآخر، يبعدهما خاطر لم ينشأ مفارقة رأسه، وماذا إذا ما جاء أحدهم ووجدني في هذه الحال، وكان يقصد عارياً، سيسندعى له الشرطة، ويضعون القيد في معصمي، سيسألونه عن اسمه، عن سنه، عن مهنته، وسيأتي مدير المدرسة أولاً ثم يأتي رئيس المحفوظات العامة بعد ذلك، وسينظران إليه بإدانة قاسية، ما الذي تفعله هنا، سيسأله، ولن يجد صوتاً للرد عليهما، لا يمكنه أن يوضح لهما بأنه يبحث عن امرأة مجهولة، فمن المؤكد أنهما سينفجران في الضحك، وسيعودان إلى سؤاله، ماذا تفعل هنا، ولن يتوقفوا عن السؤال إلى أن يعرف بكل شيء، والدليل على ذلك أنهما واصلاً تردید السؤال في أثناء الحلم عندما تمكّن دون جوزيه، أخيراً، مع قدوم الصباح، من هجر الأرق المنهاك، أو عندما هجره الأرق.

استيقظ متأخراً، وكان يعلم بأنه في مستودع المهملات مرة أخرى، وبأن المطر يهطل عليه بدوي شلال، وأن المرأة المجهولة، وهي وضعية ممثلة سينمائية من مجموعته، تجلس على حافة النافذة وبطانية المدير مطوية في حضنها، تنتظر أن ينتهي من الصعود وهي تقول له في الوقت نفسه، كان من الأفضل أن تطرق الباب الرئيسي،

وقد رد على ذلك وهو يلهم، لم أكن أعرف أنك هنا، فتقول هي، إنني موجودة دوماً، لا أخرج مطلقاً، وتبدو بعد ذلك كما لو أنها تتحملي لتساعده على الصعود، ولكنها اختفت فجأة، واختفت معها الظلة كذلك، ولم يبق سوى المطر، يهطل، يهطل دون توقف على مقعد رئيس المحفوظات العامة، حيث رأى دون جوزيه نفسه جالساً. كان رأسه يؤلمه قليلاً ولكن الرشح لم يتفاقم كما يبدو. كانت تتسلل من خلال قماش السرائر صفيحة رقيقة جداً من ضوء ضارب إلى الرمادي، هذا يعني أن السرائر، على عكس ما اعتقاده، لم تكن مسدلة بالكامل. وفكراً، لا بد أن أحداً لم يتبعه إلى ذلك، وقد كان على حق، فضوء النجوم مبهراً إلى أقصى الحدود، ولكن معظمها لا يضيع في الفضاء وحسب، وإنما يمكن كذلك لفمامنة بسيطة أن تحجب عن عيوننا ما يتبقى من ذلك الضوء. ويمكن لجار في الجهة المقابلة، إذا ما نظر من النافذة ليرى حالة الجو، أن يفكر في أن ذلك الخيط المضيء الذي ينوس بين قطرات المطر المنزلقة على الزجاج، ليس إلا وميضاً من المطر نفسه. وبينما هو يتذر بالبطانية، أزاح دون جوزيه السستارة قليلاً، فقد جاء دوره ليعرف كيف هي حالة الجو. لم يكن المطر يهطل في تلك اللحظة، ولكن السماء بدت مغطاة كلها بغيمة واحدة قائمة، وشديدة الانخفاض إلى حد تبدو معه وكأنها تلامس الأرض، مثل بلاطة هائلة. ففكراً، هذا أفضل، فكلما قل تواجد الناس في الشارع، يكون أفضل. ذهب ليجلس الثياب التي خلعها ويرى إذا ما كانت في حالة يمكن معها لبسها. كان القميص، والقميص والسروال الداخليان، والجوريان قد جفت إلى حد مقبول، والبنطال بدرجة أقل، أما السترة والمعطف، فيحتاجان لساعات طويلة ليجفَا. ارتدى كل شيء باستثناء البنطال، ليتجنب احتكاك النسيج المتيسس من الرطوبة بركتبيه المخدشتين، ومضى بحثاً عن حجرة الإسعاف. لا بد لها، منطقياً، من أن تكون في الطابق السفلي،

على مقربة من قاعة الرياضة والحوادث تختص بها، بجوار الباحثة، حيث يُخدم التلاميذ، في الفسحة بين الدروس، طاقتهم وضجرهم وجزعهم من الدراسة، في ألعاب على هذه الدرجة أو تلك من العنف. وقد أصاب في تقديره. بعد أن غسل جراحه بماء الأكسجين، وضع عليها معقماً له رائحة اليود وضمدها بعنابة وبمبالغة كبيرة في استخدام الضمادات واللصاقات حتى بدا وكأنه يضع لركبته واقيتين من الصدمات. ولكنه كان قادرًا مع ذلك على شيء مفصلي ركبته بما يكفي للمشي، ارتدى بنطاليه وأحس أنه رجل آخر، ولكن ليس إلى الحد الذي يجعله ينسى التوعك الذي يعم جسده البائس. وفكر، لا بد أن يكون هنا شيء مضاد لهذا الرشح وألم الرأس، وبعد ذلك بقليل، وكان قد وجد ما يحتاج إليه، ابتلع قرصي دواء استقرا في معدته. لم يعد بحاجة إلى اتخاذ الاحتياطات كي لا يُرى من الخارج، لأن زجاج نافذة غرفة الإسعاف، مثلما هو متوقع، لم يكن شفافاً أيضاً، إنما عليه أن يتوكى الحذر منذ الآن في كل تحركاته، فلا شيء من السهو،唐نب الابتعاد عن وسط القاعات، والتقلل من حنفيأ عند اضطراره إلى الاقتراب من إحدى النوافذ، والتصرف، باختصار، كما لو أنه لم يمارس في حياته شيئاً آخر سوى عمليات السطو على البيوت. ذكرته حرققة مفاجئة في المدة بالخطأ الذي ارتكبه حين ابتلع قرصي الدواء دون أن يرفقهما بقليل من الطعام، ولو مجرد قطعة صغيرة من البسكويت، حسن، وأين يوجد بسكويت هنا، تسأله وهو يدرك أن لديه الآن مشكلة جديدة عليه أن يجد حلّاً لها، إنها مشكلة الطعام، خصوصاً وأنه لن يستطيع الخروج من المبنى قبل حلول الليل، وحدد، الليل المطبق. ومع أن المعنى، مثلما نعرف، هو شخص قنوع في مسائل الغذاء، إلا أنه عليه أن يهدئ شهيته ريشما يعود إلى البيت، ومع ذلك فقد رد دون جوزيه على حاجته تلك بهذه الكلمات المقشفة، يوم واحد لن يكون أياماً، ولا

أحد يموت من قضاء بضع ساعات دون طعام. خرج من غرفة الإسعاف، وبالرغم من أن مكتب السكرتارية، حيث عليه القيام ببحثه، كان في الطابق الثاني، إلا أنه قرر، لمحض الفضول، القيام بجولة في منشآت الطابق الأرضي. وجد على الفور قاعة التمارين الرياضية، وما فيها من خزائن الملابس، وأجهزة تمارين الظهر وغيرها، العارضة الثابتة، العقلة، حصان الوثب، لوح القفز، الحشايا، في مدارس أزمنته لم تكن تشاهد مثل هذه الأدوات الرياضية المتقدمة، وما كان ليرغب فيها لنفسه، على ما كان عليه آنذاك وما يزال عليه اليوم، وهو يطلقون عليه عموماً تسمية ضعف البنية. كانت حرقة معدته تزداد حدة، وراحت تصعد إلى فمه موجة حموضة لذاعت حنجرته، ليت القرصين ينفعان على الأقل في التخفيف من ألم رأسه، ومن الرشح، من المحتمل أنني محموم، فكر في ذلك وهو يفتح باباً آخر. كانت تلك، ولتبarak روح الفضول، قاعة الطعام. عندئذ نمت لأفكار دون جوزيه أجنة، وسارعت متجلة وراء الطعام، ما دامت هناك قاعة طعام، فلا بد من وجود مطبخ، وإذا كان ثمة مطبخ، ولم يتعجب إلى متابعة التفكير، فها هو ذا المطبخ، بموارده، وقدوره، وقلالياته، وبأطياقه وكقوسه، بخزائنه وثلاجته الضخمة. وإليها توجه، فتحها على مصراعيها، وظهرت الأطعمة تتلقى مشعة، فليببارك مرة أخرى إله الفضوليين، وأيضاً إله لصوص السطو الذي لا يقل جدارة عن ذاك في بعض الأحيان. بعد ربع ساعة من ذلك، كان دون جوزيه قد تحول نهائياً إلى رجل آخر، متماسك الجسد والروح، ملابسه ناشفة تقريباً، ركبته متعافيتان، ومعدته تعمل مشغولة بشيء مغذٍ ومقيم للأود أكثر من قرصين مريضين مضادين للرشح. سيعود في موعد الغداء إلى هذا المطبخ، إلى هذه الثلاجة الإنسانية، أما الآن فعليه البحث في أدراج بطاقات السكرتارية، عليه أن يتقدم خطوة أخرى، وسيعرف إذا ما كانت خطوة

طويلة، أم قصيرة، من خلال التحرى عن ظروف حياة المرأة المجهولة التي كانت تجلس، قبل ثلاثين سنة، وهي طفلة ذات عينين جديتين وناصية شعر تهدل فوق حاجبيها، على ذلك المقعد لتأكل وجبتها من الخبز والسفرجل، ربما وهي حزينة، ربما لإحساسها بالذنب للطخة الخبر التي سقطت على الورقة، وربما سعيدة لأن عرابتها وعدتها بدمية.

كان العنوان المدون على الدُّرُج واضحًا: أسماء التلاميذ وفق الترتيب الأبجدي، وكانت هناك أدراج أخرى عليها كتابات مختلفة: تلاميذ الصف الأول، تلاميذ الثاني، تلاميذ الثالث، وهكذا على التوالي حتى السنة الدراسية الأخيرة. قدرت روح دون جوزيه المهنية عاليًا ذلك النظام في التصنيف، المنظم بطريقة تُسهل الوصول إلى بطاقات التلاميذ عبر سبيلين يلتقيان ويتكملان، أحدهما عام، الآخر خاص. وكان هناك درج منفصل يتضمن بطاقات الأساتذة، وفق ما يمكن قراءته في الكتابة التي تدل على محتواه: الأساتذة. وما إن رأه حتى تحركت، على الفور، في روح دون جوزيه، مستantas آليته الاستنتاجية الفعالة، وفكرا، أجل، من المنطقي توقع أن يكون الأساتذة الذين في الدرج هم من يمارسون عملهم حالياً، وبالتالي فإن بطاقات التلاميذ، بمقتضى تناسق توثيقي محض، تعني برواد المدرسة الحاليين، فضلاً عن أنه يمكن لأي شخص أن يرى أن بطاقات التلاميذ خلال ثلاثين سنة دراسية، حتى في أدنى التقديرات، لا يمكن مطلقاً أن تستوعبها نصف ذرينة الأدراج هذه، مهما كان كرتون البطاقات المستخدمة رقيقاً. ودون التعلق بأية آمال، وإنما مجرد تهدئة ضميره، فتح دون جوزيه الدرج الذي يجب، وفق الترتيب الأبجدي، أن تتواجد فيه بطاقة المرأة المجهولة. فلم تكن موجودة. أغلق الدرج، نظر في ما حوله، وفكرا، لا بد أن يكون هناك أرشيف بطاقات آخر للتلاميذ القدماء، من المستحيل أن

يتلفوها بعد أن ينهي التلاميذ سنواتهم الدراسية، لأن ذلك سيكون انتهاءً لأدنى قواعد التوثيق. إذا ما كان مثل هذا الأرشيف موجوداً، فلن يكون مكانه هنا، وبعصبية، وبالرغم من إدراكه عدم جدوه البحث، فتح الخزائن وأدراج الطاولات. لا شيء. بدأ رأسه، وكأنه لم يستطع تحمل الإحباط، يؤلمه أكثر فأكثر. تساءل، وماذا الآن يا جوزيه، ورد، الآن إلى البحث. خرج من السكرتارية، نظر إلى أحد جانبي الممر الطويل ثم إلى الجانب الآخر. لا وجود هنا لقاعات دروس، وبالتالي فإن تقسيمات هذا الطابق يجب أن تضم، إضافة إلى مكتب المدير، استخدامات أخرى، واحدة منها، مثلما تبين له على الفور، هي قاعة الأسانتنة، وحجرة أخرى تستخدم كمخزن لما يبدو أنه مواد مدرسية خارج الاستخدام، بينما تضم الحجرتان الأخريتان شيئاً، مرتبأ في صناديق على رفوف الخزائن الكبيرة، وله كل المظاهر الذي يوحي بأنه الأرشيف التاريخي للمدرسة. تهلكت أسارير دون جوزيه، ولكن، وهذه هي ميزة، أو نكبة، من يملك تجربة في مهنته، من وجهة نظر الأمل الذي ضاع للتو، إذ أن بعض دقائق كانت كافية ليتأكد من أنه لن يجد ضالته هناك أيضاً، فقد كان الأرشيف من النوع البيروقراطي المحن، فهناك الرسائل الواردة، ونسخ عن الرسائل الصادرة، وهناك إحصاءات، وجداول الدوام، ورسوم بيانية للقدرات الاستيعابية التعليمية، ومجلدات تشريعات. أعاد البحث مرة، مرتين، دون جدوه. خرج يائساً إلى الممر، كل هذا الجهد الكبير مقابل لا شيء، قال ذلك، ثم أجبر نفسه، مرة أخرى، على الانصياع للمنطق، مستحيل، لا بد لتلك البطاقات اللعينة من أن تكون في مكان ما، فما دام هؤلاء الناس لم يتلفوا مراسلات مضت عليها كل هذه السنوات، وهي مراسلات لم تعد تتفع في شيء، فلا يمكن لهم أن يكونوا قد أتلفوا بطاقات التلاميذ، وهي وثائق في غاية الأهمية للسير الحياتية، ولست أستغرب

أن يكون بعض من تشملهم مجموعتي قد مرروا في هذه المدرسة. ولو كان دون جوزيه في ظروف أخرى، فربما فكر في أنه سيكون من المشوق، متلما خطرت له فكرة إغناه قصاصاته بنسخ من شهادات الميلاد، أن يضيف الوثائق المتعلقة بدرجة ومستوى قدرات مشهوريه المدرسية. وهذا على أي حال لن يكون أكثر من حلم يستحيل تحقيقه. فالحصول على وثائق الميلاد المتوفرة على بعد شبر منه، في المحفوظات العامة، هو شيء، وشيء آخر مختلف تماماً المضي في جنبات المدينة للسطو على المدارس لمجرد معرفة إذا ما كان فلان قد حصل على خمس درجات أم ثمان في رياضيات السنة الرابعة، وإذا كان فلان عديم الانضباط حقاً مثلما التباهي في مقابلاته الصحفية. وإذا كان سيعاني في الدخول إلى كل مدرسة مثل ما عانى في هذه، فمن الخير له أن يبقى قابعاً في ركود بيته، قانعاً بالاكتفاء بأن يعرف من العالم تلك الأشياء التي يمكن ليديه أن تصلا إليها دون الخروج، أي الكلمات، والصور، والأوهام.

دخل دون جوزيه ثانية إلى الأرشيف وهو مصمم على حسم الأمر نهائياً، قال: إذا كان المنطق ما يزال سائداً في هذا العالم فلا بد للبطاقات من أن تكون هنا. راح يفتح رفوف القسم الأول، صندوقاً بعد آخر، وكومة فكومة، وكأنه يمر عليها بمشط ناعم، وهذه طريقة في التعبير ترجع أصولها دون ريب إلى الزمن الذي كان الناس فيه مضطرين إلى تسريع شعورهم بالمشط المذكور، والذي يسمى أيضاً مشط الصبيان، لأنه قادر على التقاط ما يمكن أن يفلت من المشط العادي، ولكن المحاولة كانت غير مجدية مرة أخرى، فليس هناك بطاقات. بل، إنها موجودة، أجل، محشورة بإهمال في صندوق كبير، ولكنها بطاقات السنوات الخمس الأخيرة فقط. وبينما هو مقتع الآن بأن البطاقات الأخرى قد أتلفت أخيراً، مُرقط، أُلقيت في القمامه،

هذا إذا لم تكن قد أحرقت، وبعد أن فقد الأمل، دخل دون جوزيه إلى القسم الثاني بلا مبالاة من يقتصر على إنجاز واجب غير مجدٍ. ومع ذلك، فإن عينيه أشفقتا عليه، مع أن الفعل غير مناسب على الإطلاق في هذا المقام، ولكنه مهما حاول لن يجد تفسيراً لواقع أن يُوضع أمامه، مباشرةً، ذلك الباب الضيق ما بين خزانتين، كما لو أن عينيه تعرفان، منذ البدء، أنه هناك. ظن دون جوزيه أنه قد وصل إلى نهاية أعماله، إلى تتويج جهوده، معترفاً، في الحقيقة، بأن حدوث عكس ذلك سيكون قسوة غير مقبولة من القدر، ولا بد أن يكون ثمة مبرر لدى الشعب حين يُلح في التأكيد، بالرغم من معاكسات الحياة، على أن سوء الحظ ليس هو وحده ما يختبئ وراء الباب، فوراء هذا الباب، على الأقل، وكما في الحكايات القديمة، يجب أن يكون ثمة كنز، حتى وإن كان الوصول إليه يتطلب مصارعة التنين. وهذا التنين ليس له أشداءٌ تقطر لعاب الفضب، ولا يقذف الدخان والنار من منخريه، ولا يطلق ز مجرات كأنها الهزات الأرضية، إنه بكل بساطة ظلمة تقع منتظرة بسكون، ظلمة كثيفة وصامتة مثل قاع البحر، هناك أشخاص مشهورون بأنهم شجعان لا يتجرؤون على المرور من هنا، بل إن بعضهم يهربون على الفور، مذعوريين، يتملكم الخوف من أن يُنشب ذلك المخلوق الدنس مخالفته في حلوقهم. ومع أنه ليس بالشخص الذي يمكن أن يشار إليه كنموذج أو قدوة في الشجاعة، إلا أن دون جوزيه، بعد سنوات عمله المتراكمة في المحفوظات العامة، اكتسب معرفة بالليل، بالظل، بالظلمام، بالعتمة، انتهت به إلى التعويض عن حياته الطبيعي، وهي تتبع له الآن، دون خوف مفرط، أن يمد ذراعه عبر جسد التنين بحثاً عن مفتاح الضوء الكهريائي. وجده، أداره، ولكن لم يستعمل أي نور. جرجر قدميه لكي لا يتعرّض، وتقدم قليلاً إلى أن اصطدم كاحل رجله اليمنى بحافة قاسية. انحنى ليتلامس ذلك العائق، وفي الوقت الذي عرف فيه

أنها درجة معدنية، أحس بحجم المصباح اليدوي في جيبي، هذا المصباح الذي كان قد نسيه وسط كل تلك الانفعالات المتناقضة. وجد أمامه سلماً حلزونياً يصعد باتجاه ظلمة أشد كثافة من تلك التي عند عتبة الباب وقد ابتلت بؤرة ضوء المصباح قبل أن تتمكن من كشف الطريق إلى أعلى. لم يكن للسلم درابزين، وهو بالضبط ما لا يناسب شخصاً يعاني الدوار، فعند الدرجة الخامسة، إذا قيض له الوصول إليها، سيفقد دون جозيه إحساسه بالارتفاع الحقيقي الذي هو فيه ويسقط مفميأً عليه، وسيسقط. لم يحدث الأمر على هذا النحو. لقد تحول دون جوزيه إلى شخص مضحك، ولكن لا أهمية لذلك، فهو وحده من يعرف مدى عبئية وعقم ما يفعله، ولا يمكن لأحد أن يراه وهو يزحف صاعداً السلم مثل حربتون لم يستيقظ بعد تماماً من بياته الشتوي. كان يتثبت جزعاً بالدرجات، واحدة بعد أخرى، وجسده يحاول أن يجارى الانحناء الحلزوني الذى يبدو أنه لن ينتهي أبداً، بينما ركبته تتذبذبان مرة أخرى. عندما لمست يداً دون جوزيه، أخيراً، أرضية السقيفة الملاساء، كانت قوى جسده قد خسرت المعركة منذ زمن ضد الروح المذعورة، ولهذا لم يستطع النهوض فوراً، فبقي ممددأً، هكذا، على بطنه، قميصه ووجهه يقعان على الغبار الذى يغطي الأرضية، وساقاوه تتدليان على درجات السلم، يا للعذاب الذى يتوجب أن يعانيه أولئك الذين يخرجون من طمأنينة بيوتهم ليحشروا أنفسهم في مغامرات مجنونة.

بعد بعض دقائق، وكان ما يزال مطروحاً على بطنه، لأنه لم يكن عديم التعلق بحيث يرتكب عملاً متهوراً بالوقوف على قدميه وسط الظلام، مع ما ينطوي عليه ذلك من مجازفة أن تزل به قدمه ويسقط موهناً في الهوة التي جاء منها. تلوى دون جوزيه بجسمه، بمشقة، وتمكن مرة أخرى من إخراج المصباح اليدوي من جيب بنطاله الخلفي.

أضاءه ومر بالنور على الأرضية التي أمامه. كانت هناك أوراق مبعثرة، صناديق كرتونية، بعضها ممزقة، وأخرى مفطاة بالغبار. وعلى بُعد بضعة أمتار ميّز ما بدا له قوائم كرسي. رفع ضوء المصباح قليلاً، وكان كرسياً بالفعل. بدا في حالة جيدة، سواء مقعده أو مسنده، وفotope، يتدلّى من السقف الواطيء، مصباح دون كمة، ففكر دون جوزيه، مثل مصباح المحفوظات العامة. وجه بؤرة الضوء نحو الجدران المحيطة، فظهرت له كتل خزائن متهربة ذات رفوف تلف المقصورة كلها. لم تكن رفوفاً عالية، ولا يمكن لها أن تكون كذلك بسبب ميلان السقف، وكانت محملة بقائض من الصناديق وبأكواام من التقارير الورقية. أين عسامه يكون مفتاح النور، تساؤل دون جوزيه، وجاءه الجواب الذي كان يتوقعه، إنه في الأسفل وهو معطل، بهذا المصباح اليدوي وحده لا أظن أنه سيكون بالإمكان العثور على البطاقات، فضلاً عن أن قلبي يحذثني بأن بطاريته في الرمق الأخير، كان عليك أن تفكّر في ذلك من قبل، ربما يكونون قد وضعوا مفتاحاً آخر للنور هنا، حتى وإن كان الأمر كذلك، فقد رأينا أن المصباح نفسه معطوب، لستنا نعرف بذلك، لو لم يكن معطوباً لأنّي، الشيء الوحيد الذي نعرفه هو أننا أدرنا المفتاح ولم يضاء النور، هذا يعني أنه معطوب، ويمكن له أن يعني شيئاً آخر، ماذَا، أنه لا وجود لمصباح في الأسفل، إنني ما أزال على حق إذن، فهذا المصباح الذي هنا معطوب، ليس هناك ما يؤكّد لنا عدم وجود مفاتحين ومصابحين، مصباح على السلم وآخر في السقيفة، المصباح الذي في الأسفل معطوب، أما الذي في الأعلى فما زلنا لا نعرف وضعه، بما أنك قادر على استئناف ذلك، فاكتشف إذن مفتاح هذا المصباح. ترك دون جوزيه الوضع غير المريح الذي ما يزال فيه وجلس على الأرض. سأخرج من هنا بثياب في حالة مزرية، فكر في ذلك، ووجه ضوء المصباح إلى أقرب الجدران من فتحة السلم، إذا كان موجوداً، فلا بد

أن يكون هنا . واكتشفه في اللحظة التي كان يقترب فيها من التوصل إلى النتيجة المحبطة لهمنه بأن مفتاح النور الوحيد هو الذي في الأسفل . فعندما وضع يده الطلقة مصادفة على الأرض لكي يستند بصورة أفضل ، اشتعل ضوء السقف ، فالمفتاح ، وهو من تلك المفاتيح ذات الأذار ، كان مثبتاً على الأرضية بحيث يكون على الفور في متناول من يصعد السلم . لم يكن ضوء المصباح اليدوي الأصفر يكاد يصل إلى الجدار الذي في العمق ، ولم تكن تظهر على الأرضية آثار أقدام . وبتذكره التواريخ التي رأها في الأسفل ، قال دون جوزيه بصوت عالٍ ، منذ ست سنوات على الأقل لم يدخل أحد إلى هنا . وعندما تلاشى الصوت ، لاحظ دون جوزيه أن صمتاً عميقاً قد خيم على السقية ، كما لو أن الصمت السابق يضم في جنباته صمتاً أكبر ، لا بد أنها حشرات الخشب وقد أوقفت نشاطها في الحٌـت . كانت تتدلى من السقف شِـبَاك عنكبوت مسودة من الفبار ، ولا بد أن أصحابها قد ماتوا منذ زمن بعيد لأنعدام الأكل ، إذ لا وجود هنا لما يمكن أن يجتذب ذبابة تائهة ، خصوصاً وأن الباب السفلي مغلق ، وأما عث الورق واللواحس ومثلها سوس عوارض السقف ، فلم يكن لديها أي مبرر للانتقال إلى العالم الخارجي متخلية عن أروقة السيليلوز التي تعيش فيها . نهض دون جوزيه ، وحاول عبثاً أن ينفض الغبار عن قميصه وبنطاله ، كان وجهه يبدو كوجه مهرج غريب الأطوار بتلك البقعة الكبيرة التي تغطي جانباً واحداً فقط من الوجه . جلس على الكرسي ، تحت المصباح ، وبدأ يحدث نفسه : فلنفكر في تعقل ، قال ، فتحكّم العقل ، إذا ما كانت البطاقات هنا ، وكل شيء يشير إلى أنها كذلك ، فمن غير المحتمل العثور على بطاقات كل تلميذ منفصلة على حدة ، أي أن تكون بطاقات كل تلميذ مجتمعة كلها معاً بحيث يمكن متابعة كامل مسيرته المدرسية في نظرة واحدة ، والاحتمال المؤكد هو أن السكرتارية ، لدى انتهاء كل سنة

دراسية، تصنع حزمة من كل بطاقات تلك السنة وتكتسها هنا، ولا أظن حتى أنهم يزعجون أنفسهم في حفظها في صناديق، أو ربما يفعلون ذلك، ولسوف نرى، وأمل، إذا كان الأمر كذلك، أن يكونوا قد سجلوا عليها من الخارج السنة التي تنتهي إليها، وسواء أكان الأمر على هذا النحو أم ذاك، فلن يكون سوى مسألة وقت وصبر. لم تضف النتيجة شيئاً مهماً إلى المقدمات، فدون جozieh يعلم، منذ بداية حياته، بأنه لا يحتاج إلا إلى وقت لكي يستخدم الصبر، وهو يأمل منذ البداية ألا يفتقر الصبر إلى الوقت. نهض واقفاً، ولو قائه لقاعدة أنه من الأفضل، في كل عمليات البحث، البدء دوماً من أحد الأطراف ثم التقدم بمنهجية وانضباط، فقد انقض على العمل من أقصى أحد صفوف الخزائن ذات الرفوف، مصمماً على لا يترك ورقة فوق ورقة دون التأكد مما إذا لم تكن هناك، بين العلوية والسفلى، ورقة أخرى مخبأة. فتح صندوق، أو فك إحدى الرزم، أو أي حركة أخرى يقوم بها كانت تثير سحابة من الغبار، إلى حد أنه اضطر، كي لا يختنق، إلى ربط المنديل فوق أنفه وفمه، وهو أسلوب وقائي يتوجب على الكتبة اتباعه كلما دخلوا أرشيف الموتى في المحفوظات العامة. وخلال دقائق قليلة صارت يداه سوداويين، وقد المنديل بقع البياض القليلة المتبقية فيه، لقد تحول دون جوزيه إلى عامل في منجم فحم يأمل بالعثور في أعماق المنجم على الفحم النقى لقطعة من الماس.

ظهرت البطاقة الأولى بعد نصف ساعة من البحث. وكانت الطفلة في هذه البطاقة قد تخلت عن تسريح شعرها بتترك خصلة منه تتهدل على جبهتها، ولكن العينين، في هذه الصورة الملقطة لها وهي في الخامسة عشرة، تحتفظان بملمح التوازن المؤلم نفسه. وضعها دون جوزيه بعناية على الكرسي وواصل البحث. كان يعمل بنوع من الحلم، مدفقاً، محموماً، ومن بين أصابعه يفر العث مذعوراً من النور، وشيئاً

فشيئاً، كما لو أنه ينبع بقايا قبر، راح الغبار الناعم يخترق ملابسه ويعلق ببشرته. في البدء، عندما تظهر له حزمة من البطاقات، كان يمضى على الفور إلى ما يعنيه، ولكنه بدأ بعد ذلك يتمهل ممتعناً في الأسماء، في الصور، لا لشيء إلا لأنها هناك، وأن أحداً لن يعود إلى دخول هذه السقية ليغوص الغبار الذي يغطي مئات، بل آلاف وجوه الفتى والفتيات الذين ينظرون مواجهة إلى العدسة الشيشية، إلى الجانب الآخر للعالم، بانتظار ما لا يعلمناه. الحال في المحفوظات العامة ليس على هذا النحو، ففي المحفوظات العامة لا توجد إلا الكلمات، في المحفوظات العامة لا يمكن رؤية كيف تغيرت الوجوه أو كيف هي أخذة بالتغيير، في حين أن هذا هو بالضبط الأمر الأكثر أهمية، ما يبدله الزمن، وليس الاسم الذي لا يتبدل مطلقاً. عندما بثت معدة دون جوزيه إشاراتها، كانت قد اجتمعت على الكرسي سبع بطاقات، اثنان منها عليهما الصورة نفسها، لا بد أن أم الطفلة قالت لها، خذ صورة السنة الماضية هذه، فلست بحاجة للذهاب إلى المصور، وأخذت هي الصورة، يغمرها الحزن لأنها لم تحصل هذه السنة على صورة جديدة. وقبل أن ينزل دون جوزيه إلى المطبخ، دخل إلى حمام المدير ليغسل يديه، ووقف مذهولاً عندما رأى نفسه في المرأة، لم يكن يتصور بأن يكون وجهه بتلك الحال، متسخاً، تخدده مساليل العرق، وفكراً، لا أبدو أنتي أنا، وربما لم أكن كذلك إلى هذا الحد من قبل فقط. عندما انتهى من تناول الطعام، صعد إلى السقية مسرعاً بالقدر الذي تتوجه له ركبته، فقد خطر له أنه إذا ما انقطع النور، وهو احتمال يجب أخذة في الحسبان مع هذه الأمطار، فلن يستطيع إنهاء بحثه. إذا افترضنا أنها لم ترسب في أي سنة دراسية، فإن عليه أن يجد خمس بطاقات أخرى فقط، وإذا ما انقطع الضوء وبقي في الظلام، فإن جهوده، جزئياً، ستضيع هباء، لأنه لن يستطيع الدخول ثانية إلى

المدرسة. وبينما هو مستغرق في العمل، نسي ألم الرأس، والرشف، ولكنه كان في حالة أسوأ الآن. نزل ثانية ليتناول قرصي دواء آخرين، ثم صعد مجرجاً قواه الواهنة، وعاد إلى العمل. كان المساء يقترب من نهايته عندما وجد البطاقة الأخيرة. أطماً ضوء السقيفة، وأغلق الباب، ومثل مُنوم، لبس السترة والمعطف، ومسح بأفضل ما يستطيع آثار أقدامه وجلس ينتظر حلول الليل.

في صباح اليوم التالي، وما إن بدأ النشاط يدب في المحفوظات العامة، واتخذ الموظفون أماكنهم، حتى فتح دون جوزيه الباب الموصل بين بيته والمحفوظات بصورة موارية، وقال بست بست ليلفت انتباه أقرب زملائه الكتبة إليه. أدار الرجل رأسه ورأى وجهاً محتقناً ذا عينين زائفتين، ماذا تريد، سأله بصوت خافت كي لا يعكر سير العمل، ولكنه أبرز في كلماته نبرة مؤنثة ساخرة، كما لو أن فضيحة التغيب لم تأت إلا لتعطي الحق من كان التأخر قد فضحه، فقال دون جوزيه، إنني مريض، ولا يمكنني المجيء إلى العمل. نهض الزميل متضايقاً، ومشى ثلاثة خطوات باتجاه مأمور قسمه، وأعلمته، عذرًا يا سيدي، الكاتب دون جوزيه هناك يقول إنه مريض. نهض المأمور بدوره، ومشى أربع خطوات باتجاه نائب المدير المختص وأعلمته بالأمر، عذرًا يا سيدي، الكاتب دون جوزيه هناك يقول إنه مريض. وقبل أن يسير الخطوات الخمس التي تفصله عن طاولة المدير، اقترب نائب المدير ليتحرى طبيعة المرض، سأله، مم تشكوا، فرد دون جوزيه، لدى زكام، لم يكن الزكام سبباً للتغيب عن العمل فقط، إنني محموم، وكيف عرفت أنك محموم، استخدمت ميزان الحرارة، بضعة أعشار الدرجة فوق الحرارة الطبيعية، لا يا سيدي، لدى تسع وثلاثون درجة، حالة رشح عادبة لا ترفع درجة الحرارة إلى هذا الحد، قد أكون مصاباً بالانفلونزا، أو ربما بالتهاب رئوي، لا تكن نذير شؤم، إنني أعرض احتمالاً وحسب، ولست أتباً بأي شؤم، أعدركي، فقد كانت مجرد كلمة تقال، وكيف وصلت إلى

هذه الحال، أظن أن السبب هو المطر الذي انهمى علىِّ هذه عاقبة التصرفات الطائشة، معك حق، الأمراض الناجمة عن أسباب لا علاقة لها بالعمل لا تؤخذ في الاعتبار، لم تكن إصابتي في أثناء قيامي بعملي في الواقع، ساذهُب لأطلع الرئيس على الأمر، أجل يا سيدي، لا تغلق الباب، فقد يرحب في توجيهه بعض التعليمات إليك، حاضر يا سيدي. لم يوجه الرئيس أية تعليمات، واكتفى بالنظر من فوق رؤوس الموظفين المنحنية والإيماء بإشارة مقتضبة من يده، وكأنه يزدرى المسألة لتفاهاها أو كأنه يؤجل الاهتمام الذي سيوليها إياه إلى ما بعد، ولم يكن بمقدور دون جوزيه، من تلك المسافة، أن يميز الفرق، هذا إذا افترضنا أن عينيه الدامعتين والملتهبتين قد تمكنا من رؤية الإيماءة. ويُفترض على أي حال، أن يكون دون جوزيه قد أصيب بالذعر من تلك النظرة، ودون أن يدرى ما يفعل، فتح الباب أكثر قليلاً مما كان عليه، مُظهراً جسده بالكامل في المحفوظات العامة، كان يرتدي روحاً عتيقاً فوق بيجامته، وقدماه محشورتان في خف بيتي، وبيدو بالملوهر الذاوي لمن يعاني من زكام فظيع، أو انفلونزا خبيثة، أو نزلة رئوية قاتلة، ومن يدرى، فكتيرة هي المرات التي انتهى بها نسيم لطيف إلى اعصار مدمر. عاد نائب المدير ليقول له إن الطبيب الرسمي سيزوره اليوم أو غداً ليفحصه، ولكنه بعد ذلك، وبأ للروعة، نطق بكلمات لم يسعد بسماعها يوماً أي موظف صغير، هو أو سواه، في المحفوظات العامة، الرئيس يتمنى لك الشفاء، وبدأ على نائب المدير نفسه أنه لا يصدق ما يقوله. أما دون جوزيه المذهول، فقد وجد ما يكفي من الجلد لينظر باتجاه المدير، لكي يشكره على لفته غير المتوقعة، ولكن المدير كان يحني رأسه، وكأنه منهكم في العمل، مع أن ذلك، ونحن نعرف تقاليد العمل في المحفوظات العامة، أمر أكثر من مشكوك فيه. أغلق دون جوزيه الباب ببطء، وبينما هو يرتجف من الانفعال والحمى، اندس في

لم يكن قد تلقى ذلك المطر الذي انهمر عليه وهو فوق الظلّة، يجاهد للدخول إلى المدرسة، وحسب. لأن المسكين لم يكن يتصور ما الذي ينتظره حين خرج أخيراً، بعد حلول الليل، من النافذة ووصل إلى الشارع. لقد كان بانتظاره ما هو أقسى مما عاناه في التسلق، فقبل كل شيء، كان الغبار المتراكم في أرشيف السقيفة قد خلفه في حالة من القذارة، من رأسه حتى قدميه، يستحيل وصفها، فوجهه وشعره يغطيهما السواد، ويداه مثل فرشاتين مسودتين، ولا حاجة إلى التحدث عن الملابس، فالمعطف المتضمخ بالشحم تحول إلى أسمال، والبنطال كما لو أنه ممرغ بالقطaran، والقميص بيدو وكأنه قد استُخدم في تنظيف مدخنة تراكم سناجها منذ قرون، بحيث يمكن لأي متسلل، حتى ولو كان يعيش في أقصى حالات العوز، أن يخرج إلى الشارع بمظهر أكثر لياقة. وبعد أن ابتعد دون جوزيه عن المدرسة مجازأ شارعين، وكان المطر في أثناء ذلك قد انقطع، استوقف سيارة أجرة ليعود إلى البيت، وحدث عندئذ ما لا بد من حدوثه، فحين رأى السائق تلك الهيئة السوداء تبرز له فجأة من أعماق الظلام، أصيب بالذعر واندفع مسرعاً بسيارته. ولم تكن تلك هي المرة الوحيدة، فثلاث سيارات أجرة أخرى، أشار لها دون جوزيه بعد ذلك، توارت مسرعة عند المنعطف وكأن شيطاناً يلاحقها. فلم يجد دون جوزيه بدأ من الاستسلام والعودة إلى البيت ماشياً، لأنه لم يعد يجرؤ الآن على الصعود إلى حافلة، الصبر، سيكون إنهاكاً آخر يضاف إلى هذا الذي يكاد لا يسمح له بجرجرة قدميه، ولكن الأسوأ هو أن المطر ما لبث أن عاود الهطول بعد قليل، ولم يتوقف طوال الطريق اللانهائي، شوارع، ساحات، جادات، عبر مدينة بدت وكأنها مقفرة، وذلك الرجل يقطر، دون أن تكون معه ولو مظلة تقيه من المطر الغزير، ويمكن فهم السبب، فليس هناك من يأخذ

معه مظلة وهو ذاذهب إلى عملية اقتحام، فالامر مثل الحرب، كان بإمكانه الاحتماء عند أحد الأبواب وانتظار توقف المطر، ولكن ذلك لم يعد يستحق العناء، إذ ليس بالإمكان أن يبتل أكثر مما هو عليه. عندما وصل دون جوزيه إلى البيت، كان الجزء الوحيد الجاف إلى حد معقول من ملابسه هو جيب سترته، الجيب الداخلي الأيسر، حيث خبأ البطاقات المدرسية للطفلة المجهولة، وكان يضع بيده اليمنى فوقها طوال الوقت، ليحميها من المطر، ويمكن لمن يراه على تلك الحال أن يفكر، خصوصاً بوجهه المعذب، بأنه يعاني مرضاً في القلب. تعرى تماماً وهو يرتجف، وكان يتساءل مشوشاً كيف سيحل مشكلة تنظيف تلك الملابس المكومة على الأرض، لم تكن لديه بدلات، وأحذية، وجوارب، وقمصان إلى الحد الذي يتتيح له أن يرسل مجموعة الملابس دفعة واحدة إلى المصبغة، وكأنه شخص مقتدر، فهو سيحتاج بكل تأكيد إلى إحدى هذه القطع عندما سيرتدى في الصباح ما هو متبق لديه. قرر تجاهل هذه المشكلة إلى ما بعد، لأن عليه الآن أن ينزع القذارة عن جسده، والسيئ في ذلك هو أن سخان الماء يعني من خلل في عمله، إذ يمكن للماء أن يخرج ساخناً يغلي أو بارداً يجمد، ومجرد تفكيره في ذلك بعث القشعريرة في جسده كله، ولكنه غمم بعد ذلك كمن يرغب في إقناع نفسه، ربما كان ذلك جيداً للزكام، دفقة ماء ساخنة، ودفقة باردة، مثلاً يقال. دخل حجرة النوم التي يستخدم ركناً منها كفرفة استحمام، نظر إلى نفسه في المرأة وأدرك سبب رعب سائقي سيارات الأجرة، فلو كان في مكانهم لفعل الشيء نفسه، الهرب من هذا الشبح ذي الحدقين الغائرين والفهم الذي يسيل من جانبيه نوع من اللعاب الأسود. لم يسئ سخان الماء السلوك في هذه المرة، فقد أطلق عليه دفقتي ماء باردتين في البدء، وجاءت البقية بعد ذلك فاترة منعشة، وقد ساعدته بعض اللسعات السريعة الحارقة بين وقت وآخر في إذابة الوساخة. حين

خرج من الحمام، أحس دون جوزيه بالانتعاش، وكأنه جديد، ولكن ما إن اندرس في الفراش حتى عاودته نوبات القشعريرة، عندئذ فتح درج الكوميدينو حيث يخبيء ميزان الحرارة، وقال بعد قليل، تسع وثلاثون، إذا ما بقيت هكذا إلى الغد، فلن أستطيع الذهاب إلى العمل. وسواء أكان ذلك بفعل الحمى أم بفعل الإرهاق، أو بتأثيرهما معاً، فإن هذا الخاطر لم يقلقه، ولم تبد له غريبة فكرة التفيف غير المعتاد عن الخدمة، ففي هذه اللحظة لم يكن يبدو على دون جوزيه أنه دون جوزيه، أو أنهما دونا جوزيه اثنان مطروحان في السرير، ببطانية مرفوعة حتى الأنف، أحدهما دون جوزيه الذي فقد الإحساس بالمسؤولية، ودون جوزيه الآخر الذي لم يعد يبالي بأي شيء من ذلك كله. وعلى النور المضاء، أخذته الإغفاءة لبعض دقائق استيقظ بعدها مفزعًا وقد حلم بأنه ترك البطاقات فوق كرسي السقيفة، وبأنه تركها متعمداً، كما لو أنه لم يكن هناك من هدف آخر ل GAMERه سوى البحث عنها والعنور عليها. وحلم أيضاً بأن هناك من دخل إلى السقيفة بعد أن خرج هو منها، وأنه رأى زمرة الثلاثة عشرة بطاقة وتساءل، أي سرّ هو هذا. نهض ذاهلاً ومضى للبحث عنها، كان قد وضعها فوق المنضدة عندما أفرغ جيوب سترته، ثم رجع بعد ذلك إلى الفراش. كانت البطاقات متتسخة بآثار سوداء، بل إن بعضها كانت تُظهر بصمات أصحابه بوضوح، يتوجب عليه أن ينظفها غداً ليتجنب أي محاولة لتحديد هويته، ثم فكر، يا للبلادة، كل ما تلمسه يحتفظ ب بصمات أصحابنا، وإذا ما نظفت هذه الآثار فإنني سأشلف غيرها، والفرق هو أن بعضها ظاهر ومرئي، والأخرى غير مرئية. أغمض عينيه وعاد بعد قليل إلى الدخول في حالة الإغفاء، تهدلت يداه اللتان تمسكان بالبطاقات برخواة، فوق اللحاف، فسقط بعض البطاقات على الأرض، وهناك كانت صور فتاة في أعمار مختلفة، من الطفولة وحتى المراهقة،

أحضرت إلى هنا بعمل تعسفي، فليس من حق أحد الاستيلاء على صور ليست له، اللهم إلا إذا قدمت إليه، فحمل صورة شخص ما في الجيب هو أشبه بحمل شيء من روحه. حلم دون جوزيه، الذي لم يستيقظ منه، كان مختلفاً الآن، فهو يرى نفسه ينطف آثار بصمات أصابعه التي خلفها في المدرسة، إنها موجودة في كل الأنهاء، على النافذة التي دخل منها، في غرفة العيادة، في السكرتارية، في مكتب المدير، في قاعة الطعام، في المطبخ، في غرفة الأرشيف، أما البصمات التي في السقية فقد رأى أنها لا تستحق أن يقلق بشأنها، لأن أحداً لن يدخل هناك ليسأل بعد ذلك، أي سرّ هو هذا، ولكن السيئ في الأمر هو أن الديرين اللذين تتظافران الآثار المرئية تختلفان وراءهما أثراً غير مرئي، فإذا ما قدم مدير المدرسة بلاغاً إلى الشرطة عن عملية الاقتحام وفتح تحقيق جدي، فإن دون جوزيه سيذهب إلى السجن، وهذا مؤكد مثلاً هو مؤكد أن اثنين زائد اثنين يساوي أربعة، ولا بد من تصور فقدان الاعتبار والعار الذي سيسلطه إلى الأبد سمعة المحفوظات العامة للسجل المدني. استيقظ دون جوزيه عند انتصاف الليل وهو يتقد بالحمى، بدا أنه يهدى، وكان يقول، لم أسرق شيئاً، لم أسرق شيئاً، وكان ذلك صحيحاً، لأنه، إذا ما تحدثنا عن السرقة، لم يسرق أي شيء، ومهما بحث المدير وتقصّ، ومهما كانت التقصيات، والإحصاءات والمقارنات التي سيجرونها، في قوائم جرد تفصيلية، مادة بعد أخرى، فإن النتيجة ستكون هي نفسها، سرقة بمعنى السرقة لم تقع، لا شك في أن مسؤولية المطبخ ستؤتي قائلة إن هناك نقصاً في الطعام الذي في الثلاجة، ولكن إذا افترضنا أن هذه هي الجريمة الوحيدة المفترضة، فإن السرقة من أجل الأكل، حسب الرأي السائد إلى هذا الجد أو ذاك، لا تعتبر سرقة، وحتى المدير نفسه يؤيد هذا الرأي، الشرطة وحدها هي التي تتخذ منذ البداية رأياً مخالفأً.

مع أنه لم يبق أمامها الآن سوى أن تغادر مغمضة: ثمة سرّ غامض في الأمر، فليس هناك من يفتح بيتاً لأجل تناول الفطور فقط. وعلى كل حال، فإن الإقرار الرسمي للمدير، المقدم خطياً، بأنه لم يُفقد أي شيء ذا قيمة أو دون قيمة من المدرسة، جعل رجال الشرطة يقررون عدم رفع آثار البصمات، مثلاً يستدعي الروتين، لدينا فائض من العمل، قال ذلك أمراً جماعة المحققين. ولكن هذه الكلمات المطمئنة لم تتح لدون جزئيه النوم خلال ما تبقى من الليل، فقد خاف أن يتكرر الحلم نفسه وترجع الشرطة ومعها العدسات المكربة ومساحيق البويرة.

لا يوجد في البيت شيء يوقف هذه الحمى، والطبيب لا يأتي إلا في المساء، ومن المحتمل ألا يأتي اليوم، وهو لن يجلب معه أدوية، بل سيقتصر على كتابة الوصفة المعهودة لحالات الرشح والانفلونزا. الملابس المتتسخة ما تزال مكومة وسط البيت، ودون جزئيه ينظر إليها من السرير نظرة حائرة، كما لو أن تلك الأشياء ليست له، وقدر يسير من الحس السليم هو الذي يمنعه من التساؤل، من الذي جاء ليتعرى هنا، وكان ذلك الحس السليم هو الذي دفعه، أخيراً، إلى التفكير في التعقيدات، سواء ذات الطبيعة الشخصية أو المهنية، التي ستتشاء عن دخول أحد زملائه متجاوزاً الباب ليستعلم عن حالته، مرسلأً من قبل الرئيس أو بمبادرة ذاتية، ولقائه مواجهة مع تلك القذارة. عندما نهض واقفاً أحس كما لو أنهم قد دفعوه بفطاظلة نحو أعلى السلم، ولكن هذا الدوار لم يكن كفيراً، فهو ناجم عن الحمى، وعن الضعف الذي يعتريه إلى حد ما، لأن ما كان يأكله في المدرسة، وبيدو له كافياً في كل مرة، كان ينفع لخداع أعصابه أكثر من نفعه لتغذيته جسده. وبصعوبة، مستنداً إلى الجدار، تمكן من الوصول إلى كرسي والجلوس عليه. انتظر أن يعود رأسه إلى حالته العادبة لكي يفكر في المكان الملائم لإخفاء الملابس المتتسخة، في غرفة الحمام لا، فالأطباء يفسلون أيديهم

لدى الخروج، وتحت السرير مستحيل، فهو من تلك الهياكل القديمة ذات القوائم العالية، ويمكن لأي شخص، حتى دون أن ينحني، أن يرى تلك الأسماك، وفي خزانة الشخصيات المشهورة لا يوجد متسع وهي ليست بالمكان المناسب، الحقيقة الحزينة هي أن رأس دون جوزيه ما زال يعمل بصورة سيئة على الرغم من توقفه عن الدوران، المكان الوحيد الذي ستكون فيه الملابس المتسخة بمنجي من الفضول دون ريب هو المكان الذي توضع فيه عندما تكون نظيفة، أي وراء الستارة التي تغطي الركن الذي يستخدم كخزانة للملابس، وسيكون الزميل الزائر أو الطبيب في منتهى الوقاحة إذا ما دس أنفه هناك. أحس بالرضي عن نفسه لأنه أنجز، بعد تأخير مبالغ فيه، ما كان يُعتبر في ظروف أخرى أمراً جلياً، دفع دون جوزيه الملابس بقدمه نحو الستارة كي لا يلوث بيجامته. بقيت على الأرضية بقعة كبيرة من الرطوبة تحتاج إلى ساعات ريثما تتذر بالكامل، إذا ما دخل أحدهم قبل ذلك وسأله فسوف يوضح له بأن ماء قد اندلق منه في لحظة سهو أو أنه كانت هناك بقعة على الأرض وحاول تنظيفها. كانت معدة دون جوزيه، منذ أن استيقظ، تتضرع إليه بأن يحنو عليها بفنجان من القهوة مع الحليب، بقطعة بسكويت، بشريحة خبز مع الزيد، بأي شيء يحمد الشهية التي تيقظت فجأة، الآن بعد أن انزاح القلق على المصير العاجل للملابس. كان الخبز قاسياً وناشفاً، والزيد ضئيلاً، ولم يكن هناك حليب، وإنما قهوة فقط، ومن نوعية ردئية، ومن المعروف أن رجالاً لم تشاً امرأة القبول بالعيش في كوخه هذا، رجالاً من هؤلاء، ما عدا استثناءات قليلة جداً لا مكان لها في هذه القصة، لن يتجاوز قط كونه مجرد شيطان بائس، ومن المثير للفضول أن يقال دوماً إنه شيطان بائس ولا يقال أبداً إنه إله بائس، خصوصاً عندما يكون قد أصابه سوء الطالع بالخروج مفسد الهندام مثل رجلنا هذا، وحذار، لأن من كنا نتكلم عنه هو إنسان،

وليس مجرد إله لا على التعيين. على الرغم من الطعام القليل الذي يبعث على الكآبة، فقد وجد دون جوزيه من الحماس ما يكفي ليحلق ذفته، وهي عملية بدا له أنه خرج منها بوجه أحسن حالاً، إلى حد أنه قال أخيراً للمرأة، يبدو أن الحمى قد تراجعت، وقاده هذا الاعتقاد إلى التفكير في أن ذهابه للمثول في موقع العمل بإرادته لن يكون بالسياسة السيئة، وستكون كلماته التي سيقولها، خدمة المحفوظات هي فوق كل شيء، وسيفتر له المدير، نظراً لشدة البرد في الخارج، عدم قيامه بتلك الالتفافة حول المبنى المفروضة عليه للدخول، بل ربما يسجل في ملف دون جوزيه أن مجئه هو دليل واضح على روح التعاون والمواظبة على العمل. فكر في ذلك ولكنه لم ينفذه. كان يشعر بالألم في كل أنحاء جسمه، كما لو أنهم قد سحلوه، ضربوه، زعزعوه، فقد كانت عضلاته تخلو، وكانت تؤلمه مفاصله، ولم يكن ذلك بسبب الجهد الشاقة التي بذلها كمتسلق ومحطم أبواب، فأي شخص يمكنه أن يدرك بأن الأمر يتعلق بآلام مختلفة، واختتم تفكيره، ما أعناني منه هو الانفلونزا.

كان قد اندس في الفراش لتوه عندما سمع طرقاً على باب الاتصال بالمحفوظات، لا بد أنه زميل مشفق عليه يأخذ على محمل الجد الوصية المسيحية بزيارة المرضى والمسجونين، لا، لا يمكن للقادم أن يكون زميلاً، فاستراحة الغداء ما تزال بعيدة، وممارسة أعمال التراحم غير مسموح بها إلا خارج أوقات الخدمة، ادخل، الباب غير موصد بالمفتاح، ففتح الباب وظهر عند العتبة نائب المدير الذي كان قد أبلغ المدير عن مرضه، يريد الرئيس أن يعرف إذا ما كنتَ تتناول دواءً ما ريشما يحضر الطبيب، لا يا سيدي، ليس لدى شيء مناسب في البيت، إليك بعض أقراص الدواء إذن، شكراً جزيلاً، وإذا كنتَ لا تمانع فسوف أدفع لك ثمن الدواء لاحقاً، لأنني لا أستطيع النهوض، بكم أنا

مدین لک، لقد کان امرأً أصدره لی الرئیس، ولا يمكن لأحد أن یسأل الرئیس بكم هو مدین له، أعرف ذلك، اعذرني، سيكون من المناسب أن تتناول قرصاً الآن، ثم دخل نائب المدیر دون أن یطلب إذناً بذلك، أجل، شکراً جزيلاً، هذا لطف كبير منه، ولم یستطع دون جوزيه أن یعترض طریقه، أن یقول له توقف، لا يمكن لحضرتك الدخول إلى هنا، فهذا منزل خاص، لم یستطع قول ذلك لأنه لا يمكن في المقام الأول التحدث بمثل هذه الألفاظ إلى مسؤول، ولأنه في المقام الثاني، ليس هناك في ذاكرة التقاليد الشفوية، ولا في السجلات الخطية لحوليات المحفوظات، ما یشير إلى أن رئیساً قد اهتم يوماً بصحة أحد الكتبة إلى حد إرسال مندوب یحمل إليه أقراص دواء. وكان نائب المدیر نفسه مرتبكاً من هذا الوضع المستجد، فهو لم یفعل مثل ذلك بمبادرةه الشخصية فقط، ولكنه لم یفقد بوصلته على أي حال، وكمن یعرف تماماً ما الذي جاء یفعله ویعرف كل أرجاء البيت، وليس هذا بغریب، فقبل التغيرات العمرانية في الحي، كان یسكن بيتاً مثل هذا البيت. وكان أول ما لاحظه هو بقعة الرطوبة الكبيرة على الأرض، فسأل، ما هذا، أهو تسرب ماء، وكان دون جوزيه یرغب في أن یرد عليه بنعم حتى لا یضطر إلى تقديم تفسيرات أخرى، ولكنه آثر أن ینسب تلك البقعة إلى إهماله، مثلاً فكر من قبل، فلم یعد ینقصه إلا أن یجيء بسباك إلى البيت ليقدم تقريراً إلى الرئیس بعد ذلك یعلن فيه بأنه لا علاقة للتمديدات الصحية، بالرغم من قدمها، بظهور بقعة الرطوبة. كان نائب المدیر قد جاء في أثناء ذلك حاملاً كأس الماء وقرص الدواء، وكانت مهمة المرض التي أنيطت به قد لطفت من ملامح التسلط المعهودة في وجهه، ولكن تلك الملامح ما لبثت أن عادت إليه بفتة، وقد زاد من حدتها أمر يمكن تصنیفه بأنه إهانة مفاجئة، وذلك عندما اكتشف، حين اقترب من السبیر، وجود البطاقات المدرسية للطفلة المجهولة

موضوعة فوق الكوميدينو. وقد انتبه دون جوزيه إلى استغراب الآخر في اللحظة التي بدأ يتشكل فيها ذلك الاستغراب، وأحس كما لو أن العالم كله ينهار. أصدر الدماغ على الفور أمراً لعضلات ذراع هذا الجانب، ارفع هذه البطاقات من هنا يا غبي، ولكن بعد ذلك، وبالسرعة نفسها، اندفعت شحنة كهربية في إثر شحنة كهربية، وصحيحت الخطأ، وهذا لمجرد أن نطلق على ما حدث تسمية ما، مثل من تعرف للتو على غبائه، أرجوك، لا تلمسها، تجاهل الأمر، تجاهله. ولهذا، اعتدل دون جوزيه في السرير بخفة غير متوقعة على الإطلاق من شخص يعاني خموداً جسدياً وذهنياً هو المحصلة الأولى المعروفة للانفلونزا، متظاهراً بأنه يريد تسهيل مهمة نائب المدير الإحسانية، ومدد ذراعه ليتلقى قرص الدواء، الذي وضعه في فمه، والماء لكي يدفعه عبر حلقة المتضيق والمكروب، متنهزاً في الوقت نفسه كون الفراش الذي يرقد فوقه على مستوى الكوميدينو، ليغطي البطاقات بمرفق ذراعه الأخرى، تاركاً ساعده يهوي بعد ذلك إلى الأمام وراحة يده مبسوطة، زاجرة، وكأنها تأمر نائب المدير توقف عندك. ما أنقذه هو الصورة الملصقة على البطاقة، لأن هذا الاختلاف هو الأبرز بين الشهادات المدرسية وشهادات الميلاد والحياة في المحفوظات، لأن ما تفتقر إليه المحفوظات العامة هو تلقي صورة شخصية للمسجلين الأحياء لديها في كل عام، ومن يقول كل عام يقول كل شهر، أو كل أسبوع، أو كل يوم، أو صورة في كل ساعة، رياه، كيف ينقضي الزمن، ويَا للعمل الذي سيطلبه ذلك، كم من الكتبة سيتوجب تجنيدهم، صورة في كل دقيقة، في كل ثانية، يا لكمية الصمغ، واستهلاك المقصات، الحرصن في اختيار العاملين، بحيث يستبعد الحالمون الذين لا يتورعون عن الاستفراغ في تأمل صورة إلى الأبد، ويسرح بهم الخيال كما يسرح خيال البلهاء وهم يرون مرور سحابة. أبدى وجه نائب المدير الملامح التي تظهر عليه في أسوأ

أيامه، عندما تتراءم الأوراق فوق كل الطاولات ويستدعيه الرئيس ليسأله إذا ما كان متائداً حقاً من أنه ينجز واجبه. بفضل وجود الصورة، لم يفكر في أن البطاقات التي على كوميديينه مرؤوسه هي من بطاقات المحفوظات العامة، ولكن التعجل الذي غطاهما به دون جوزيه، وخصوصاً أنه تصرف كما لو أنه يفعل ذلك دون قصد أو بشروع تفكير، أوقف في نفسه الشكوك، كانت بقعة الرطوبة قد بعثت فيه الحيرة من قبل،وها هي الآن بطاقات من نموذج غير معروف لديه عليها صورة ملصقة، لطفلة، مثلاً بإمكانه أن يراها. لم يكن قادراً على تحديد عدد البطاقات الموضوعة بعضها فوق بعض، ولكنها، حسب ما يبدو من سماتها، يجب أن تكون عشرة على الأقل، عشر بطاقات عليها صور فتيات، يا له من أمر غريب، ما الذي تفعله هذه البطاقات هنا، فكر بذلك مدهولاً، ولا بد أن ذهوله سيكون أكبر بكثير إذا ما عرف أن البطاقات كلها تعود إلى الشخص نفسه، وأن البطاقتين الأخيرتين هما لفتاة في سن المراهقة، ذات وجه جدي ولكنه لطيف. ترك نائب المدير علبة أقراص الدواء على الكوميديين وانسحب. وعندما صار على وشك الخروج، نظر إلى الوراء ورأى مرؤوسه ما يزال يغطي البطاقات بمرفقه، يجب أن أخبر الرئيس، قال لنفسه. وما كاد الباب يُغلق حتى سارع دون جوزيه، بحركة فظة، كما لو أنه يخشى أن يفاجأ وهو يرتكب خطيئة، ودس البطاقات تحت الفراش. لم يكن هناك أحد ليقول له إن الوقت قد فات، ولم يكن هو راغباً في أن يفكر في ذلك.

إنها انفلونزا، قال الطبيب، ثلاثة أيام من الراحة كبداية. وكان دون جوزيه قد نهض، دائحاً ومتهالك الساقين، ليفتح الباب، اعتذرني لأنني جعلتك تنتظر يا سيدي الدكتور، هذه هي نتيجة العيش وحيداً، دخل الطبيب متذمراً، يا للطقوس المشوّم، أغلقَ المظلة التي تقطر، وتركها عند المدخل، قل لي مم تشكوا، سأله بينما كان دون جوزيه المترجف يندس بين ملاءات السرير، وأضاف دون أن ينطر الرد على سؤاله قائلاً، إنها الانفلونزا. قاس نبضه، طلب منه أن يفتح فمه، ووضع السماعة بسرعة على صدره وظهره، وكرر، إنها الانفلونزا، وأنت محظوظ، كان يمكن أن تكون ذات الرئة، ولكنها انفلونزا، ثلاثة أيام من الراحة كبداية، وبعد ذلك سنرى. وكان قد جلس إلى المنضدة ليكتب الوصفة عندما فتح باب الاتصال مع المحفوظات، وكان مغلقاً دون إغفال، وظهر منه المدير، مساء الخير يا دكتور، الأصح أن تقول مساء الشر أيها المدير، فلو كان مساء خير، لكنْتُ جالساً في عيادي مستريحاً، بدلاً من الخروج إلى هذه الشوارع في هذا الجو التعس، كيف حال مريضنا، سأله المدير، وردّ عليه الطبيب، لقد منحته استراحة لثلاثة أيام، إنها انفلونزا فقط. ولكنها لم تكن انفلونزا فقط في تلك اللحظة. فدون جوزيه، المتذثر حتى أنفه، كان يرتعش كما لو أنه يعاني نوبة ملاريا، إلى حد أن السرير الحديدي الذي يرقد عليه كان يهتز، بالرغم من أن الارتفاع، الذي لا يمكن كبحه، لم يكن بسبب الحمى، وإنما بسبب نوع من الرعب، بسبب ارتباك شامل في الروح،

فقد كان يفكر، الرئيس هنا، الرئيس في بيتي، وهو الرئيس الذي سأله، كيف تشعر، إنني أفضل حالاً يا سيد، هل تناولت الأقراص التي أرسلتها إليك، أجل يا سيد، وهل أفادتك، أجل يا سيد، ستتوقف الآن عن تناولها وتبداً بتناول الأدوية التي وصفها لك الطبيب، حاضر يا سيد، اللهم إلا إذا كان الدواء نفسه، دعني أر، أجل، انه الدواء نفسه، إضافة إلى بعض الحقن، سأتولى أنا أمر إحضارها. لم يكن دون جزئه يصدق ما هو أمام عينيه، وأن الشخص الذي يطوي الوصفة الطبية ويحفظها بعناية في جيده هو فعلاً رئيس المحفوظات العامة. فالرئيس الذي تعلم معرفته بصعوبة لا يمكن له أن يتصرف بهذه الطريقة، ولا أن يأتي شخصياً للاهتمام بحالته الصحية، وأما إمكانية أن يكون هو نفسه راغباً في أن يتولى شراء أدوية كاتب بسيط فكان أمراً غير معقول. ستحتاج بعد ذلك إلى ممرض لزرق الحقن، تذكر الطبيب الأمر تاركاً المعضلة لمن هو مستعد وقدر على حلها، وليس للشيطان التعس المصاب بالأنفلونزا، الذي يرتجف من الهزال، وذى اللحية الشائبة التي تبرز قليلاً، وكما لو أن كل الشقاء المتبدى في البيت غير كاف، لتضاف إليه تلك البقعة من الرطوبة في الأرضية التي يشير كل شيء إلى أن سببها هو عطل في التمديدات الصحية، يا لأحزان الحياة التي يمكن للطبيب أن يرويها، لولا اضطراره إلى الحفاظ على أسرار المهنة، ولكنه أجهز على أفكاره بالقول، ولكنني أمنعك من الخروج إلى الشارع وأنت في هذه الحالة، فقال المدير، أنا سأتولى أمر كل شيء يا دكتور، سأتصل بممرض المحفوظات من أجل زرق الإبر، وقال الطبيب، لم يعد هناك مدبرون كثيرون مثل حضرتك، هز دون جزئه رأسه بحركة خفيفة، وكان ذلك هو أقصى ما يستطيع عمله، إنه مطبع ومنضبط، أجل، وقد كان كذلك على الدوام، وهو فخور إلى حد ما بأنه كذلك، ولكنه ليس دنيئاً ولا ذليلاً، وهو لن يتلفظ

مطلقاً، على سبيل المثال، بتملقات بلهاه من نوع، إنه أفضل رئيس للمحفوظات، ليس هناك في العالم من هو أفضل منه، لقد انكسر القالب بعد صنعه، من أجله، وعلى الرغم مما ينتابني من دوار، لا أتوع عن تسلق ذلك السلم اللعين. لدى دون جوزيه الآن قلق آخر، جزع آخر، إنه يتمنى أن ينصرف الرئيس، أن ينسحب قبل الطبيب، فهو يرتجف متخيلاً نفسه على انفراد مع المدير، تحت رحمة أسئلته المحتومة، ماذا تعني بقعة الرطوبة، ما هي تلك البطاقات التي كانت على الكوميدينو، من أين جئت بها، أين خبأتها، من هي صاحبة الصورة. أغمض عينيه، مضفيأ على وجهه إمارات ألم لا يطاق، وبدأ كما لو أنه يتосل، دعوني بسلام في فراش آلامي، ولكنه سرعان ما أعاد فتح عينيه، مذعوراً، حين قال الطبيب، سأواصل جولتي على مرضي، اتصلوا بي إذا ما ساءت الحالة، ويمكنا على أي حال أن تكون مطمئنين إلى حد ما، فليس في الأمر نزلة رئوية، سنبقيك على اطلاع على الوضع يا دكتور، قال المدير ذلك وهو يرافق الطبيب. أعاد دون جوزيه إطباق عينيه، وسمع إغلاق الباب، فكر، لقد أزفت الساعة. راحت خطوات الرئيس الثابتة تقترب، إنها تقدم باتجاه السرير، توقفت، إنه ينظر إلى الآن، ولم يدر دون جوزيه ما يمكنه أن يفعله، يستطيع التظاهر بأنه قد غفا، غفوة خفيفة كالتى ينامها مريض متعب، ولكن ارتعاش رموشه سيفضح الزيف، ويمكنه كذلك، بصورة جيدة أو سيئة، أن يتصنع حشرجة محزنة من حنجرته، من تلك الحشرجات التي تمزق نياط القلب، ولكن حالة انفلونزا عادية لا تسمح بكل ذلك، ولا يمكن لهذه الخدعة أن تتطلبي إلا على أبله، وليس على هذا المدير الذي يعرف ملكوت كل ما هو مرئي وما هو غير مرئي في الألاعيب والنظمات. فتح عينيه وكان هو هناك، على بعد خطوتين عن السرير، دون أية تعبيرات محددة على وجهه، كان يتأنله ببساطة. عندئذ ظن

دون جوزيه بأن الفكرة المنقذة قد واتته، عليه أن يشكر الاهتمام الذي أحاطته به المحفوظات العامة، شكر مرفق بامتداح، بإطراء مفخم، فربما يتمكن بهذه الطريقة من التملص من الأسئلة، ولكنه في اللحظة التي كان يوشك أن يفتح فمه لكي يلفظ الجملة المعهودة، لست أدرى كيفأشكركم، أدار الرئيس ظهره في الوقت الذي نطق فيه بكلمة، كلمة بسيطة، اعتن بنفسك، كان ذلك ما قاله بنبرة فيها من التازل بقدر ما فيها من إيقاع آخر، وأفضل الرؤساء وحدهم يستطيعون الجمع بانسجام بين هذين الشعورين بالغي التنافر، ولهذا السبب ينعمون باحترام وتوقير مرؤوسيهم. حاول دون جوزيه أن يقول، على الأقل، شكراً جزيلاً يا سيدى، ولكن الرئيس كان قد خرج مغلقاً الباب وراءه بلطف، مثلاً يستدعي عمل ذلك في غرفة مريض. كان رأس دون جوزيه يؤلمه، ولكن ذلك الألم لم يكن شيئاً يذكر إذا ما قارناته بالهيجان الذي يعتمل في داخله. فقد كان دون جوزيه في حالة من التشوش إلى حد أن أول حركة قام بها بعد خروج المدير هي دس يده تحت الفراش ليتأكد من أن البطاقات ما زالت هناك. ثم كانت حركته الثانية أشد إهانة للحس العام، ذلك أنه نھض من السرير وأدار المفتاح دورتين في باب الاتصال بالمحفوظات، مثل من يضع دعائيم لباب بيته بعد أن تعرض البيت للسطو. أما العودة إلى الاضطجاع فكانت حركته الرابعة، لأن الحركة الثالثة كانت في رجوعه نحو السرير مفكراً، وماذا لو خطر للرئيس أن يعود ثانية، في مثل هذه الحالة يقتضي التعقل، من أجل تجنب الشكوك، ترك الباب مغلقاً فقط. من المؤكد أنه إذا كان دون جوزيه يتلقى نسمة تلقين من جهة فإنه يتلقى ريعاً عاصفة من الجهة الأخرى.

عندما حضر المرض كان الليل قد حلّ. وتتفيدا للأوامر التي تلقاها من المدير، أحضر معه أقراص الدواء وأمبولات الحقن التي

وصفها الطيب، كما أحضر معه فضلاً عن ذلك، وهو ما فاجأ دون جوزيه، لفافة وضعها بكل حذر على الطاولة قائلاً، مايزال ساخناً، وأرجو لا أكون قد دللت منه شيئاً، وهو ما يعني أن اللفافة تحتوي على طعام، وهذا ما أكدته كلمات المرض التالية، تناوله قبل أن يبرد، ولكن علينا أن ننتهي من حفتنا أولاً. لم يكن دون جوزيه يحب الحقن، وخصوصاً في وريد الذراع، حيث يضطر دائماً لأن يشيخ ببصره، ولهذا أحس بالمرض عندما قال له المرض إن الوخز ستكون في الألية، هذا المرض هو شخص مهذب، من زمن آخر، معتاد على استخدام لفظة أليتين بدلاً من كلمة ردين كي لا يصدم وساوس السيدات، وقد كاد أن ينتهي به الأمر إلى نسيان التسمية الدارجة، فهو يستخدم كلمة أليه حتى عندما يتعامل مع مرضى لا تعدو كلمة رdf عندهم أن تكون تحفة لغوية قديمة ومضحكة، ويفضلون عليها المرادف الفظ «طيز». الظهور المفاجئ للطعام والإحساس بالراحة لأن وخز الحقنة لن يكون في الذراع، قوضاً دفاعات دون جوزيه، فلم يتذكر ببساطة، أو أنه لم يلاحظ ببساطة أكبر أن ساقى بيجامته ملقطتان بالدم عند مستوى الركبتين، نتيجة مأثره الليلية كمتسلق مدارس. وبدلاً من أن يقول له المرض الذي كان يشهر الحقنة الجاهزة استدر، سأله، ما هذا، فارتدى دون جوزيه عندئذ بسبب هذا الدرس من الحياة إلى إدراك الصلاح الحاسم للحقن في الذراع، وردّ بصورة غريزية، لقد وقعتُ يا لسوء حظك يا رجل، تقع أولاً، ثم تصاب بالانفلونزا بعد ذلك، لحسن الحظ أن لديك هذا المدير، استدر الآن، وبعد ذلك سنلقي نظرة على ركبتيك. لم يكن ينقص دون جوزيه، في وهن الجسد والروح والإرادة، وتشنجه حتى آخر عصب من أعصابه، إلا القليل لينفجر بالبكاء مثل طفل عندما أحس بوخذ الإبرة وبالتسليл البطيء للسائل في العضل، ففكراً، لقد تحولتُ إلى مجرد خرقة، وكان ذلك صحيحاً، فهو مجرد حيوان

بشيء باش مموم، مضطجع على سرير باش في بيت باش، حيث توجد ملابس الجرم الوسخة المخبأة وبقعة رطوبة على الأرض تبدو أنها لن تجف مطلقاً. انقلب على ظهرك، ولنر الآن هذه الجروح، قال المرض ذلك، وقلب دون جوزيه جسده بمشقة، منصاعاً، وهو يئن ويسعل، والآن، بينما هو يميل برأسه إلى الأمام، استطاع أن يرى كيف كان المرض يشمر ساقه بنطال بيعاتمه بطريقهما إلى ما فوق الركبتين، وكيف كان يزيل لصقات الجروح المتسخة، بسكب ماء الأكسجين عليها وزعها شيئاً فشيئاً ويرفق شديد، لحسن الحظ أنه ممرض محترف من الطراز الأول، والحقيقة التي يحملها معه هي صيدلية كاملة للإسعافات الأولية، فيها أدوية لكل شيء تقريباً. عندما اكتشفت الجروح، بدت على وجهه إمارات عدم تصديق التفسير الذي قدمه إليه دون جوزيه، وتحدث فيه عن وقوعه، ودفعته خبرته في الخدوش والخدمات إلى التعليق بقطنة غير واعية، يبدو أنك كنت تحك ركبتيك بجدار يا رجل، لقد قلت لك إنني وقعت، هل أطلعت الرئيس على هذا، ليس لهذا علاقة بالعمل، ويمكن للمرء أن يتغثر دون أن يكون مضطراً إلى إبلاغ رؤسائه بذلك، اللهم إلا إذا وجد المرض، الذي استدعي من أجل زرق حقنة، نفسه مضطراً إلى إجراء علاج إضافي، أنا لم أطلب ذلك، أجل يا سيدي، أنت لم تطلب ذلك في الواقع، ولكنك إذا ما أصبحت غداً بالتهاب خطير بسبب هذه الجروح، فمن الذي سيتحمل المسؤولية، ويُتهم بالإهمال وانعدام الكفاءة المهنية، إنه أنا، أضف إلى ذلك أن الرئيس يحب أن يعرف كل شيء، بالرغم من طريقته في التظاهر بأنه لا يكرث بأي شيء، سأخبره بذلك غداً، أصلحك بحرارة أن تفعل، فهكذا يكون التقرير موثقاً، أي تقرير تعني، تقريري، لا أرى أي ضرورة لذكر جروح بسيطة في تقرير، بل هناك ضرورة لذكر أبسط الجروح، ولكن جراحي، بعد أن تلائم، ستختلف ندوباً تافهة.

تختفي مع مرور الزمن، أجل، الجراح في الجسم تلتئم، أما في التقرير فتبقى مفتوحة دائمةً، لا تلتئم ولا تختفي، لستُ أفهم ما تعنيه، منذ متى وأنت تعمل في المحفوظات العامة، مما قريب سأكمل ستةً وعشرين سنة، وكم رئيساً عاصرت حتى الآن، ثلاثة، بمن فيهم هذا الحالى، يبدو أنك لم تلحظ شيئاً، أي ملاحظة تعنى، ويبدو أنك لم تدرك شيئاً، لستُ أفهم ما الذي ت يريد الوصول إليه، هل صحيح أم غير صحيح أنه ليس لدى الرؤساء إلا قدر قليل من العمل، بل صحيح، والجميع يتحدثون عن ذلك، اعلم إذن أن شغفهم الشاغل، خلال ساعات الفراغ الطويلة التي ينعمون بها، بينما الموظفون الآخرون يعملون، هو جمع المعلومات عن المرؤوسين، كل أنواع المعلومات، وهم يفعلون ذلك منذ وُجدت المحفوظات العامة، واحداً إثر الآخر منذ الأزل. لم تمر اختلاجة القشعريرة التي انتابت دون جوزيه مرور الكرام دون أن يلحظها المرض الذي سأله، هل انتابتَ قشعريرة، أجل، أصبتُ بقشعريرة، لكي تكون لديكَ فكرة واضحةٌ عما أقوله لك، اعلم إذن أنني يجب أن أضمن حتى هذه القشعريرة في تقريري، ولكنك لن توردها، لا، لن أوردها، وأخمنُ السبب، أخبرني به، لأنه سيكون عليك أن تذكر بأن القشعريرة انتابتني بينما كنتَ تخبرني بأن الرؤساء يجمعون معلومات عن موظفي المحفوظات العامة، وسيُلْحِّ الرئيس عندئذ على معرفة الظروف التي أدت إلى محادثتك معي، وكيف تمكّن ممرض من معرفة مسألة حصرية، وحصرية جداً بحيث لم أسمع بشيء عنها خلال خمس وعشرين سنة من الخدمة في المحفوظات العامة، هناك ميل كبير إلى البوح بالأسرار للممرضين، ولكنه يبقى أقل مما هو للأطباء، اتحاول أن تلمح إلى أن من عادة الرئيس البوح لك بالأسرار، إنه لا يفعل ذلك، ولستُ ألمح إلى أنه يفعل، كل ما هنالك أنني أتلقي أوامر، عليك إذن أن تنفذها وحسب، أنت مخطئ، يتوجب عليّ أن أفعل ما هو أكثر من

تفيدتها، على أن أفسرها، لماذا، لأن هناك اختلافاً بين ما يأمر به وما يرمي إليه، إذا كان قد أمرك بالمجيء إلى هنا، فقد فعل ذلك لكني تعطيني حقنة، هذا هو الظاهر، وما الذي رأيته في هذه الحالة، فضلاً عن ظاهرها، حضرتك لا تستطيع أن تتصور كمية الأشياء التي يمكن اكتشافها من خلال النظر إلى جرح، رؤية هذه الجراح كان مصادفة محضة، ولابد منأخذ المصادفات المحضة بعين الاعتبار على الدوام، فهي تساعد كثيراً، وما هي الأشياء التي اكتشفتها في جراحي، أنك كنت تفرك ركبتيك بجدار، بل إنني وقعت، لقد قلت لي ذلك، معلومة مثل هذه، مع الافتراض بأنها صحيحة، لن تكون ذات نفع كبير للرئيس، ليس من اختصاصي أن تكون نافعة أو غير نافعة، أنا أكفي بملء التقارير، لقد اطلع على إصابتي بالانفلونزا، ولكنه لم يعلم بأمر الجراح في ركبتيك، وهو لم يعلم كذلك بأمر بقعة الرطوبة تلك التي على الأرض، ولكن ليس بأمر القشعريرة، إذا كان لم يعد لديك ما تفعله هنا، فأرجوك أن تصرف، إنني متعب وبحاجة إلى النوم، عليك أن تتناول الطعام أولاً، لا تس ذلك، وعسى لا يكون عشاوك قد برد تماماً بعد هذه المحادثة، يمكن للجسد المدد أن يتحمل الكثير من الجوع، ولكنه لن يستطيع تحمل الجوع كله، هل الرئيس هو الذي أمرك بجلب الطعام لي، وهل تعرف شخصاً آخر يمكنه عمل ذلك، أجل، لو أنه يعرف أين أسكن، ومن هو ذلك الشخص، امراة مسنة تعيش في طابق فوق أرضي، جراح في الركبتين، وقشعريرة مفاجئة وغامضة، وامرأة مسنة في طابق فوق أرضي، الشقة اليمنى، سيكون هذا أهم تقرير في حياتي إذا ما قيض لي أن أكتبها، ألن تكتبها، بل، سأكتبها، لأذكر فقط أنني زرتك حقنة في إلبيك اليسرى، أشكرك على مداواة جراحي، كان هذا هو أفضل ما تعلمته من كل ما لقني إياه، بعد خروج المرض، بقي دون جزئه مضطجعاً بضع دقائق أخرى دون حرراك، محاولاً

استعادة هدوئه وقواه. لقد كان الحوار شاقاً، تخلله الشراك والأبواب الكاذبة المترصدة في كل خطوة، وكان يمكن لأدنى زلة أن تجرجه إلى اعتراف كامل، لو لم تكن روحه متيقظة للمعاني المتعددة في الكلمات التي كان ينطق بها بتروٍ وحذر، وخصوصاً تلك التي تبدو وحيدة المعنى، فلا بد من توخي الحذر في التعاطي معها. فالمعنى والمفزي، على خلاف الاعتقاد السائد، ليسا الشيء نفسه على الإطلاق، فالمعنى يبقى هنا، إنه مباشر، حرفي، صريح، منفلق على نفسه، ويمكن القول إنه أحادي المعنى، بينما لا يمكن للمفزي أن يبقى ساكناً، إنه يفور بمعان ثانية وثالثة ورابعة، باتجاهات شعاعية تأخذ بالانقسام والتفرع إلى أغصان وأفرع إلى أن تغيب عن الأبصار، مفزي كل كلمة هو أشبه بنجمة عندما تأخذ بإطلاق موجات حية عبر الفضاء، وعبر الرياح الكونية، والاضطرابات المفناطيسية، والكروب.

وأخيراً، خرج دون جوزيه من السرير، حشر قدميه في الخف، وليس الروب الذي ينفعه كبطانية احتياطية كذلك في الليالي الباردة. ومع أن الجوع كان يُثقل عليه، فقد فتح الباب ليلاقي نظرة على قاعة المحفوظات. أحس في داخلة بتمزق غريب، بانطباع غياب، وكأن أياماً طويلاً قد انقضت منذ المرة الأخيرة التي كان فيها هناك. ومع ذلك، لم يكن هناك أي تبدل، فقد رأى منضدة الكونتووار الطويلة حيث ينجز طلبات أصحاب المعاملات والوقحين، وتحتها، الأدراج التي تُحفظ فيها بطاقات الأحياء، ويلي ذلك طاولات الكتبة الثمانية، فطاولات المأمورين الأربع، وطاولتا نائب المدير، ثم طاولة المدير الكبيرة وفوقها النور الضاء المتلبي من أعلى، وبعد ذلك خزائن الرفوف الضخمة التي تعلو حتى السقف، والظلمة الأحفورية في الجانب المخصص للأموات. وبالرغم من عدم وجود أحد في المحفوظات العامة، فقد أغلق دون جوزيه الباب بالمفتاح. كان ألم ركبته قد استكان بفضل الضمادات

الجديدة التي وضعها له المرض، وصار يامكانه المشي بصورة أفضل، لم يعد يشعر بتصلب في جراحه. جلس إلى المنضدة، مرق اللفافة، كان فيها وعاءان أحدهما فوق الآخر، الذي في الأعلى فيه حساء، والذي في الأسفل يحتوي على بطاطاً ولحم، وكان كل شيء ما يزال فاتراً. تناول الحساء أولاً بنهم، وبعد ذلك، دون تعجل، أجهز على اللحم والبطاطاً. ما ينجيني هو كون الرئيس على ما هو عليه، غمغم بذلك وهو يتذكر كلمات المرض، فلواه لكنه احترق الآن من الجوع والهجران، مثل كلب ضال. أجل، هذا هو ما ينجيني، كرر القول وكأنه بحاجة إلى إقناع نفسه بما قاله. وكان يشعر بالانتعاش عندما اندس في الفراش، بعد أن مرّ على الركن الذي يستخدمه كحمام. وكان جاهزاً للإسلام للحلب عندما تذكر دفتر الملاحظات الذي روى فيه خطواته الأولى في البحث. سأكتب غداً، قال لنفسه، ولكن هذا الأمر المستعجل الجديد كان ملحاً كالطعام، ولهذا نهض ليبحث عن الدفتر. ثم جلس بعد ذلك في السرير، وهو يرتدي البرنس، ويزرر قميص البيجامة حتى عنقه، ومتدثراً بالبطانيات، واصل رواية القصة من النقطة التي توقف عندها. قال الرئيس، إذا لم تكن مريضاً، فكيف تفسر إذن أداءك السيئ في العمل خلال الأيام الأخيرة، لستُ أدرى يا سيدى، ربما السبب هو أنني أنام بصورة سيئة. وبمساعدة الحمى، واصل الكتابة حتى وقت متقدم من الفجر.

لم تكفه ثلاثة أيام، وإنما احتاج دون جوزيه إلى أسبوع لكي يتخلص من الحمى ويهداً سعاله. واظب المرض على المجيء كل يوم من أجل إعطائه الحقنة وإحضار الطعام إليه، وكان الطبيب يأتي يوماً ولا يأتي في اليوم الذي يليه، ولكن هذه المشابرة الاستثنائية، ونعني مشابرة الطبيب، يجب ألا تقودنا إلى أحكام متعجلة حول الفعالية السائدة المفترضة للخدمات الصحية الرسمية والإسعاف المنزلي، ذلك أنها كانت، بكل بساطة، نتيجة الأمر الصريح الذي أصدره رئيس المحفوظات العامة، عالج لي هذا الرجل يا دكتور وكأنك تعالجني أنا بالذات، إنه مهم. لم يتوصل الطبيب إلى معرفة صائبة لسبب هذه المعاملة التي يوصي بها وتم بوضوح عن تقديم الجميل، خصوصاً وأن الرأي التقويمي الذي عبر عنه الرئيس يفتقر إلى الموضوعية، لأن الطبيب يعرف بيته من خلال إحدى زياراته المهنية، وطريقته المريحة والمحضرة في العيش، وعالم ذلك البيت الداخلي لا يشبه بأي حال الكوخ الفظ الذي يسكنه هذا المدعو دون جوزيه ذو الحلاقة السيئة، والذي لا يملك كما يبدو ملاءات احتياطية للفراش. بلـ، إن دون جوزيه يملك ملاءات، فهو ليس فقيراً إلى هذا الحد، ولكنه رفض بجفاء، لأسباب يعرفها هو وحده، اقتراح المرض عندما عرض عليه أن يسوى له الفراش ويستبدل الملاءات التي ت Ubiquit برأحة العرق والحمى، أقل من خمس دقائق، وسأجعل فراشك ندياً، إنني على ما يرام هكذا، فلا تزعج نفسك، ليس هناك أي إزعاج، إنه جزء من عملي، قلت لك إنني

على ما يرام. لا يمكن لدون جوزيه أن يكشف أمام أي كان أنه يخفي بين الفراش وسطح السرير البطاقات المدرسية لأمرأة مجهولة ودفتر ملاحظات يتضمن قصة اقتحامه للمدرسة التي درست فيها في أيام طفولتها وصباها. يمكن لتخبيئها في مكان آخر، بين ملفات قصاصات المشهورين مثلًا، أن يجعل المعضلة فوراً، ولكن الإحساس بأنه ينزوء عن سر، بجسده بالذات، كان قوياً، بل ومبهجاً، بحيث لا يمكن لدون جوزيه أن يتخلّى عنه. ولكي لا يضطر إلى مناقشة الموضوع مرة أخرى مع المرض، أو مع الطبيب الذي كان قد وجه نظره مؤنثة، وإن لم يتفوّه بأي تعليق، إلى الملاعات المجددة وقطب أنفه أمام الرائحة التي تفوح منها، نهض دون جوزيه في إحدى الليالي، مستجمعاً قوة من الوهن، واستبدل الملاعات بنفسه. ولكي لا يجد الطبيب أو المرض أدنى ذريعة للالحاح على الموضوع، أو لتقديم تقرير للمدير، من يدري، حول إهمال الكاتب المستعصي، دخل إلى الحمام، فحلق ذقنه، واغتسل على أحسن وجه يستطيعه، ثم أخرج من أحد الأدراج بيجامة قديمة، ولكنها نظيفة، واندس ثانية في الفراش. أحس بالرضا وباستعادة القوى إلى حد قرر معه، كمن يلعب مع نفسه، أن يدون في دفتر الملاحظات وصفاً تفصيلياً لكل التفاصيل، تفاصيل النظافة والترتيب والعناية التي أنجزها للتو. إنها العافية التي ت يريد العودة إليه، وهو ما لم يتأنّ الطبيب في إعلانه للمدير، لقد تعافى الرجل، وسيكون بمقدوره بعد يومين آخرين أن يعود إلى العمل دون خطر التعرض لانتكاسة. واكتفى المدير بالقول، حسن جداً، ولكنه قال ذلك بهيئة ساهية، كما لو أنه يفكر في شيء آخر.

لقد شفي دون جوزيه، ولكنه فقد الكثير من وزنه، بالرغم من الخبز والفمامس الذي كان يأتيه به المرض بانتظام، ومع أنه كان يفعل ذلك مرة واحدة في اليوم، إلا أن الكمّية كانت أكثر من كافية للقيام

بأود جسد رجل راشد غير مطالب ببذل أي جهد. ولا بد من الأخذ في الاعتبار مع ذلك التأثير المضني للحمس على الأنسجة الدهنية، خصوصاً عندما لا تكون وفيرة من قبل، مثلما هي الحالة التي لدينا. لم يكن من اللائق في أعراف المحفوظات العامة للسجل المدني إبداء الملاحظات ذات الطابع الشخصي، وخصوصاً تلك التي لها علاقة بالحالة الصحية، ولهذا السبب لم يكن هزال دون جوزيه ومظهره المثير للشفقة محط أي تعليق من جانب زملائه الكتبة أو رؤسائه، ونعني أي تعليق شفوي، ذلك أن نظرات الجميع كانت بلية بما يكفي للتعبير العام عن نوع من الشفقة المزدرية، يمكن لأشخاص آخرين، غير عارفين لعادات المكان، أن يفسروها بصورة خاطئة على أنها نظرات تحفظ رصين وصامت. ولكي يبدي مدى قلقه من التغيب عن العمل عدة أيام، كان دون جوزيه هو أول من وقف في الصباح أمام بوابة المحفوظات، بانتظار مجيء نائب المدير الأحدث عهداً في المنصب، وهو المكلف بفتح الباب، كما أنه المكلف بإغلاقه مع انتهاء العمل في المساء. وكان المفتاح الأصلي، وهو تحفة فنية من عمل نقاش باروكي قديم ورمز مادي للسلطة، لا يعدو مفتاح نائب المدير أن يكون نسخة متقوشة وذليلة منه، بحوزة المدير نفسه الذي لم يكن يستخدمه، في الظاهر، مطلقاً، سواء بسبب وزنه وزخارفه العقدية التي تجعل حمله غير ممكن، أو لأنه لا بد للمدير، وفق بروتوكول المراتب الوظيفية غير المكتوب، إنما الساري منذ أزمنة موجلة في القدم، أن يكون آخر من يدخل المبنى. إن أحد الأسرار العجيبة التي تستحق التقصي فعلاً في حياة المحفوظات العامة، لو لم تستفرق كل اهتمامنا قضية دون جوزيه والمرأة المجهولة، هو كيف يتذرّب الموظفون أمرهم، على الرغم من الازدحامات المرورية التي تضيق بها المدينة، من الوصول إلى العمل دوماً بالترتيب نفسه، الكتبة أولاً، دون تمييز في الأقدمية، ثم نائب المدير الذي يفتح الباب، وبعد ذلك

المأمورون، مع مراعاة الأقدمية، ثم نائب المدير الأقدم عهداً في الخدمة، وأخيراً المدير، الذي يصل عندما يتوجب عليه الوصول، دون أن يقدم تفسيراً لأحد. ولكن الحدث يبقى موثقاً على أي حال.

إحساس الشفقة المزدرية، مثلما قيل من قبل، الذي قوبلت به عودة دون جوزيه إلى العمل، تواصل حتى دخول المدير، بعد نصف ساعة من بدء العمل، ليتبادر على الفور إلى إحساس بالحسد، وهو أمر يمكن تفهمه في نهاية المطاف، ولكنه لم يتبدّل لحسن الحظ في كلمات أو أفعال. وحيث أن النفس البشرية هي مثلاً نعرفها، ولا يمكننا التبجع بأننا نعرفها بالكامل، فلا بد من الانتظار. لقد شاع في المحفوظات في تلك الأيام، عبر بوابات جانبية ووشوشات في الزوايا، خبر اهتمام الرئيس بطريقة غير معهودة بانفلونزا دون جوزيه، ووصول الأمر به إلى إرسال الطعام إليه مع المرض، فضلاً عن الذهاب لزيارتة في بيته مرة واحدة على الأقل، وهي الزيارة التي قام بها في أثناء أوقات العمل، وأمام الجميع، وما لم يُعرف هو إذا ما كانت الزيارة قد تكررت. وهكذا يصير من السهل تصور استكثار العاملين الصامت، دون تمييز في المراتب، عندما توقف المدير بجانب دون جوزيه، حتى قبل توجهه إلى مقعده، وسأله عما إذا كان يشعر بأنه قد استرد عافيته تماماً. وقد كانت الفضيحة أكبر لأنها المرة الثانية التي يحدث فيها ذلك، فالجميع يتذكرون تلك المناسبة الأخرى، ليس منذ زمن طويل، حين سُأله الرئيس دون جوزيه عما إذا كان قد تحسن من الأرق، وكأن أرق دون جوزيه هو مسألة حياة أو موت لانتظام سير العمل في المحفوظات العامة. وبينما هم يكادون لا يصدقوا ما يسمعون، شهد الموظفون محادثة ند لند، سخيفة بكل المقاييس، كان دون جوزيه يقدم الشكر خلالها لطيبة الرئيس، وبلغ به الأمر إلى حد الإشارة بصورة مكشوفة إلى الطعام، وهو ما كان له بالضرورة، في أجواء المحفوظات

الصارمة، وقع البداءة، وما يشبه الفحش، وكان الرئيس يوضح أنه لم يكن بمقدوره تركه مهجوراً تحت رحمة القدر القاسي لمن يعيشون منفردين، دون أن يكون هناك من يقدم له على الأقل فتجانأ من النساء، أو يسوى له ملاعة السرير، وأعلن المدير بمهابة، الوحدة لم تكن بالرفقة الطيبة فقط يا دون جوزيه، فالحزان الكبيرة، والإغواءات الكبيرة، والأخطاء الكبيرة هي على الدوام تقريباً نتيجة بقاء المرء وحيداً في الحياة، دون صديق فطن يمكن طلب النصيحة منه عندما يحدث ما يعكر صفونا أكثر مما هو معهود في بقية الأيام، فرد دون جوزيه، أنا يا سيدى لا أظن أنتي حزين بالمعنى المتعارف عليه لكلمة حزين، ربما كانت طبيعتي كئيبة بعض الشيء، ولكن هذا ليس نقية، أما بالنسبة للإغواءات، فيجب القول إنه لا يمكن لسني ولا لوضعي أن يسمحا لي بالليل إليها، أعني أنتي لا أسعى إليها ولا هي تسعى إلى، ومادا عن الأخطاء، هل تعنى يا سيدى الأخطاء في العمل، إنتي أعني الأخطاء عموماً، أما أخطاء العمل، لا بد أن تنتج عاجلاً أو آجالاً عن العمل، والعمل هو الذي يحلها، أنا لم أسيء إلى أحد قط، بصورة واعية ومتعمدة على الأقل، وهذا كل ما يمكنني قوله لك، ومادا عن الأخطاء بحق نفسك، لا بد أنتي اقترفت الكثير منها، وربما كان هذا هو السبب في كوني وحيداً، لكي تقترب أخطاء أخرى، أخطاء الوحدة فقط يا سيدى. كان دون جوزيه قد نهض، مثلاً يفرض عليه الواجب، لدى اقتراب الرئيس، وأحس فجأة بأن ساقيه تتراخيان، وبأن موجة من العرق تُفرق جسده. شعب وجهه، بينما كانت يداه تبحثان بجزع عن حافة الطاولة، ولكن ذلك الاستناد لم يكن كافياً، فاضطر دون جوزيه إلى الجلوس على الكرسي وهو يتلعثم، اعتذرني يا سيدى، اعتذرني. نظر إليه المدير بملامح لا يمكن سبر غورها استمرت لبضع ثوان ثم توجه إلى مكانه. استدعى نائب المدير المسؤول عن جناح دون جوزيه، وأصدر

إليه أمراً بصوت منخفض، ثم أضاف، بصوت مسموع، دون المرور عبر المأمور، وهو ما يعني أن التعليمات التي تلقاها نائب المدير للتو، موجهة إلى أحد الكتبة، ويتجه عليه بالذات، خلافاً للقواعد المتبعة، أن يتولى تنفيذها. لقد حدث من قبل، عندما أرسل المدير نائبه هذا نفسه ليحمل أقراص الدواء إلى دون جوزيه، أن جرى خرق سلسلة المراتب الوظيفية، ولكن ذلك التجاوز كان بالإمكان تبريره بعدم الثقة في قدرة المأمور المعنى على التنفيذ المرضي للمهمة، وهي لم تكن ترمي إلى حمل الأقراص المضادة للأنفلونزا إلى المريض، بقدر ما تهدف إلى إلقاء نظرة على البيت وإطلاع المدير على ذلك فيما بعد. ويمكن للأمور أن يتقبل تماماً، أجل يمكنه أن يتقبل تماماً، التفسير الذي سيخطر له، بسبب الطقس الشتوي السائد، لنشأ بقعة الرطوبة على الأرض، وربما كان سيعود إلى المحفوظات راضياً عن نفسه بإنجاز واجبه، دون أن ينتبه إلى البطاقات الموضوعة على الكوميدينو، ليقول للرئيس، كل شيء طبيعي. لا بد من القول مع ذلك، بأن نائبي المدير، وهذا منها بصورة خاصة، المتورط في العملية من خلال المشاركة الفعالة التي أستدعي إليها، يدركان بأن تصرف المدير محدد بهدف معين، باستراتيجية، بفكرة مركزية. لا يمكن لهما أن يتصورا فحوى تلك الفكرة وما هو الهدف منها، ولكن تجربتهما ومعرفتهما بشخصية الرئيس تتقول لهما إن كل كلماته وكل تصرفاته في هذه الواقعة تشير بصورة محتملة إلى نهاية ما، وأن دون جوزيه الذي وضع، بارادته أو بفعل ظروف المصادفة، في الطريق، هو أحد أمرئين، فإما أنه لا يعود كونه أداة مفيدة دون وعي، أو أنه، هو نفسه، قضية المدير المفاجئة، وغير المتوقعة بأي حال من الأحوال. أحکام منطقية شديدة التعارض، وأحاسيس بالغة التناقض، جعلت الأمر الصادر، من خلال النبرة التي نُقل بها إلى دون جوزيه، يبدو أقرب بكثير إلى جميل يطلب منه المدير مما هو إلى

التعليمات الواضحة والحاسمة التي أصدرها بالفعل، فقد قال نائب المدير، يرى الرئيس يا دون جوزيه أن حالتك الصحية ليست جيدة إلى حدّ مجبيتك إلى العمل، نظراً للإغماء الذي ألم بك قبل قليل، لم يكن إغماء، ولم يبلغ الأمر حد فقدانك الوعي، بل هو مجرد دوار آني، سواء أكان دواراً أم إغماء، آنثياً أم دائماً، ما تريده المحفوظات العامة هو أن تستردّ عافيتك بالكامل، سأعمل وأنا جالس بقدر ما أستطيع، وخلال أيام قليلة سأكون كما في السابق، يعتقد الرئيس بأنه من الأفضل أن تطلب إجازة لبضعة أيام، ليس العشرين يوماً دفعة واحدة بالطبع، ربما عشرة أيام، عشرة أيام من الراحة، مع تغذية جيدة، واستراحة، والقيام بنزهات قصيرة في المدينة، فلديك الحدائق والمتزهات، والوقت الذي تتفتح فيه الأزهار، إنها نقاوة حقيقة، وباختصار، لن نستطيع التعرف عليك عندما تعود. نظر دون جوزيه مذهولاً إلى نائب المدير، الحقيقة أنه لم يكن بالحوار الذي يدور مع موظف كاتب، إنها خطبة تتم عن شيء من عدم الواقع. من الواضح أن الرئيس يريد منه أن ينصرف في إجازة، وهو أمر بحد ذاته ينم عن مكيدة، ولكنه يكشف في الوقت نفسه عن فلق فريد وغير مسبوق على صحته. لا شيء من هذا يتواافق مع أنماط السلوك المعهودة في المحفوظات العامة، حيث تُحسب مخططات الإجازات بالليميتر، من أجل التوصل، بعد موازنة عوامل لا حصر لها، بعضها لا يعرفه أحد سوى الرئيس، إلى توزيع عادل للوقت المخصص للإجازات السنوية. وإقدام المدير على تجاوز برنامج الإجازات المعدّ للسنة الجارية، وإرسال كاتب إلى بيته دونأخذ ورد، هو أمر لم يُعرف له مثيل من قبل. كان دون جوزيه مضطرباً، وبدا ذلك واضحاً على وجهه. لقد كان يشعر وراء ظهره بنظرات زملائه الحائرة، ويلحظ نفاد صبر نائب المدير المتمامي حيال ما كان يبدو له ترددًا لا مبرر له، وكان على وشك أن يقول حاضر يا سيدي، مثل من ينصاع

بساطة لأمر صادر إليه، عندما أشرق وجهه بالكامل فجأة، فقد انتبه للتو إلى ما يمكن أن تعنيه بالنسبة إليه عشرة أيام من الحرية، عشرة أيام للتحرى دون أن يكون مقيداً إلى عبودية ساعات العمل، إلى أوقات الدوام، أية حدائق وأية متنزهات، وأية نقاهة، فليبارك من اخترع الانفلونزا، وراح دون جوزيه يبتسم وهو يقول، حاضر يا سيدي، كان عليه أن يبدي مزيداً من الرصانة في التعبير، فلا يمكن للمرء أن يعرف مطلقاً ما يمكن لنائب مدير أن يقوله للرئيس، لقد تصرف، في اعتقادي، بطريقة غريبة، فقد أوحى في البداية بأنه حائر، أو أنه لم يفهم جيداً ما قلته له، ثم بدا بعد ذلك مثل من حصل على الجائزة الكبرى في اليانصيب، ولم يعد يبدو أنه الشخص نفسه، هل تظن أنه يلعب، لا أعتقد ذلك، فقد كانت طريقة في الكلام، لقد كان له هدف آخر إذن. وكان دون جوزيه يقول لنائب المدير، الواقع أن هذه الأيام تتاسبني تماماً، لا بد أنأشكر السيد المدير، أنا سأنقل إليه شكرك، ربما يتوجب علي أن أفعل ذلك شخصياً، أنت تعرف جيداً أنها ليست العادة المعمول بها، على الرغم من كل شيء، ونظراً لاستثنائية الحالة، بينما دون جوزيه ينطق بهذه الكلمات، وهي، ببروفراطياً، الأكثر ملاءمة، التفت برأسه إلى حيث يجلس المدير، ولم يكن يتوقع أن يراه ينظر إليه، وأقل من ذلك أن يكون قد أدرك فحوى الحديث برمته، وهو ما أراد أن يؤكده بتلك الإيماءة الحازمة، إنما الفاترة والمعجرفة في الوقت نفسه، من يده، دعك من عبارات الشكر المضحك، قدم طلب الإجازة وانصرف.

كان أول ما اهتم به دون جوزيه عندما صار في البيت هو الملابس المخبأة في المخزن الذي يستخدمه كخزانة. إذا كانت تلك الملابس متتسخة من قبل، فقد تحولت الآن إلى قذارة كاملة، تطلق رائحة نتة مختلطة بأبخنة العفنونة، بل وكانت تظهر طبقة من الطحالب في ثياب

البنطال، ويمكن تصور حزمة ملابس رطبة، سترة، قميص، بنطال، جوارب، ملابس داخلية، كلها ملفوفة بمعطف كان يقطر ماء آنذاك، فكيف يمكن لكل هذا أن يكون بعد أسبوع. دس الثياب كومة واحدة في كيس بلاستيكي كبير، وتأكد من أن البطاقات ودفتر الملاحظات ما زالت مخبأة بين الفراش وسطح السرير، الدفتر عند الرأس، والبطاقات تحت موضع القدمين، وتأكد من أن باب الاتصال مع المحفوظات مغلٌ بالفتح، وأخيراً، منهوكاً إنما مطمئن الروح، خرج للذهاب إلى مصيف قريبة كان زبوناً لها، وإن لم يكن من زبائتها الموظبين. لم تستطع المستخدمة، أو أنها لم تشا، كبح نفسها من إبداء ملامح التأييد عندما أفرغت وبعثرت محتويات الكيس فوق منضدة الكونتور، المعدنة، إذا لم تكن هذه الملابس قد غمست في الطين فعلاً، فإنها تبدو كذلك، لقد أصبحت تقريباً، صمم دون جوزيه، وهو مضطرب إلى الكذب، أن يفعل ذلك محترماً منطق الاحتمالات، منذ أسبوعين، بينما كنت أحمل هذه الملابس لتنظيفها، تمزق الكيس وسقطت كلها على الأرض، وكان ذلك في مكان موحل بسبب الحفريات في الشارع، وتذكرت بأن المطر هطل بغزارة في تلك الأيام، ولماذا لم تُحضر الملابس فوراً، لأنني سقطت طريح الفراش مصاباً بالانفلونزا، وكان الخروج من البيت مجازفة، فقد أصاب بالتهاب رئوي، سيكلفك تنظيف هذه الملابس سعراً أعلى بكثير، لأننا سنضيعها في الفسالة مرتين، ليس أمامنا من مخرج، وهذا البنطال، انظر بأية حال تركت هذا البنطال، لا أدرى إذا ما كنت تريد حقاً أن أنظفه، انظر إلى ركبتيه، يبدو وكأنك كنت تحكمهما بجدار. لم يكن دون جوزيه قد انتبه إلى الحالة المزرية التي صار إليها بنطاله البائس بعد عملية التسلق، فقد كان مكسوطاً عند الركبتين، مع وجود تمزق صغير في إحدى ساقيه، وهذا ضرر جدي بالنسبة إلى شخص مثله، لا يملك الكثير من الملابس. سألهما، لا

توجد طريقة لإصلاحه، الإصلاح ممكّن، وهذا يتطلّب إرساله إلى رفاعة، أنا لا أعرف أي واحدة، يمكننا أن نتولى ذلك، ولكن عليك أن تعلم أن الكلفة لن تكون رخيصة، فالرفاّءات يتقاضين أجراً عالياً، ولكن ذلك سيكون في جميع الأحوال أفضل من بقائي دون بنطال، يمكنك أن ترقصه، بنطال مرقع لا يمكن استخدامه إلا في البيت، ولكنه لا ينفع أبداً للذهاب إلى العمل، طبعاً، معكَ حق، إنني موظف في المحفوظات العامة للسجل المدني، آه، حضرتك موظف في المحفوظات، قالت مستخدمة المصيّبة ذلك بنفمة جديدة من صوتها تم عن التوفير، ورأى دون جوزيه أنه من الأفضل أن يتجاهلها، نادماً لأنّه تهور بالتكلّم لأول مرة عن مكان عمله، فلص السطو الليلي المحترف بصورة جديدة لا يتجلّل موزعاً آثاره، فلنصور أن هذه المستخدمة في المصيّبة متزوجة من المستخدم في محل الخردوات الذي اشتري منه دون جوزيه قطاعه الزجاج أو مستخدم محل الجزاره حيث اشتري الشحم، وقد يحدث في الليل، في إحدى تلك المحادثات التافهة التي يقضي بها الأزواج والزوجات سهراتهم، تخرج فجأة في السياق هذه الأحداث الصغيرة من الحياة التجارية اليومية. ولكن لا يبدو أن ثمة خطراً هنا على أي حال، اللهم إلا أن تكون هناك نوايا خفية بوشایة دنيئة في ما تقوله المستخدمة، وترفقه بابتسمة لطيفة، فهي ستتقاضى في هذه المرة سعراً استثنائياً، وستتولى المصيّبة دفع أجور الرفاعة، هذه لفتة شخص حضرتك بها لأنك موظف في المحفوظات، قالت محددة. شكرها دون جوزيه بتهذب، ولكن دون تفحيم، وانصرف. كان متضايقاً. فهو يخلف آثاراً كثيرة في المدينة، ويتحدث مع أشخاص كثيرين، ليس هذا هو نمط التحريات الذي كان قد تخيله، وحقيقة القول إنه لم يكن قد تخيل أي شيء، فهذه الفكرة خطرت له الآن، فكرة البحث عن المرأة المجهولة والعثور عليها دون أن يكون بإمكان أحد الانتباه إلى نشاطاته، كما لو أن

الأمر يتعلق بالأمرئي يبحث عن لامرئي آخر. وبدلاً من هذا السر المغلق، هذا الغموض المطلق، صار هناك شخصان، امرأة الزوج الفيور وسيدة الشقة اليمني في الطابق فوق الأرضي، مطلعين على ما يفعله، وهذا بحد ذاته يشكل خطراً، فلنفترض مثلاً أن أيهما، وبنية المساعدة الحميدة في البحث، مثلما هو واجب المواطنين الصالحين، حضرت إلى المحفوظات في غيابه، أريد التحدث مع دون جوزيه، دون جوزيه ليس في الخدمة، إنه في إجازة، آه، يا للأسف، فقد جئت بمعلومة مهمة حول الشخص الذي يبحث عنه، أي معلومة، وأي شخص، دون جوزيه لا يرغب في مجرد معرفة ما سيأتي بعد ذلك، بقية الحديث بين امرأة الزوج الفيور والمأمور، لقد وجدت تحت لوح خشبي مفلت في غرفة نومي على يوميات (diario)، تعنين جريدة، لا يا سيدى، يوميات من تلك التي يحب بعض الناس كتابتها، أنا أيضاً كانت لدى يوميات قبل زواجي، وما هي علاقتنا نحن بهذه القضية، فتحن في المحفوظات لا نهتم إلا بمعرفة ميلاد الناس وموتهم، ربما كانت المذكرات لأحد أقرباء الشخص الذي يتحرى عنه دون جوزيه، ليست لدى معلومات عن أن دون جوزيه يتحرى عن أي شخص، وهذه المسألة على أي حال ليست من اختصاص المحفوظات العامة، فالمحفوظات العامة لا تتدخل في الحياة الخاصة لموظفيها، ليست مسألة خاصة، فقد قال لي دون جوزيه إنه يمثل المحفوظات، انتظري لحظة، سأستدعي نائب المدير، ولكن عندما اقترب نائب المدير من منضدة الكونتووار كانت السيدة المسنة قاطنة الشقة اليمني في الطابق فوق الأرضي تستعد للمغادرة، فقد علمتها الحياة بأن أفضل طريقة لحماية الأسرار الخاصة هي في احترام أسرار الغير، عندما يرجع دون جوزيه من إجازته، أرجوك أن تخبره بأن عجوز الشقة اليمني في الطابق فوق الأرضي جاءت في طلبه، ألا تريدين ترك اسمك، ليس

ضرورياً، فهو يعرف من أكون. كان بإمكان دون جوزيه أن يزفر براحة، فسيدة الشقة اليمني من الطابق فوق الأرضي هي التكتم مجسداً، فهي لن تخبر نائب المدير أبداً بأنها تلقت للتو رسالة من ابنتها في العماد، وفكر دون جوزيه، لقد قلب الانفلونزا رأسى، فما هذه إلا تخيلات لا يمكن لها أن تحدث، فليس هناك مذكرات مخبأة تحت خشب الأرضية، ولن يخطر لها الآن، بعد صمت كل تلك السنوات، أن تكتب رسالة إلى عرابتها، ولحسن الحظ أن العجوز تمنتت بالحس السليم ولم تذكر اسمها، إذ يكفي المحفوظات العامة أن تمسك بطرف هذا الخيط لتكتشف كل شيء خلال وقت قصير، البطاقات المستسخة، تزييف وثيقة التكليف، وسيكون ذلك سهلاً عليهم مثل سهولة من يجمع أجزاء لوحة مفكرة وهو يملك رسمًا كاملاً لها أمام ناظريه. توجه دون جوزيه إلى البيت، ولم يشا في هذا اليوم الأول أن يعمل بالنصائح التي قدمها إليه نائب المدير، عن التزه، والذهاب إلى الحدائق للتعرض للشمس الجيدة على وجهه الشاحب النافق، لكي يستعيد، بكلمة واحدة، قواه التي استنزفتها الحمى. إنه بحاجة إلى إقرار الخطوات التي يناسبها اتخاذها ابتداء من الآن، ولكنه يحتاج قبل كل ذلك إلى تهدئة قلق يراوده. هل سيترك بيته الصغير تحت رحمة المحفوظات، متتصقاً بالجدار العملاق الذي يبدو وكأنه على وشك أن يبتلعه. لا بد أن هناك أثراً من الحمى ما يزال في رأسه المشوش لكي يفكر، فجأة، بأن ذلك هو ما حدث لبيوت الموظفين الأخرى، وأن المحفوظات قد افترستها جميعها لكي تُسمّن جدرانها. غذ دون جوزيه الخطى، فهو لا يريد حتى أن يتصور حجم النكبة إذا ما وصل ووجد أن البيت قد اختفى، وإذا ما اختفت معه البطاقات والدفتر وضاعت هباء جهوده التي بذلها طوال أسابيع، وذهبت مغامراته أدراج الرياح بسبب ما حدث. وستكون قد اجتمعت حشود من الفضوليين ليسألوه عما إذا كان قد فقد شيئاً ثميناً

في الكارثة، وسيجيب بنعم، بعض الأوراق، فيسألونه من جديد، أهي أسهم، سندات، وثائق ديون، فهذا هو ما يفكر فيه الناس العاديون الذين بلا أفق روحي، أفكارهم تتركز على المصالح والأرباح المادية، ويعود هو إلى القول لهم نعم، ولكنه يضفي في ذهنه معاني أخرى على هذه الكلمات، إنها الأسهم التي اقترفها، والسندات التي تولاهما، ووثائق الديون التي كسبتها.

كان البيت ما يزال في مكانه، ولكنه بدا أصفر بكثير، أو أن المحفوظات هي التي تضخمت خلال الساعات الأخيرة. دخل دون جوزيه وهو يحنى رأسه، مع أنه لم يكن بحاجة إلى الانحناء، فأمسكت الباب الخارجي ما زالت على ارتفاعها المعهود، وهو لم ينم جسدياً، كما يبدو واضحاً، بفعل الأسهم والسندات والديون. ذهب ليتثبت بجانب باب الاتصال، ليس لأنه يأمل في سماع صوت ما في الجانب الآخر، فالعادة في المحفوظات هي العمل بصمت، وإنما ليهدئ مشاعر الشك المضطربة التي تشغله منذ أن أمره الرئيس بالتقدم بطلب إجازة. ثم رفع بعد ذلك فراش السرير، وتناول البطاقات ورتبتها حسب تسلسلها التاريخي على الطاولة، من الأقدم إلى الأحدث، ثلاث عشرة قطعة كرتونية مستطيلة، متواالية وجوه تحول من طفلة صغيرة إلى طفلة كبيرة، من بدء مرأهقة إلى ما يشبه امرأة تقريباً. خلال تلك السنوات بدللت الأسرة بيتهما ثلاث مرات، ولكنها لم تبتعد في تنقلها كثيراً إلى حدّ الاضطرار إلى استبدال المدرسة. ليس هناك ما يستحق الانهيار في تدبير خطط عمل معقدة، فالشيء الوحيد الذي يمكن لدون جوزيه عمله الآن هو الذهاب إلى عنوان المنزل المدون في البطاقة الأخيرة.

ذهب في اليوم التالي صباحاً، ولكنه قرر عدم الصعود لسؤال شاغلي البيت الحاليين ومستأجري البناء الآخرين عما إذا كانوا يعرفون الطفلة صاحبة الصورة. من المؤكد أنهم سيردون عليه بأنهم لا يعرفونها، وأنهم يعيشون هنا منذ وقت قصير أو أنهم لا يتذكرون، تفهم الأمر، فالناس يذهبون ويجهلون، والحقيقة أنت لا تذكر شيئاً عن هذه الأسرة، ليس هناك ما يستحق عناء تقليل الدماغ، وإذا كان هناك من سيقول نعم، يبدو له أن لديه فكرة غامضة، فإنه سيضيف على الفور بأن علاقاتهم لم تكن تتعدي حدود العلاقة الطبيعية بين أناس مهذبين، وسيلُج دون جزئيه، ألم تعد تراهم، لم أرهم قط، منذ أن رحلوا لم أعد أراهُم قط، يا له من أمر مؤسف، لقد أخبرتك بكل ما أعرفه، يؤسفني أنت لم تستطع أن تكون أكثر فائدة للمحفوظات العامة. الحظ الذي حالفه في العثور منذ البداية تحديداً على سيدة في الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي جيدة الاطلاع، وقريبة جداً من المصادر الأصلية للقضية، لا يمكن له أن يتكرر مرتين، ولكن دون جزئيه سيكتشف بعد وقت طويل، عندما لا يعود شيء مما يروي هنا بذاته، بأن الحظ السعيد كان حليفه بصورة عجيبة في هذه الحالة، ووفر عليه عواقب وخيمة. فهو لم يكن يعرف بأن أحد ساكني البناء هو بالتحديد، وبفعل مصادفة شيطانية، أحد نائبِي المدير في المحفوظات، ويمكن له أن يتغيل المشهد الرهيب بسهولة، سيطرق رجلنا الواثق دون جزئيه الباب، عارضاً البطاقة، وربما وثيقة التكليف المزيفة، فتقول له المرأة التي

تستقبله لتوقيع به، عد لاحقاً، عندما يكون زوجي في البيت، فهذه الأمور هي ضمن مجال اختصاصه، وسيرجع دون جوزيه لاحقاً، بقلب مفعم بالأمال، فيصطدم بنائب مدير غاضب يُصدر على الفور أمراً بالسجن، فأنظمة المحفوظات العامة للسجل المدني، ونقول هذا بالمعنى الدقيق وليس بالمعنى المجازي، لا تقبل التصرفات الطائشة والارتجالية، والأسوأ أنتا لا نعرف تلك الأنظمة كلها. لقد نجا دون جوزيه، دون أن يعرف ذلك، من أكبر كارثة في حياته الوظيفية، حين قرر هذه المرة، كما لو أن ملاكه الحارس قد نصحه هامساً في أذنه بإلحاد، التوجه في تحرياته نحو المتاجر القريبة. اكتفى إذن بالنظر إلى نوافذ البيت الذي عاشت فيه المرأة المجهولة في طفولتها، ولكي يدخل على أحسن وجه في جلده كمتحرٍ حقيقي، تخيل أنه يراها تخرج حاملة حقيبة كتبها لتذهب إلى المدرسة، وتسرير حتى موقف الحافلة وتنتظر هناك، لا يجدر به أن يلحق بها مقتفياً أثرها خطوة خطوة، فدون جوزيه يعرف جيداً إلى أين هي ذاهبة، ولديه الأدلة القاطعة على ذلك مخبأة بين الفراش وسطح السرير. بعد ربع ساعة من ذلك خرج الأب، إنه يتخد الاتجاه المعاكس، هذا هو سبب عدم مراقبته ابنته حين تذهب إلى المدرسة، اللهم إلا إذا كان هذا الأب وهذه الابنة لا يعبان السير معاً ويتردعان بهذه الحجة، بل ربما لا يتذرعان، فهناك نوع من الترتيب المضمر بينهما، حتى لا ينتبه الجيران إلى عدم مبالغاتهم المتبادل. لم يعد أمام دون جوزيه الآن إلا التعلّي بقليل من الصبر، وانتظار خروج الأم من أجل المشتريات، كما هي عادة كل الأسر، وهكذا سيتاح له أن يعرف إلى أين يوجه تحرياته، أقرب محل تجاري، على بعد ثلاثة عمارات، هي تلك الصيدلية، ولكن الشك خامر دون جوزيه، فور دخوله، بإمكانية الحصول على أي معلومة مفيدة هنا، فقد كان المستخدم رجلاً شاباً وجديداً في محل، وقد قال له هو نفسه، لستُ أعرفها، إنني

أعمل هنا منذ سنتين فقط. ولكن دون جوزيه لن يفقد حماسه بهذه السرعة، فقد قرأ من الجرائد والمجلات أكثر مما هو كاف، إضافة إلى التجربة التي منحته أيام الحياة، لكي يدرك أن هذه التحريرات، التي تجري على الطريقة القديمة، تكلف جهداً كبيراً، وعليه أن يمشي ويمشي، أن يذرع شوارع ودروبأ، ويصعد دراجاً، وبطرق أبواباً، وينزل الأدراج، ويوجه السؤال نفسه ألف مرة، ويتلقى الإجابات نفسها، وبالنسبة المتحفظة نفسها على الدوام تقريباً، لست أعرفها، لم أسمع شيئاً عن هذه الشخصية قط، ونادرًا ما يحدث أن يأتي من الداخل صيدلي أكبر سنًا سمع الحديث، ويكون رجلاً فضوليًّا، فيسأل، ما الذي ترغب فيه، إنني أبحث عن شخص، يرد دون جوزيه بذلك في الوقت الذي يمد يده إلى جيب سترته الداخلية ليعرض وثيقة اعتماده. لم يتوصل إلى إكمال الحركة، فقد أوقفه قلق مباغت، ولكن لم يكن القلق في هذه المرة من صنع أي ملاك حارس، فما جعله يعيد يده هو نظره الصيدلي، فهي نظرة تبدو أشبه بخنجر، أو أشبه بمثقب، لا يمكن لأحد تحديد ذلك، فبذلك الوجه المجدد، وذلك الشعر الشائب، تكون محصلة النظر بتبنك العينين هي التزام أشد المخلوقات سذاجة جانب الحذر، وربما هذا هو السبب في عدم قدرة الصيدلي على إشباع فضوله قط، فكلما أراد معرفة المزيد، تضاءل ما يخبرونه به. وهذا ما حدث مع دون جوزيه. فلم يُخرج التكليف المزيف ولم يقل إنه آت من المحفوظات العامة، واكتفى بإخراج البطاقة المدرسية الأخيرة لفتاة من جيب آخر، وقد خطر له أن يحملها معه في ساعة سعد، مدرستنا بحاجة إلى العثور على هذه السيدة بسبب شهادة لم تأت لتأخذها من السكرتارية، وكان دون جوزيه يشهد بتلذذ، بل وبحماس تقريباً، ممارسته لقدراته الأخلاقية التي لم يتصور قط أنه يمتلكها، واثقاً من أنه لم يوقع نفسه في شرك سؤال الصيدلي، وهل تبحثون عنها بعد انقضاء كل هذه

السنوات، فرد عليه، ربما لن تكون مهتمة بها، ولكن واجب المدرسة يقتضي بذل كل الجهد الممكنة لتسليم الشهادة لصاحبها، وكنتم تنتظرون طوال هذا الوقت أن تأتي هي بنفسها، إذا أردت الحقيقة، فإن دائرة الخدمات لم تلحظ الواقعة، لقد كان سوء انتباه مؤسفاً من جانبنا، خطأ ببرور قاططاً، إذا ما أردنا تفسيره بطريقة ما، ولكن هناك على الدوام متسع لإصلاح أي زلة، إذا ما كانت السيدة قد ماتت، فلن يكون ثمة متسع، لدينا أسباب للاعتقاد بأنها ما تزال على قيد الحياة، وكيف ذلك، بداعا بالاستفسار في السجل، وقد توخي دون جوزيه الحذر بتجنب النطق بكلماتي المحفوظات العامة، وتجنب بفضل ذلك، في تلك اللحظة على الأقل، أن يتذكر الصيدلي بأن هناك، بين زبائنه، نائباً لمدير المحفوظات العامة، وأنه يعيش على بعد ثلاث بوابات بذلك الاتجاه. لقد نجا دون جوزيه للمرة الثانية من العقوبة القصوى. صحيح أن نائب المدير لا يدخل إلى الصيدلية إلا في أوقات متباعدة، فمثل هذه المشتريات، كما هو شأن غيرها من المشتريات، تقوم بها زوجته، باستثناء الواقيات الذكرية التي تدفع الوساوس الأخلاقية نائب المدير لشرائها من حي آخر، ولهذا لم يكن من السهل تصور أن تدور محادثة بين نائب المدير والصيدلي، مع أنه يجب عدم استبعاد حدوث حوار آخر، كأن يقول الصيدلي لزوجة نائب المدير، حضر إلى هنا موظف مدرسي للبحث عن شخص كان يعيش، منذ زمن، في البيت الذي تعيشون فيه الآن، وقد أخبرني في إحدى اللحظات بأنه استفسر في السجل، ولكنني، وبعد مغادرته، وجدت من المستغرب أن يقول السجل بدلاً من المحفوظات العامة، يبدو لي أنه يخفي شيئاً ما، بل إنه مدّيده في إحدى اللحظات إلى جيب سترته الداخلية وكأنه يستعد ليعرض علي شيئاً، ولكنه ندم على ذلك وصحح فعلته، فأخرج من جيب آخر بطاقة تسجيل في المدرسة، وأنا أحاو تقليل الأمر في رأسي الآن

لأتصور ما الذي يمكن أن يكونه ذلك الشيء، أظن أنه يجب علي أن أتحدث في الأمر مع زوجك، فلا يمكن لأحد أن يعرف ما الذي ينويه، وسط الشرور التي تذرع هذا العالم، ربما هو الرجل نفسه الذي كان يقف أول أمس على الرصيف، وينظر إلى نوافذ بيته، فهو شخص متوسط العمر، أصغر مني سناً بقليل، وبيدو على وجهه أنه كان مريضاً قبل وقت قصير، إنه هو نفسه، هذا ما كتت أظنه، حاسة شمي لم تخني قط، ولم يولد بعد من يمكنه أن يخدعني ويبعيوني قطعاً على أنه أربب، من المؤسف أنه لم يطرق باب بيتي، لأنني كنت طلبت منه أن يرجع في نهاية المساء، عندما يكون زوجي في البيت، وكنا عرفنا الآن من هو هذا الشخص وما الذي يسعى إليه، سأبقى متيقظاً فلعله يرجع مرة أخرى إلى هنا، وأنا لن أنسى أن أخبر زوجي بالقصة. ولم تس فعلأً، ولكنها لم تخبره بها كاملة، فقد أسقطت من القصة، دون أن تدري، تفصيلاً مهماً، ربما هو الأكثر أهمية من كل التفاصيل، فهي لم تقل إن الرجل الذي يتسلك حول البيت كان مريضاً قبل وقت قصير. فنائب المدير المعتمد على ربط الأسباب بالنتائج، لأن هذا هو الجوهر الحقيقي لنظام القوى الذي يحكم منذ بداية الأزمنة المحفوظات العامة، هناك حيث كل شيء كان، ومازال، وسيبقى إلى الأبد مرتبطاً بكل شيء، ذاك الذي ما يزال حياً بذاك الميت، وذاك الذي يحتضر بذاك الذي يولد، كل الكائنات بكل الأشياء، وكل الأشياء بكل الأشياء، حتى عندما يبدو أنه ليس ثمة ما يجمع، بينهم وبينهن، إلا ذاك الذي يفرقهم في الظاهر، إلا أنه ما كان لنائب المحافظ اللبيب إلا أن يتذكر دون جوزيه، ذلك الكاتب الذي بدأ في الآونة الأخيرة، رغم رأفة الرئيس التي لا تفسير لها، يتصرف بطريقة شديدة الغرابة. ومن هناك إلى حلٌّ طرف خيط من اللفافة، ثم اللفافة كلها، لا توجد سوى خطوة واحدة. وهو ما لن يحدث، مع ذلك، ولن يعودا لرؤيه دون جوزيه في تلك الأماكن. فمن

بين المتاجر العشرة من مختلف فروع التجارة التي دخلها لتجيئه الأسئلة، بما فيها الصيدلية، وجد في ثلاثة منها فقط من يتذكر الفتاة وأبويها، فالصورة التي على البطاقة المدرسية تساعده كثيراً في التذكر بالطبع، ومن المحتمل أن الأشخاص الذين استجوبهم أرادوا أن يبدوا لطفاء، وألا يدخلوا الرجل المصاب بانفلونزا لم يشف منها تماماً كما يبدو على وجهه، والذي يحدثهم عن شهادة مدرسية لم تسلم لصاحبتها منذ عشرين سنة. عندما وصل دون جوزيه إلى بيته، كان مستخدماً ومثبط العزيمة، فمحاولته الأولى في هذه المرحلة الجديدة من التحري لم توفر له أي بداية لطريق يمكنه أن يسلكه، بل على العكس، إذ يبدو أنها وضعته أمام جدار لا يمكن تجاوزه. ارتمى الرجل المسكين على السرير سائلاً نفسه لماذا لا يفعل ما قاله له الصيدلي بتكتم ساخر، لو كنتُ مكانك لحللت المشكلة، كيف، سأله دون جوزيه، بالنظر في دليل الهاتف، فهذه هي أسهل طريقة للعثور على شخص في الأزمنة الحديثة، شكراً لاقتراحك، ولكننا فعلنا ذلك، واسم هذه السيدة غير وارد، ردّ عليه دون جوزيه معتقداً أنه سيُطبق بذلك فم الصيدلي، ولكن هذا الأخير عاد إلى الهجوم، إذا كان الأمر كذلك، فاذهب إلى مديرية المالية العامة، ففي المالية العامة يعرفون كل شيء عن الجميع. نظر دون جوزيه إلى مثير القلق ذاك، وحاول أن يداري اضطرابه، فهذا أمر لم يخطر لسيدة الشقة اليمني في الطابق فوق الأرضي، وأخيراً تمكّن من القول متلعلهما، إنها فكرة جيدة، سأخبر المدير بها. خرج من الصيدلية غاضباً من نفسه، كما لو أنه افقر في اللحظة الأخيرة إلى حضور الروح للرد على إهانة، وكان مستعداً للعودة إلى البيت دون مزيد من الأسئلة، ولكنه فكر بعد ذلك مستسلماً، لقد سُكب النبيذ، ولا بد من شريه، ولم يقل مثلاً قال ذاك الآخر، أبعدوا عني هذه الكأس، فأنتم تريدون قتلي. التجرب الثاني الذي دخله كان محل خردوات، والثالث

محل جزار، والرابع محل قرطاسية، والخامس متجر أدوات كهربائية، وال السادس دكان مأكولات، الروتين المعهود في الأحياء، وهكذا حتى المحل العاشر، وقد حالفه الحظ لحسن الحظ، إذ لم يحدثه أحد، بعد ذلك الصيدلي، عن مراجعة المالية أو دليل الهاتف. والآن، بينما هو مستلق على ظهره، ويداه متقطعتان تحت رأسه، كان دون جوزيه ينظر إلى السقف ويسأله، ما الذي يمكنني عمله بدءاً من الآن، فيرد عليه السقف، لا شيء، فقد عرفت عنوانها الأخير، أعني، العنوان الأخير في الزمن الذي كانت ترتاد فيه المدرسة، ولم يقدم لك أي أثر يفيدك في مواصلة البحث، ما زال يمكنك بالطبع اللجوء إلى العناوين السابقة، ولكن ذلك سيكون مضيعة للوقت، ما دام تجار الشارع، وهم أكثر الناس اطلاعاً، لم يستطعوا مساعدتك، فكيف سيتمكن الآخرون من مساعدتك، أنت ترى إذن أنه على التخلص عن الموضوع، ربما لم يعد أمامك مخرج آخر، اللهم إلا ذهابك للسؤال في المالية، ولن يكون الأمر صعباً وأنت تملك وثيقة التكليف هذه، أضف إلى ذلك أنهم موظفون مثلك، ولكن وثيقة التكليف مزيفة، سيكون من الأفضل عملياً عدم استخدامها، فلست أتمنى أن أكون في جلدك إذا ما فاجأوك في أحد هذه الأيام بالجريمة المشهود، لا يمكن لك أن تكون في جلدي، فلست سوى سقف من الملاط، أجل، ولكن هذا الذي تراه مني هو الجلد أيضاً، أضف إلى ذلك أن الجلد هو كل ما نريد أن يراه الآخرون، أما تحته فلا يمكن لنا نحن أنفسنا أن نعرف من نكون، ساخبي وثيقة التكليف، لو كنت مكانك لمزقتها، أو أحرقتها، ساختها مع أوراق المطران، أين وضعتها، أنت من يجب أن يعرف أين هي، لا تروقني هذه النبرة التي تتكلم بها، تبدو لي نبرة فائل شؤم، حكمة السقوف لا حدود لها، إذا كنت سقاً حكيناً، فقدم لي فكرة، واصل النظر إلى، فهذا يؤدي إلى نتيجة أحياناً.

الفكرة التي قدمها السقف إلى دون جوزيه هي أن يقطع إجازته ويعود إلى العمل، ستقول للرئيس إن لديك ما يكفي من القوة وتطلب منه أن يحفظ لك الأيام المتبقية لفرصة أخرى، هذا إذا كنت ما تزال تجد طريقة للخروج من الثقب الذي أدخلت نفسك فيه، حيث كل الأبواب مغلقة وليس هناك أثر يوجهك، سيسأل الرئيس مجيء موظف إلى العمل دون أن يكون مضطراً إلى ذلك ودون أن يكون قد استدعي إليه، ولكنك قمت بأشياء أشد غرابة بكثير في الفترة الأخيرة، لقد كنت أعيش بسلام قبل أن يتسلط هذا الهاجس العقيم على عقلي، البحث عن امرأة لا تعرف حتى أنتي موجود، ولكنك تعرف أنها موجودة، وهذه هي المشكلة، من الأفضل أن تخلى عن الأمر دفعاً واحدة، هذا ممكן، هذا ممكناً، وتذكر على أي حال بأن حكمة السقوف ليست هي وحدها غير المحدودة، لأن مفاجآت الحياة هي كذلك أيضاً، ما الذي تعنيه بهذا الكلام الزنخ، أعني أن الأيام تتواتي ولا تتكرر، هذه فكرة أشد زنخاً من سابقتها، ولا تقل لي إن حكمة السقوف تكمن في مثل هذه العبارات المبتذلة، علق دون جوزيه بازدراء، أنت لا تعرف شيئاً من الحياة إذا كنت تعتقد بوجود شيء أكثر يمكن معرفته، قال السقف ذلك ثم صمت، نهض دون جوزيه من السرير، خباء وثيقة التكليف في الخزانة، بين أوراق المطران، ثم بحث عن دفتر الملاحظات وراح يدون أحداث الصباح المحبطة، مشدداً بصورة خاصة على نبرة الصيدلي المنفرة ونظرته المرهفة، وكتب في نهاية القصة، كما لو أن الفكرة هي من بنات أفكاره، اعتقاد أنه من الأفضل أن أعود إلى العمل، وبينما كان يخبي الدفتر تحت الفراش تذكر أنه لم يتناول الغداء، قال له ذلك رأسه، وليس معدته، فمع مرور الوقت وإهمال الطعام ينتهي الأمر بالناس إلى عدم سماع منبه الشهية، ولو أن دون جوزيه سيواصل إجازته لما أهله أن يندس في الفراش بقية اليوم، والبقاء دون طعام،

وعدم العشاء، وأن ينام طوال الليل إن أمكن، أو أن يلجم إلى السبات الإرادي لمن قرر أن يدير ظهره لأحداث الحياة المزعجة. إنما عليه أن يغذى جسده لكي يعمل في اليوم التالي، فهو يمقت أن يوصله الضعف ثانية إلى التعرق البارد والاغماءات المضحكه أمام شفقة زملائه المتكلفة ونفاد صبر رؤسائه. خفق بيضتين، وأضاف إليهما بعض شرائح السجق، ورشة لا بأس بها من الملح الخشن، وضع زيتاً في مقلة، وانتظر أن تسخن إلى الحد المضبوط، وقد كانت هذه هي موهبته الوحيدة في الطبخ، وما سوى ذلك يتلخص في فتح المعلبات. أكل طبق العجة بتأنٍ، بتقطيعه إلى أجزاء هندسية، وحاول إطالة أمد ذلك أكثر ما يمكن، لكي يشغل الوقت، وليس لترف التلذذ بالطعام. ولأنه لا يريد أن يفكر قبل كل شيء. الحوار التخييل والميتافيزيقي مع السقف أفاده في التغطية التامة على تشتت روحه، والإحساس بالرعب الذي تثيره فيه فكرة أنه لن يكون لديه شيء يعمله في الحياة إذا ما كان بحثه عن المرأة المجهولة قد انتهى، وهو ما لديه أسباب للاعتقاد به. كان يشعر بعقدة قاسية في حنجرته، مثلاً كان يحدث له في طفولته عندما يعنفونه لدفعه إلى البكاء، وكان آنذاك يتحمل، يتحمل، إلى أن تطفر منه الدموع في نهاية المطاف، مثلاً بدأت تطفر منه الآن، في نهاية المطاف. أزاح الطبق جانباً، ترك رأسه يهوي على ذراعيه المتقطعتين وبكى دون حياة، ولم يكن هناك أحد على الأقل في هذه الساعة ليضحك منه: وهذه واحدة من تلك الحالات التي لا يمكن فيها للسقوف أن تفعل شيئاً لمساعدة الأشخاص المحزونين، وتضطر إلى الاكتفاء بالانتظار هناك في الأعلى إلى أن تمر العاصفة، وتنفس الروح عن كريها، ويتعجب الجسم. وهذا هو ما حدث لدون جوزيه. وبعد بضع دقائق أحس بالتحسن، مسح دموعه بفظاظة بكم قميصه ومضى ليغسل الطبق وأدوات الطعام. كان أمامه المساء كله وليس لديه ما يفعله. فكر

في زيارة سيدة الشقة اليمني من الطابق فوق الأرضي، وأن يروي لها ما يحدث إلى هذا الحد أو ذاك، ولكنه قدرّ بعد ذلك أن الأمر لا يستحق العناء، فقد أخبرته هي بكل ما تعرفه، وربما انتهت بها الأمر إلى سؤاله عن الشياطين التي تدفع المحفوظات العامة إلى بذل كل هذا الجهد من أجل شخص عادي، من أجل امرأة ليست لها أهمية، وسيكون ضريراً من الزييف غير الوقور، ومن البلاهة البالغة، أن يرد عليها بأننا جميعنا في نظر المحفوظات العامة للسجل المدني متساوون، مثلما هي الشمس بالنسبة إلى الجميع عندما تطلع، هناك أشياء من غير المناسب أن تقال أمام شخص عجوز إذا كان لا يريد أن يضحك منها في وجهنا. تناول دون جوزيه من أحد أركان البيت حزمة من المجلات والصحف القديمة، من تلك التي كان قد قص منها الأخبار والصور، ويمكن أن يكون قد فاته شيء مهم لم ينتبه إليه أو أن هناك فيها بداية حديث عن أحدهم يبشر بوعد مقبول في دروب الشهرة الشاقة. وعاد دون جوزيه إلى مجموعاته.

كان أكثر من فوجئ بينهم جميعاً هو المدير. فقد دخل، كما هي العادة، حين كان جميع العاملين في أماكنهم يباشرون عملهم، وتوقف لثلاث ثوان إلى جانب منضدة دون جوزيه، ولكنه لم ينطق بكلمة واحدة. توقيع دون جوزيه أن يتم إخضاعه إلى استجواب مباشر حول أسباب عودته السابقة لأوانها إلى العمل، ولكن الرئيس اكتفى بسماع التفسيرات التي قدمها إليه على الفور نائب المدير المعني بالقسم، والذي صرفة بعد ذلك بحركة حاسمة من يده اليمنى، وكان إصبعاه السبابة والوسطى فيها ملتصقين ومشدودين، بينما بقية الأصابع شبه مضبوطة، وهو ما يعني، حسب قواعد الإيماءات في المحفوظات، أنه غير مستعد لسماع كلمة أخرى حول الموضوع. كان دون جوزيه، المشتت بين توقعه الأول بأن يتم استجوابه وبين اطمئنانه إلى أنهم قد تركوه

سلام، يحاول أن يجلو أفكاره، وأن يركز حواسه على العمل الذي وضعه المأمور فوق منضدته، وهو أكثر من عشرين شهادة ميلاد جديدة يتوجب نقل المعلومات منها إلى البطاقات، وأرشفة هذه البطاقات في أدراج الكونتوار، وفق الترتيب الأبجدي المعمول به. كان عملاً بسيطاً، ولكنه ينطوي على مسؤولية، وهو عمل يتميز، بالنسبة إلى دون جوزيه، الذي ما يزال يعاني ضعفاً في ساقيه ورأسه، بإمكانية إنجازه جالساً. أخطاء النسخ هي آخر ما يمكن التسامح فيه، ولن يفيد في شيء قولهم، لقد سهوت، بل على العكس، فاعترافهم بالسهوا هو اعتراف بأنهم كانوا يفكرون في شيء آخر، بدلاً من تركيز اهتمامهم على الأسماء والبطاقات التي تأتيها أهميتها القصوى من كونها هي، في الحالة الآنية، من تمنع وجوداً شرعياً لواقع الوجود. وخصوصاً اسم الشخص الوليد. فائي خطأ بسيط في النسخ، مثل تبديل الحرف الأول من إحدى الكنين، سيؤدي إلى وضع البطاقة في غير موقعها، بل وبعيداً جداً عن المكان الذي يجب أن تكون فيه، كما قد يحدث في هذه المحفوظات العامة للسجل المدني، حيث الأسماء كثيرة، إذا لم نقل إنها كل الأسماء. فلو أن الكاتب الذي نسخ، في أزمنة مضية، اسم دون جوزيه، كتب شوزيه، مخطئاً ذهنياً بسبب تشابه اللفظ الذي يكاد يصل إلى حد التطابق، فسوف تكون الطامة الكبرى في العثور على البطاقة الضالة لتسجيل أي واحدة من الوقوعات الثلاثة المألوفة، أي الزواج، والطلاق، والوفاة، وهي وقوعات يمكن تجنب اثنين منها إلى هذا القدر أو ذاك، أما الثالثة فلا مهرب ولا خلاص منها على الإطلاق. ولهذا راح دون جوزيه ينسخ بكل حذر، حرفاً فحرفاً، إثباتات حياة هذه الكائنات الجديدة التي عُهد إليها بها، وكان قد أنجز ست عشرة شهادة ميلاد، وسحب بيده الآن السابعة عشرة، وهي البطاقة، ولكن يده بدأت ترتجف فجأة، وزاغت عيناه، وغطى العرق بشربة جبهته. فالاسم الذي

أمامه، وهو لشخص من الجنس الأنثوي، مطابق في كل شيء تقريباً لاسم المرأة المجهولة، وليس هناك سوى فرق وحيد في كنيتها الثانية، مع أن الحرف الأول من هذه الكنية هو نفسه. وهكذا فإن كل الاحتمالات تشير إلى أن هذه البطاقة، بهذا الاسم الذي تحمله، يجب أن تؤرشف بعد تلك البطاقة، ولهذا نهض دون جوزيه عن كرسيه فور انتهاءه من عملية التسجيل، كمن لم يعد قادرًا على التحكم بجزعه مع اقتراب لحظة لقاء منتظر بلهفة، وهرع نحو الدرج المناسب في خزانة البطاقات، وراح يمر بأشباعه العصبية فوق البطاقات، بحث، ووجد المكان. لم تكن بطاقة المرأة المجهولة في مكانها. فومضت الكلمة المسئومة على الفور في رأس دون جوزيه، ماتت. لأن دون جوزيه يعرف بالضرورة أن غياب بطاقة من الأرشيف يعني دون ريب موت صاحبها، فكم من بطاقات لا حصر لها سحبها هو نفسه من هنا، خلال خمس وعشرين سنة من عمله كموظف، ونقلها إلى أرشيف الموتى، ولكنه يرفض الآن تقبل ما هو جلي، في أن يكون هذا هو سبب اختفاء البطاقة، ربما وقع إهمالاً وبدل أحد الزملاء غير الأكفاء مكان البطاقة، وربما هي إلى الأمام قليلاً أو إلى الوراء قليلاً، فدون جوزيه يزيد، بداعي اليأس، أن يخدع نفسه، مع أنه لم يحدث قط، طوال قرون وقرون من عمل المحفوظات العامة، أن وضع بطاقة من هذا الأرشيف في غير مكانها، ولكن هناك احتمال واحد، احتمال واحد فقط، بأن تكون المرأة ما تزال على قيد الحياة، وذلك بأن تكون بطاقتها موجودة بصورة مؤقتة بين يدي أحد الكتبة من أجل تسجيل واحدة من الوفعات الجديدة، ربما تكون قد تزوجت مرة أخرى، هكذا فكر دون جوزيه، ولوهنيه، هدأ التناقض غير المنتظر الذي سببته له الفكرة من قلقه. بعد ذلك، ودون أن ينتبه تقريباً لما يقوم به، وضع البطاقة التي كان قد استنسخها عن الإبلاغ بالولادة في مكان البطاقة المختفية، وعاد

بساقين مرتجلتين إلى طاولته. لا يمكنه أن يسأل زملاءه إذا ما كانت لديهم، بالصادفة، بطاقة السيدة، ولا يمكنه التجول حول طاولاتهم ناظراً بطرف عينه إلى الأوراق التي يعملون بها، لا يمكنه أن يفعل شيئاً باستثناء مراقبة درج البطاقات ليرى إذا ما كان أحدهم سيعيد المستطيل الكرتوني المسحوب من مكانه نتيجة خطأ أو لسبب أقل روتينية من الموت. راحت الساعات تمر، وأفسح الصباح المجال للمساء، وما استطاع دون جوزيه تناوله في الفداء لم يكن شيئاً يذكر، لا بد أن هناك شيئاً في حنجرته يجعل هذه الفصّات تتواتى بسهولة، وهذا الضيق، وهذا الفم. لم يفتح أي واحد من زملائه درج البطاقات ذاك، ولم تجد أي بطاقة شاردة طريق عودتها، فالمرأة المجهولة قد ماتت.

رجع دون جوزيه هذه الليلة إلى المحفوظات. كان يحمل مصباح الجيب ولفافة حبل متين طوله مئة متر. وكان في المصباح بطارية جديدة، تدوم لعدة ساعات من الاستخدام المتواصل، ولكن دون جوزيه الذي استخلص العبر من الصعوبات التي وجد نفسه مضطراً إلى مواجهتها، خلال مغامرته في تسلق المدرسة والسطو عليها، تعلم من الحياة أن كل الاحتياطات تبقى قليلة، خصوصاً عندما تخرج عن سبل السلوك السوية النزيهة لتتساق عبر دروب الجريمة الملتوية. وليتصور المرء عطباً يصيب لمبة المصباح الصغيرة، أو ليتصور أن العدسة التي تحميها وتركز النور قد أفلتت من موضعها، فليتصور أن المصباح، مع البطارية والعدسة واللمبة السليمة، يسقط فجأة في ثقب لا يمكن الوصول إليه بالذراع، أو حتى بخطاف، ولا فقار دون جوزيه إلى خيط آريان الحقيقي، لأنه لا يجرؤ على استخدام ذلك الخيط بالرغم من أن درج منضدة الرئيس، حيث يحتفظ به للمناسبات، لا يُغلق أبداً، فإنه سيستخدم لفافة عادية وفظة من حبل اشتراه من السوق ليحل محل ذلك الخيط ويقود عالم الأحياء الذي يتهيأ، في هذه اللحظة، للدخول إلى مملكة الأموات. وباعتباره موظفاً في المحفوظات العامة، فإن دون جوزيه يتمتع بكل الصلاحية الشرعية للوصول إلى أي وثيقة من وثائق السجل المدني، ولا حاجة إلى التكرار، بأن هذا هو جوهر عمله، ولهذا قد يستغرب البعض من أنه، حين لحظ غياب البطاقة، لم يقل للمأمور المعنى، سأدخل داخلاً للبحث عن بطاقة امرأة ماتت. فالمسألة ليست

في إعلان ذلك وحسب، إذ عليه أن يقدم مبرراً ذا سند إداري ومنطق بيروقراطي، لأن المأمور لن يمتنع عن سؤاله، ولماذا تريدها، ولا يمكن لدون جوزيه أن يرد عليه، لكي أتأكد من موتها، فأين ستصل الأمور بالمحفوظات العامة إذا ما بدأت تشفل في إشباع هذا النوع من الفضول أو غيره، وهو ليس بالفضول المرضي وحسب، وإنما هو غير منتج أيضاً. إن أسوأ ما يمكن أن تسفر عنه حملة دون جوزيه الليلية هذه هو ألا يتمكن من العثور على أوراق المرأة المجهولة في الفوضى التي تعم أرشيف الموتى. فمن المؤكد، بادئ ذي بدء، وأن الأمر يتعلق بوفاة حديثة، أن الأوراق يجب أن تكون في ما يعرف بالمدخل في اللغة المتدولة، ولكن المشكلة تبدأ هنا في استحالة معرفة، أين هو بالضبط مدخل أرشيف الموتى. وسيكون من التبسيط الشديد القول، مثلاً يلح بعض المتفائلين الجامحين، بأن حيز الموتى يبدأ بالضرورة حيث ينتهي حيز الأحياء، والعكس بالعكس، وربما كانت الأمور في العالم الخارجي تجري، بطريقة ما، على هذا النحو، حيث ليس من المألوف رؤية الموتى مختلطين مع الأحياء في الشوارع، اللهم إلا في أحداث استثنائية، وإن تكن ليست شديدة الاستثنائية عندما نرحب في ذلك، مثلاً هي في الكوارث الطبيعية أو النزاعات الحربية. هنا إذن ممكن الحدوث، ليس فقط في المحفوظات العامة، لأسباب بنوية. إنه ممكن الحدوث، وهو يحدث فعلًا. لقد أوضحنا من قبل بأنه بين وقت وآخر، عندما يبدأ الاحتقان، الذي يسببه تراكم الأموات المستمر الذي لا يمكن وقفه، في الحيلولة دون تقل الموظفين في المرات، مما يعرقل بالتالي أي قدرة على البحث عن الوثائق، فإنه لا يعود هناك مفر من هدم الجدار الخلفي وإعادة بنائه على بعد بضعة أمتار إلى الوراء. ومع ذلك، وبسبب سهو غير مقصود من جانبنا، لم نذكر في حينه، أن هناك عاملين خبيثين يسببان بذلك الاحتقان. ففي المقام الأول، خلال الوقت الذي

يجري فيه بناء الجدار، لا يكون هناك بد من أن تأخذ بطاقات وملفات الموتى الحديثين، بسبب عدم وجود الحيز المخصص لها في أقصى البناء، بالاقتراب بصورة خطيرة، في هذا الجانب، وملامسة ملفات الأحياء المرتبة في أقصى الجزء الداخلي من الخزائن المخصصة لهم، فينشأ عن ذلك حزامُ حالات اختلاط حساسة بين من لا يزالون أحياء ومن هم في عداد الأموات. وفي المقام الثاني، عندما ينتهي بناء الجدار ومد السقف، ويصير بإمكان أرشيف الموتى أن يعود إلى وضعه الطبيعي، فإن ذلك الاختلاط بالذات، ويمكن تسميته بالاختلاط الحدودي، يجعل من المستحيل، أو من العسير جداً على الأقل، نقل مجمل الدخالء، مع الاعتذار من هذه الكلمة غير المناسبة، إلى ظلمة العمق. ويضاف بعد ذلك إلى هاتين العقبتين غير الصغيرتين، واقع أن الكاتبين الأحدث عهداً، دون أن يعلم الرئيس أو الزملاء بذلك، لا يعبرون اهتماماً بين حين وآخر، إلى أنهما يفلتان ملف أحد الموتى في أي مكان، دون أن يجهدا نفسيهما في الذهاب إلى عمق المبنى ليروا إذا ما كان هناك مجال فارغ أو لا، سواء لقصور في إعدادهما المهني أو لضعف خطير في أخلاقيهما الشخصية. فإذا لم يكن الحظ في هذه الرزمة حليف دون جوزيه، وما لم يسعفه القدر، فإن مغامرة اقتحام المدرسة، إذا ما قورنت بما ينتظره، وعلى الرغم من المجازفة التي انطوت عليها، ستبدو أشبه بنزهة.

قد يتسائل المرء عما سيستفيده دون جوزيه من حبل طويل، طوله مئة متر، إذا كان امتداد المحفوظات العامة، بالرغم من أعمال التوسيع المتتالية، لم يتجاوز الثمانين متراً بعد. هذا النوع من الشكوك خاص بمن يتصور بأن كل شيء في الحياة يمكن تحقيقه بالاتباع الدقيق لخط مستقيم، وأنه من الممكن على الدوام الذهاب من مكان إلى آخر عبر أقصر الدروب، وربما أمكن لبعض الناس، في العالم الخارجي، أن

يحكموا بأنهم استطاعوا عمل ذلك، أما هنا، حيث يتقاسم الأحياء والأموات المجال نفسه، فلا بد في بعض الأحيان من الدوران طويلاً من أجل العثور على أحدهم، يجب الالتفاف حول جبال من الحزم، وأعمدة من محاضر القضايا، وأكdas من البطاقات، وهيأكل من المخلفات القديمة، والقدم عبر مضائق مظلمة، بين جدران من الورق المتتسخ التي تصل إلى الأعلى، فإن أمتاراً وأمتاراً من الحبل يجب مدّها، وتركها إلى الخلف، مثل أثر متعرج وبصیر مخطوط على الغبار، ولا توجد طريقة أخرى لمعرفة من أين يجب المرور، وليس هناك وسيلة أخرى للعثور على طريق العودة. ربط دون جوزيه أحد طرفي الحبل بإحدى قوائم منضدة الرئيس، وهو لم يفعل ذلك عن قلة احترام، وإنما ليكسب بعض الأمتار الإضافية، ثم ربط الطرف الآخر بـكاحله، وأفلت اللفافة وراءه، على الأرض، لتسلل معه في كل خطوة يخطوها، وتقدم من أحد المرات المركزية في أرشيف الأحياء. كانت خطته تقضي ببدء البحث في فسحة العمق، هناك حيث يجب أن يكون ملف المرأة المجهولة وبطاقتها، مع أن الاحتمال ضئيل، للأسباب المعروضة آنفاً، في أن يكون إيداعها قد تم بصورة نظامية وصحيحة. وكموظف من أزمنة أخرى، تربى وفق المناهج القديمة وانضباطها، كانت طباع دون جوزيه الصارمة تتفر من الاصطدام بتهاون الأجيال الجديدة ولا مسؤوليتها، فبدأ البحث من المكان الذي لا يمكن أن يكون قد أودع فيه ميت إلا بمخالفة واضحة ومستكورة لقواعد الأرشفة الأساسية. كان يعرف أن الصعوبة الكبرى التي سيواجهها هي انعدام الضوء. فباستثناء منضدة الرئيس، التي يتواصل فوقها وميض المصباح الأبدي الخافت، تبقى المحفوظات كلها في العتمة، غارقة في ظلام دامس. وإشعال مصابيح أخرى على امتداد المبنى، بالرغم من الشحوب الذي هي فيه، سيكون مجازفة كبيرة، إذ يمكن لشرطـي متيقظ يتـجول في الحي، من أولئـك الذين

يُؤرقهم أمن المجتمع، أن يلمع من خلال النواخذة العالية الضوء الشاحب ويطلق نداء الإنذار على الفور. ولهذا لن يكون لدى دون جوزيه من إنارة سوى دائرة الضوء الخافت التي تتوسّ أمامه على إيقاع خطواته، ومع ارتجاف يده التي تحمل المصباح أيضاً. فهناك فرق كبير بين المجيء إلى أرشيف الموتى خلال ساعات العمل العادية، بحضور الزملاء، في الخلف، الذين على الرغم من قلة ميلهم إلى التضامن، مثلما رأينا، يهرعون على الدوام في حالة الخطر الحقيقي أو عند حدوث نوبة عصبية شديدة، وخصوصاً إذا ما أمرهم الرئيس، اذهب وانظر ما الذي جرى لذاك، وبين المجازفة بالمجيء وحيداً، وسط ليلة مدلهمة، عبر سراديب الموتى هذه، محاصراً بالأسماء، منتصتاً إلى وشوشة الأوراق، أو دمدة الأصوات، فمن الذي يمكنه التمييز.

وصل دون جوزيه إلى نهاية خزائن الأحياء، وهو يبحث الآن عن ممر ليصل إلى عمق المحفوظات العامة، في البداية، ووفق المخطط الذي وضع لشغل الحيز، كان مقرراً للممر أن يمتد على طول منتصف الأرضية، بحيث يقسم المبني المستطيل إلى قسمين متساوين، ولكن انهيارات الملفات، والتي يتواصل حدوتها مهما دفعوا كتل الأوراق إلى الوراء، حولت ما يجب أن يكون ممراً مستقيماً وسرياً إلى شبكة معقدة من الدروب والمسالك، حيث تبرز في كل لحظة العوائق والدروب المسوددة. في النهار، عندما تكون كل الأنوار مضاءة، يكون أسهل نسبياً على الباحث أن يحافظ على التوجه الصحيح، فيكتفي أنه يمضي متيقظاً، محترساً، وأن ينتبه إلى اتباع السبل التي يرى فيها قدرأ أقل من الغبار، وهذه هي العلامة التي تدل على كثرة المرور من هناك، وحتى الآن، على الرغم من بعض حالات الذعر، وبعض القلق من التأخر، لم تقع قط أي حالة دخل فيها موظف ولم يعد من حملته. ولكن ضوء مصباح الجيب ليس جديراً بالثقة، ويبدو أنه يختلق ظللاً من تلقاء

نفسه، وقد كان على دون جوزيه، الذي لا يجرؤ على استخدام مصباح المدير، أن يشتري مصباحاً من تلك المصابيح الحديثة، شديدة القوة، والتي يمكن لها أن تثير حتى نهاية العالم. صحيح أن الخوف من الضياع لم يكن يبطئ من عزيمته كثيراً، وكان الشدّ الدائم للحبل المريوط بداخله يطمئنه إلى حد ما، ولكنه إذا ما راح يلف ويدور هنا، ويعيش في دوائر، ويتعثر باللفاقة، فإنه سينتهي إلى عدم القدرة على أن يخطو خطوة إضافية واحدة، وسيضطر إلى العودة إلى الوراء، للبدء من جديد. وكان قد اضطر أحياناً إلى عمل ذلك لأسباب أخرى، حين ينحضر الحبل، وهو حبل رفيع، بين جبال الورق ويعلق هو في الزوايا، ويبقى هناك دون قدرة على التحرك إلى الأمام أو إلى الوراء. بسبب كل هذه المشاكل والعوائق، يمكن إدراك أنه لا يمكن للتقدم إلا أن يكون بطيناً، وأن معرفة دون جوزيه بطبغرافية المكان لا تكاد تقيده في شيء، وخصوصاً الآن بالذات وقد انهالت كومة ضخمة من الملفات سدت على ارتفاع قامة ما كان له مظهر طريق مؤكداً، مثيرة غماماً كثيفة من الغبار، يحوم العث في وسطها مفزعاً، وشبه شفاف على ضوء المصباح. دون جوزيه يشتمز من هذه الحشرات التي يمكن القول للوهلة الأولى بأنها وُضعت في العالم للزينة، مثلاً يشتمز من اللواحس التي تتکاثر هنا أيضاً، فهي، جميعها، الكائنات الشرهة المسؤولة عن تلف الكثير من الذاكرة، ذاكرة أبناء كثيرين عن آبائهم، والكثير من الأماكن المورثة التي سقطت في أيدي الدولة النهمة بسبب نقص الأهلية القانونية للورثة، على الرغم من الأيمان المغلظة بأن الوثيقة التي تثبت ذلك قد أكلت، لوثت، فُرِضَتْ، التهمت من قبل مملكة الحيوان التي تعیث فساداً في المحفوظات العامة، وأن هذا الأمر يجب أن يؤخذ في الاعتبار ولو لمجرد الدافع الإنساني، ولكن ليس هناك لسوء الحظ من هو قادر على إقناع وكيل الأراميل واليتامى بأن الواجب يفرض عليه

أن يقف إلى جانبهم، ولكنه ليس موجوداً، فاما أن تظهر الوثيقة أو لا يكون هناك ميراث. أما بالنسبة للفئران، فلا حاجة إلى الحديث عن قدرتها التخريبية. ولكن، على الرغم من الأضرار التي تحدثها، فإن لهذه القوارض جانبها الإيجابي، فلو أنها لم تكن موجودة لتضررت المحفوظات العامة في أماكن اتصال جدرانها، أو لكان لا بد من مضاعفة طولها. وقد يفاجأ مراقب غافل لعدم تكاثر مستوطنات الفئران هنا إلى حد القضاء التام على الملفات، خصوصاً إذا أخذنا في الاعتبار الاستحالة الأكثر من جلية لعملية تطهير فعالة مئة بالمائة. وتفسير ذلك، مع أن هناك من يشكك بصحته الكاملة، هو في عدم وجود ماء أو رطوبة جوية كافية، ولأن هذه الحيوانات محكومة بحمية جافة في طعامها في الوسط الذي اختارت له حياتها أو حيث ألقى بها سوء الحظ، فقد أدى ذلك إلى ضمور ملحوظ في العضلات التنسالية مع نتائج سلبية جداً في ممارستها الجماع. ولمعارضة هذه المحاولة في التفسير، هناك من يصر على التأكيد بأنه لا علاقة للعضلات بذلك، مما يعني بقاء الجدل مفتوحاً.

في أثناء ذلك، كان دون جوزيه المفطى بالغبار، وبأسمال ثقيلة من نسيج العنكبوت متتصقة بشعره وكفيه، قد وصل أخيراً إلى الفسحة الخاوية بين آخر الأوراق المؤرشفة وجدار العمق، حيث يفصل بينهما حوالي ثلاثة أمتار تشكل ممراً غير مننظم، يزداد ضيقاً مع مرور كل يوم، ليصل ما بين الجدارين الجانبيين. الظلام في هذا المكان مطبق بالطلاق. والضوء الخارجي الضعيف الذي يمكن له أن يتسلل من طبقات الأوساخ التي تغطي، من الداخل والخارج، الكوى الجانبية، وخصوصاً الأخيرة منها في كل جانب، وهي الأقرب إلى المكان، لا يمكن من الوصول إلى هنا بسبب التراكم العمودي لحزم الوثائق التي تكاد تصل إلى السقف. أما جدار العمق الخلفي، بكتمه، فهو، لسبب لا

يمكن تفسيره، أعمى، أي أنه يخلو حتى من كوة يمكنها أن تسعد الآن ضوء المصباح الشحيح. لم يستطع أحد فهم عناد جمعية المهندسين التي عارضت، متذرعة بتبرير جمالي ضئيل الأهمية، إجراء تعديل على التصميم التاريخي والسماح بفتح نوافذ في الجدار كلما تطلب الأمر هدمه وإعادة بنائه، بالرغم من أنه يمكن لأي جاهل في الموضوع أن يدرك أن الأمر لا يعود أن يكون إرضاء لحاجة وظيفية. كان يجب على أولئك المهندسين أن يكونوا هنا الآن، ليعرفوا بأنفسهم كم يكلف هذا من مشقة، تتم دون جزئيه بذلك متأففاً. كانت أكdas الأوراق المركونة على هذا الجانب وذلك من المر المركزي ذات ارتفاعات مختلفة، ويمكن لبطاقة المرأة المجهولة وملفها أن يكونا في أي واحدة منها، مع احتمال أكبر، على أي حال، في أن يُعثر عليهما في الأكواخ الواطئة، هذا إذا كان قانون بذل الحد الأدنى من الجهد هو المفضل للكاتب المكلف بالتخزين. ولسوء الحظ أننا لا نعدم في إنسانيتنا التائهة هذه أرواحاً شديدة الالتواء، بحيث لا يكون مستغرباً أن تخطر للموظف الذي حفظ ملف وبطاقة المرأة المجهولة، الفكرة الخبيثة، لمجرد الضغينة المجانية، بإسناد السلم اليدوي الضخم المستخدم هنا إلى أعلى كومة من الأوراق، ووضع الملف فوقها، في القمة، فهكذا هي شؤون هذا العالم.

بدأ دون جزئيه البحث بمنهجية، بدون تسرع، حتى أنه تذكر كما يبدو إيماءات وحركات الليلة التي أمضاها في سقية المدرسة، عندما كان من المحتمل أن تكون المرأة المجهولة ما تزال على قيد الحياة. لكن الغبار الذي يغطي الأوراق هنا أقل بكثير، وهو ما يمكن فهمه بسهولة إذا ما أخذنا في الاعتبار إنه لا يكاد يمر يوم إلا وتجلب فيه ملفات وبطاقات أشخاص متوفين، وهو ما يعادل القول، بلغة التخييل، ولكن باستثناء واضح، إن الموتى الذين في أقصى المحفوظات العامة للسجل المدني يبقون نظيفين دوماً. وفي الأعلى فقط، حيث الأوراق تكاد تبلغ

السقف، مثلما قيل سابقاً، يتهادى الغبار الذي يغريله الزمن ليستقر بهدوء فوق الغبار الذي غريله الزمن، إلى حد أنه لا بد من نفض أغلفة الملفات الموجودة في الأعلى وهزها بقوة، إذا أردنا أن نعرف من هم أصحابها. وإذا لم يجد دون جوزيه ما يبحث عنه في المستويات السفل، فلا بد له من التضحية مجدداً بتسلق سلم يدوي، ولكنه لن يكون بحاجة في هذه المرة إلى البقاء متسلقاً لأكثر من دقيقة واحدة، ولن يكون لديه بالتالي متسع من الوقت ليصاب بالدوار، فبنظره واحدة سيكشف له ضوء المصباح إذا ما كان الملف قد وضع هناك خلال الأيام الأخيرة. مقدراً أن وفاة المرأة المجهولة، قد جرت، على الأغلب، منذ وقت قصير، قبل أيام قليلة أو بعد أيام قليلة، حسب اعتقاد دون جوزيه، من فترتي تفبيه عن العمل، خلال أسبوع الأنفلونزا أولاً، وبعد ذلك الإجازة القصيرة، ويمكن له مراجعة الوثائق في كل كومة بسرعة كبيرة، وحتى لو كان موت المرأة قبل ذلك، أي بعد اليوم الذي وقعت فيه بطاقة المرأة بين يدي دون جوزيه مباشرة، فإن الزمن الذي انقضى ليس كبيراً بحيث يكون الملف محفوظاً الآن تحت عدد كبير من الملفات الأخرى. هذا التأمل المتكرر للأوضاع التي قد تستجد، وهذا التفكير المتواصل، وهذه الموازنة التفصيلية بين ما هو واضح وما هو غائم، ما هو مباشر وما هو مختلط، ما هو نظيف وما هو متسخ، كانت تمر كلها، مثلاً نرويها تماماً، في رأس دون جوزيه. وقد يبدو الزمن الذي استغرقتاه في شرحها، أو بعبارة أدق، في استساخها، مبالغأً فيه ظاهرياً، وهذه هي النتيجة الحتمية، ليس لتعقيد العوامل المذكورة، سواء في المضمون أو في الشكل، وحسب، وإنما كذلك لطبيعة الدوائر الذهنية شديدة الخصوصية لكاتبنا العمومي. وهو سيمرا الآن بتجربة عصبية. اقترب دون جوزيه من أحد الجدارين الجانبيين، متقدماً، خطوة خطوة، على طول المرضيق المكون، كما أسلفنا، من أكdas الوثائق ومن الجدار

الخلفي. في البداية، وبصورة مجردة، لم يخطر ببال أحد أن اعتبار ممر كهذا ضيقاً، بعرضه المريع الذي يصل إلى قرابة الثلاثة أمتار، ولكن إذا ما جرى التفكير بهذا العرض في علاقته بطول الممر الذي، تكرر مرة أخرى، يمتد من جدار جانبي إلى جدار جانبي، سيكون علينا عندئذ أن نتساءل كيف أمكن لدون جوزيه، ونحن نعرف أنه يصاب بحالات هيجان جدية من النوع النفسي، مثلما هو أمر الدوار والشروع، الا يعني حتى الآن، في هذا الحيز المغلق والخانق، من نوبة عنيفة من رهاب الأماكن المغلقة. وربما وجدنا التفسير في أن الظلام، تحديداً، لا يتبع له إدراك حدود هذا الحيز، التي يمكن لها أن تكون هنا أو هناك، وهو لا يكاد يرى، أمامه، سوى كتلة الأوراق المألوفة والمطمئنة. ولم يكن من عادة دون جوزيه المكوث طويلاً في هذا المكان فقط، فهو يصل إليه عادة ليضع فيه وثائق حياة منتهية ثم يرجع من فوره إلىطمأنينة منضدة عمله، وإذا كان صحيحاً أنه منذ دخوله، في هذه المرة، إلى أرشيف الموتى، لم يستطع التخلص من انتباع قلق، يحيط به كحضور مجسد، فقد نسبه إلى ذلك الخوف من المبهم والجهول الذي يملك أشجع الشجعان الحق الإنساني في الشعور به. فدون جوزيه لم يشعر بالخوف، بالمعنى الذي تتضمنه كلمة خوف، حتى اللحظة التي وصل فيها إلى نهاية الممر ووجد نفسه قبالة الجدار. انحنى ليتفحص بعض الأوراق التي على الأرض تقريباً، والتي يمكن لها أن تكون أوراق المرأة المجهولة، وقد ألقى بها الموظف اللامي بإهمال، وفجأة، وحتى قبل أن يتاح له الوقت لتفحصها، تخلى عن كونه دون جوزيه الكاتب في المحفوظات العامة للسجل المدني، وعن أنه في الخمسين من عمره، وصار الآن دون جوزيه صغيراً بدأ لتوه الذهاب إلى المدرسة، إنه الطفل الذي لا يريد أن ينام لأن كابوساً ينتابه في كل ليلية، وهو الكابوس المتسلط نفسه، فحافة الجدار هذه، هذا الحائط المسدود، هذا السجن،

وهناك، في الطرف الآخر من الممر، مخبأً في الظلام، يوجد حجر صغير جداً وعادي، مجرد حجر صغير أخذ في النمو ببطء، لا يمكن له أن يراه الآن بعينيه، ولكن ذاكرة الأحلام التي حلم بها تقول له إنه هناك، إنه حجر يتضخم ويتحرك، وكأن الحياة قد دبت فيه، حجر يطفع من جنباته ومن أعلىاته، يصعد الجدران ويتقدم متجرجاً باتجاهه، متكوراً على نفسه، كما لو أنه ليس حيناً وإنما هو طين، وكما لو أنه ليس طيناً وإنما هو دم متخترد يخرج الطفل من الكابوس صارخاً عندما تلمس الكتلة الدنسة قدميه، وعندما يكون طوق «غاروتي»<sup>(١)</sup> الغم على وشك أن يخنقه، ولكن دون جوزيه، ويا له من مسكين، لا يستطيع الاستيقاظ من حلم لم يعد حلمه. ينكمش بملائقة الجدار مثل كلب مذعور، يوجه بيده المرتجفة ضوء المصباح نحو الطرف الآخر من الممر، ولكن الضوء لا يصل إلى ذلك البعد مع ذلك، ويبقى في منتصف الطريق، حيث يوجد الممر المؤدي إلى أرشيف الأحياء تقريباً. يفكر في أنه إذا ما رکض بسرعة سيتمكن من الإفلات من الحجر الذي يتقدم، ولكن الخوف يقول له، كن حذراً، فمثلاً ما تعرف أنه ليس متوقفاً هناك، بانتظارك، فسوف تقع في فم الذئب. كان تقدم الحجر في الحلم يتم بمرافقة موسيقى غريبة تبدو وكأنها متولدة من الهواء، أما هنا فالاصمت مطبق، شامل، وكثيف إلى حد يبتلع معه أنفاس دون جوزيه، مثلاً تبتلع الظلمة ضوء المصباح. وقد ابتلعتها بالكامل في هذه اللحظة بالذات. كان ذلك كما لو أن الظلمة قد قدمت لترتطم، مثل هبة ريح، يوجه دون جوزيه. وكان كابوس الطفل قد انتهى مع ذلك. أما بالنسبة إليه، وليفهم من هو قادر على فهم الروح الإنسانية، فإن واقع عدم رؤيته جدران الحبس، القريبة منها والبعيدة، كان كما لو أنها غير

---

(١) الغاروتي، garrote: المِخْنَق، وهو طوق حديدي كان يستخدم في تنفيذ أحكام الإعدام خنقاً في العصور الوسطى.

موجودة، وكما لو أن الحيز قد اتسع، حراً إلى ما لانهاية، وكما لو أن الأحجار ليست سوى الفلز الخامل الذي تتكون منه، وكما لو أن الماء هو ببساطة علة وجود الطين، وكما لو أن الدم يجري في عروقه فقط وليس خارجها. ولم يعد كابوس الطفولة هو ما يرعب دون جوزيه الآن، فما يشله خوفاً هو التفكير مرة أخرى في أنه قد يبقى ميتاً في هذا الركن، مثلاً ما تصور، منذ بعض الوقت، أنه قد يسقط عن سلم آخر، قد يموت دون أوراق وسط أوراق الموتى، فتسخنه الظلمة والانهيارات التي لن تثبت أن تتهاوى من الأعلى، ويكتشفون ذلك في الغد، لقد تغيب دون جوزيه عن العمل، أين تراه يكون، لا بد له أن يظهر، وعندما يأتي أحد الزملاء لنقل ملفات أخرى وبطاقات أخرى، سيجده هناك، على ضوء مصباح يدوبي أفضل من مصباحه هذا الذي يخذه عندما يكون في أشد الحاجة إليه. مرت الدقائق التي لا بد من مرورها لكي يبدأ دون جوزيه شيئاً في سماع صوت في داخله يقول، يا رجل، حتى الآن، إذا ما أبعدت الخوف جانباً، لم يصبك أي سوء بعد، ها أنتذا جالس، بكل عافيتها، صحيح أن مصباحك قد انطفأ، ولكن ما حاجتك أنت إلى مصباح، لديك الحبل المريوط إلى كاحلك، والمثبت في طرفه الآخر بقائمة منضدة الرئيس، إنك آمن، مثل جنين مربوط بالحبل السري إلى رحم أمك، وهذا لا يعني أن الرئيس هو أبوك أو أمك، ولكن العلاقات بين الأشخاص هنا معقدة في نهاية المطاف، وما عليك التفكير فيه هو أن كوابيس الطفولة لا تتحقق أبداً، وأقل منها تتحقق الأحلام، وذلك الحلم عن الحجر كان مرعباً حقاً، ولكن لا بد أن يكون له تفسير علمي ما، مثلاً حين كنت تحلم بأنك تطير فوق البساتين، تعلو وتتحفظ، وتطفو بذراعين مفتوحتين، تذكر، كان ذلك إشارة إلى أنك تتمو، وقد كان للحجر وظيفته كذلك، وإذا كان لا بد من أن تعيش تجربة الرعب، فليكن ذلك عاجلاً أفضل من أن يكون آجلاً، أضف إلى

ذلك أن الواجب يحتم عليك أن تعرف أن هؤلاء الموتى ليسوا كذلك جدياً، فمن المبالغة الجهنمية إطلاق هذه التسمية على أرشيفهم، وإذا كانت الأوراق التي بين يديك هي أوراق المرأة المجهولة، فإنها تبقى أوراقاً وليس عظاماً، إنها أوراق وليس لحمًا متفسخاً، وهذه هي الأعجوبة التي حققتها محفوظاتك العامة، تحويل الحياة والموت إلى مجرد أوراق، صحيح أنك رغبت في العثور على هذه المرأة، ولكنك لم تصل في الوقت المناسب، فحتى هذا الأمر لم تستطع تحقيقه، أو ربما أنك كنت ترغب ولا ترحب، كنت تتردد بين الرغبة والخوف مثلاً يحدث لأناس كثيرين، كان يكفيك أن تذهب إلى المالية، ولم يعد من ينصحك بذلك، لقد قضي الأمر، من الأفضل أن تتركها كائنة، فلم يعد هناك وقت لها ونهاية وقتك أنت قادمة أيضاً.

نهض دون جوزيه ببطء وهو يتلمس الجدار المزعزع المكون من الملفات، متوكلاً الحذر كي لا ينهار عليه. وكان الصوت الذي قدم له تلك الخطبة يقول له الآن، لا تخاف يا رجل، فالظلم الذي أنت فيه هنا ليس أكبر من الظلم الذي في جسدك، إنهم ظلامان منفصلان بجلد، وأراهن أنك لم تفكري في ذلك قط، إنك تحمل معك على الدوام من مكان إلى آخر ظلمة، دون أن يربعيك ذلك، ومنذ لحظات كنت على وشك البدء بالصرخ لمجرد أنك تخيلت بعض الأخطار، لمجرد أنك تذكرت الكابوس الذي كان يأتيك وأنت صغير، عليك يا صديقي العزيز أن تتعلم العيش مع ظلمة الخارج مثلاً تعلمت العيش مع ظلمة الداخل، والآن انھض دفعة واحدة من فضلك، خبيث المصباح في جيبك، فهو لن يفيدك في شيء، وخبيث الأوراق، ما دمت مصرأً على حملها معك، بين السترة والقميص، أو بين القميص والجلد لأنه أكثر أماناً، وامسك الحبل بثبات، ولله مع كل خطوة تقدمها حتى لا يتشابك بقدميك، والآن هيا، لا تكن رعديداً، فهذا هو أنسوا الأشياء. وبينما هو ما يزال

يستند بكتفه إلى الجدار برفق، غامر دون جوزيه بالسير خطوتين خجولتين. انشقت الظلمات مثل ماء أسود، وراحـت تتغلـق وراءـه، خطوة أخرى، ثم أخرى، خمس أمـتار من الحـبل رـفعت عن الأرض وتم لـفها، من المناسب لـدون جوزـيه الآـن أن تكون له يـد ثالـثة تـلمس الهـواء أمامـه، ولكن العـلاج بـسيطـ، يـكفيه أن يـرفع يـديه الـاثنتـيـن إـلى مـستـوى وجهـهـ، إـداهـما تـلـفـ والأـخـرى تـلـفـ، فـهـذـهـ هيـ بـداـيـةـ الـلـفـافـةـ.

كان دون جوزـيه على وشك الخـروـجـ من المـمـرـ، بـضـعـ خطـوـاتـ أـخـرىـ ويـكونـ بـمـنـجـىـ من هـجـومـ آـخـرـ لـحـجـرـ الكـابـوسـ، لـقـدـ بدـأـ الحـبـلـ يـقاـومـ قـلـيلـاـ الآـنـ، وـلـكـنـهاـ عـلـامـةـ طـيـةـ، فـهـيـ تعـنـيـ أـنـهـ عـالـقـ بـمـحـاذـةـ الـأـرـضـ فـيـ زـاوـيـةـ المـمـرـ المـؤـدـيـ إـلـىـ أـرـشـيفـ الـأـحـيـاءـ. وـلـكـنـ الفـرـيـبـ أـنـهـ طـوـالـ الـطـرـيـقـ، وـحتـىـ وـصـولـهـ، كـانـ كـمـاـ لوـ أـنـ هـنـاكـ مـنـ يـلـقـيـ عـلـيـهـ أـلـوـرـاقـ مـنـ فـوقـ، فـقـدـ كـانـتـ تـسـقطـ أـلـوـرـاقـ أـلـوـرـاقـ عـلـىـ رـأـسـ دـونـ جـوزـيهـ، بـبـطـءـ، وـاحـدةـ، أـخـرىـ، أـخـرىـ، كـوـدـاعـ. وـعـنـدـمـاـ وـصـلـ أـخـيرـاـ إـلـىـ مـنـضـدـةـ الرـئـيـسـ، وـقـبـلـ أـنـ يـفـكـ الـحـبـلـ، أـخـرـجـ مـنـ تـحـتـ الـقـمـيـصـ الـلـفـ الذـيـ التـقـطـهـ عـنـ الـأـرـضـ، وـعـنـدـمـاـ فـتـحـهـ وـرـأـيـ أـنـهـ مـلـفـ الـمـرـأـةـ الـمـجـهـوـلـةـ، كـانـ اـنـفـعـالـهـ شـدـيدـاـ لـمـ يـتـحـ لـهـ سـمـاعـ ضـجـةـ بـابـ الـمـحـفـوظـاتـ، كـماـ لوـ أـنـ هـنـاكـ مـنـ خـرـجـ مـنـهاـ للـتوـ.

كان دون جوزيه قد تعلم مسألة عدم تطابق الزمن النفسي مع الزمن الرياضي بالطريقة نفسها التي أحرز بها في حياته بعض المعرف الأخرى متعددة الفوائد، والفضل في ذلك يعود في المقام الأول، بالطبع، إلى معيشاته الخاصة، فبالرغم من أنه لم يتعدَّ قط كونه كاتباً عادياً، إلا أنه ليس بالشخص الذي يمضي في هذا العالم مجرد رؤية الآخرين يمضون فيه وحسب، فهناك التأثير التكوني لعدد من الكتب والمجلات العلمية الجديرة بالثقة، أو بالإيمان في هذه المناسبة، بل ويمكننا أن نذكر كذلك بعض الروايات التخييلية من النوع التأملي الشعبي، حيث يتم التطرق إلى الموضوع نفسه بأساليب وإضافات تخيلية مختلفة. ولكنه لم يشعر في أي مناسبة سابقة بالانطباع الحقيقي، الموضوعي، الذي لا يقل مادية عن تقلص عضلي مفاجئ، للاستحالة الفعلية لقياس هذا الزمن الذي يمكننا تسميته زمن الروح، مثلاً شعر به في اللحظة التي نظر فيها مرة أخرى، وقد صار في البيت، إلى بطاقة وفاة المرأة المجهولة، وأراد، بصورة غامضة، أن يحدد موقعها في الزمن الذي انقضى منذ أن بدأ بالبحث. وكان يمكن له الرد على السؤال القائل، ما الذي كنتَ تفعله في ذلك اليوم، بأن يقدم إجابة فورية عملياً، إذ يكفيه أن ينظر إلى التقويم، وأن يفكر باعتباره دون جوزيه، الموظف في المحفوظات الذي كان غائباً عن العمل بسبب المرض، ليقول، في ذلك اليوم كنتُ طريح الفراش، مصاباً بالأنفلونزا، ولم اذهب إلى العمل، ولكنه إذا ما سُئل بعد ذلك، أربط

الأمر الآن بنشاطك في التحري، وقل لي متى حدث ذلك، فسيكون عليه عندئذ أن يراجع دفتر الملاحظات الذي يخبيه تحت الفراش، ويرد، كان ذلك بعد يومين من افتتاحي المدرسة. عملياً، باعتماد تاريخ الوفاة المدون على البطاقة التي تحمل اسمها، فإن المرأة المجهولة قد ماتت بعد يومين من الحدث المؤسف الذي حول دون جوزيه النزيف حتى ذلك الحين إلى مجرم، ولكن هذه التأكيدات المتقطعة، تأكيدات الموظف الكاتب المتقطعة مع تأكيدات الباحث، وتأكيدات الباحث المتقطعة مع تأكيدات الكاتب، وهي في الظاهر أكثر من كافية للربط بين الزمن النفسي لأحدهما والزمن الرياضي للأخر، لم توفر الطمأنينة لهذا أو ذاك من الإحساس ببلبلة دوارة. لم يكن دون جوزيه في أعلى درجات سلم مرتفع جداً، ينظر إلى أسفل ويرى كيف أن هذه الدرجات آخذة بالابتعاد أكثر فأكثر، وتزداد ضيقاً إلى أن تختزل في نقطة عند ملامستها الأرض، ولكن حالته كانت كما لو أن جسده، بدلاً من أن يتعرف على ذاته واحداً وكاملاً في تعاقب اللحظات، يجد نفسه موزعاً على امتداد ما تستغرقه هذه الأيام الأخيرة، ونعني الاستغراق النفسي أو الذاتي، وليس الرياضي أو الحقيقي، ومعه يتقلص ويتمدد. إنني سخيف وأخرق تماماً، كان دون جوزيه يؤنب نفسه، فالاليوم يتألف من أربع وعشرين ساعة منذ أراد أن يكون كذلك، وال الساعة تتضمن الآن وكانت تتضمن على الدوام ستين دقيقة، والستون ثانية في الدقيقة هي كذلك منذ الأزل، وإذا ما بدأت ساعة بالتأخير والتقديم فليس بذلك لخل في الزمن، وإنما في الآلة، ولهذا لا بد أن يكون نابضي معطوباً. ابتسם للفكرة برحابة، ليس الخل، حسب ما أعرفه، في آلة الزمن الواقعي، وإنما هو في الآلية النفسية التي تقيسه، وما يتوجب على عمله هو أن أجد مختصاً نفسانياً ليصلاح لي مستناتي. ابتسم مرة أخرى، ثم عاد إلى إبداء الجدية، هناك حل سهل للقضية، بل ما هو

أكثر من ذلك، إذ أنها انحلّت من تلقاء نفسها، فالمرأة ماتت، ولم يعد بالإمكان عمل شيء، ساحتفظ بالملف والبطاقة إذا ما أردتُ الإبقاء على ذكرى ملموسة من هذه المغامرة، وسيكون ذلك بالنسبة إلى المحفوظات العامة كما لو أن المرأة لم تولد في الأصل، وربما لن يحتاج أحد إلى هذه الأوراق، ويمكن لي أن أتركها كذلك في أي مكان من أرشيف الموتى، عند المدخل، إلى جانب أقدم الأموات، فسيان تركها هنا أو هناك، والقصة متشابهة بالنسبة للجميع، ولدت، ماتت، ومن ذا الذي سيهتم الآن بمن كانت، فالأبوان، إذا كانا يحبانها، سيبكيانها لبعض الوقت، ثم يقل بكاؤهما فيما بعد، ثم يتوقفان بعد ذلك عن البكاء، هذا هو المعتاد، والرجل الذي طُلِقت منه لن يكتثر، صحيح أنها قد تكون على علاقة عاطفية، أو عاشرت أحدهم، أو قد تكون على وشك الزواج مرة أخرى، ولكن هذه القصة ستكون قصة مستقبل لا يمكن لها أن تعيش، فليس هناك في العالم من يكتثر للقضية الغريبة للمرأة المجهولة. كان الملف والبطاقة أمامه، وكذلك الثلاث عشرة بطاقة مدرسية، والاسم نفسه مكرراً ثلاثة عشرة مرة، واثنتا عشرة صورة مختلفة للوجه نفسه، صورة منها مكررة، ولكنها جميعها صور ميّة في الماضي، ميّة قبل أن تموت المرأة التي ستصير إليها، إن الصور القديمة تخدعننا كثيراً، فهي توهمنا بأننا أحياه فيها، وهذا غير صحيح، لأن الشخص الذي نتظر إليه فيها لم يعد موجوداً، ولو كان بمقدوره أن يرانا، فلن يتعرف على نفسه فينا، وسيقول، من هذا الذي ينظر إلى بوجه محزون. عندئذ تذكر دون جوزيه فجأة أن هناك صورة أخرى، تلك التي أعطته إياها سيدة الشقة اليمني في الطابق فوق الأرضي، وعلى غير انتظار، وجّد الجواب على السؤال الذي قد يطرحه من يمكن له أن يهتم بالقضية الغريبة للمرأة المجهولة.

لم ينتظر دون جوزيه حتى يوم السبت. ففي اليوم التالي، وبعد

إغلاق المحفوظات العامة، ذهب إلى المصيف ليستعيد الملابس التي أخذها للتنظيف، سمع وهو شارد الذهن المستخدمة المدققة تقول له، تمنعني جيداً في هذا الرفو المتقن، لاحظ، مرّ بأصابعك عليه وقل لي إذا كنت تلحظ أي فرق، يبدو وكأن شيئاً لم يحدث للبنطال، هكذا يتكلم عادة أولئك الذين يرثون بالمظاهر. دفع دون جوزيه الأجر، وضع اللفافة تحت إبطه ومضى إلى بيته ليبدل ملابسه. سيزور سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي، ويريد الظهور بمظهر نظيف ولاائق، مستفيداً، ليس فقط من عملية الرفو المتقدة، وهي تستحق الإطراء فعلاً، وإنما كذلك من خط البنطال الدقيق، وكفي القميص الباهر، والاستعادة الإعجازية لريطة العنق. وكان مستعداً للخروج عندما مرت فكرة مرضية في رأسه، والرأس هو، على حد علمه، العضو الوحيد المفكر في خدمة الجسم، وماذا إذا ما كانت سيدة الشقة اليمنى من الطابق الأرضي قد ماتت أيضاً. الواقع أنها لم تكن تبيع صحة، أضف إلى ذلك أن المرأة لا تحتاج لكي يموت إلا أن يكون حياً، والسبدة صارت في سن... وتخيل نفسه يقرع الجرس، مرة، ثم أخرى، وبعد إلحاح طويل سمع بباب الشقة اليسرى من الطابق فوق الأرضي يفتح وأطلت منه امرأة قائلة، وقد أزعجتها الضجة، لا تُتعب نفسك، فليست هناك أحد، أهي خارج البيت، لقد ماتت، أتفولين ماتت، أجل، بالضبط، ومنى حدث ذلك،منذ حوالي خمسة عشر يوماً، ومن تكون حضرتك، أنا من المحفوظات العامة للسجل المدني، يبدو إذن أن عملكم لا يسير على ما يرام، فأنت من المحفوظات ولا تعرف مع ذلك أنها ماتت. اعتبر دون جوزيه نفسه لجوباً ولكنه آثر أن يحل القضية هنا بالذات، بدلاً من الذهاب لتحمل سفاهة المرأة التي تسكن الشقة اليسرى من الطابق فوق الأرضي. سيدخل إلى المحفوظات ويتفحص فهرس البطاقات ليتأكد من الأمر في أقل من دقيقة، ولا بد أن تكون عاملتا التنظيف قد

أنجزتا عملهما في هذه الوقت، فهما لا تحتاجان إلى وقت طويل، إذ أن عملهما يقتصر على إفراج سلال المهملات، وكنس الأرض ومسحها حتى الخزائن التي وراء منضدة الرئيس، ومن المستحيل إقناعهما، بالحسنى أو بالإكراه، على المضى أبعد من ذلك، فهما تخافان، وتقولان إنهم لن تفعلوا ذلك ولو ماتتا، ماذا سنفعل لهما، فهما أيضاً من يررضون بالمظاهر. بعد أن أخرج بطاقة المرأة المجهولة ليتذكر اسم سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي، عرابتها في العماد، فتح دون جوزيه باب المحفوظات بكل حذر وتفحص المكان، ومثلاً توقع، لم تكن عاملتا التنظيف هناك، دخل، ومضى مسرعاً إلى درج البطاقات وببحث عن الاسم، وقال، ها هي، ثم تنفس الصعداء. رجع إلى البيت، انتهى من ترتيب هندامه وخرج. من أجل ركوب الحافلة التي ستقله إلى مقربة من بيت سيدة الشقة اليمنى في الطابق فوق الأرضي، عليه أن يذهب إلى الساحة المقابلة للمحفوظات، فموقف الحافلة هناك. وعلى الرغم من تقدم الغروب، كان ما يزال يطفو فوق المدينة الكثير من ضوء النهار المتبقى في السماء، لن يبدأ إشعال مصابيح الإنارة العامة قبل عشرين دقيقة على الأقل. وقف دون جوزيه ينتظر الحافلة مع أناس آخرين، وهو لن يستطيع على الأرجح ركوب أول حافلة تمر. وكان ذلك ما حدث بالفعل. ولكن حافلة ثانية ظهرت في الحال ولم تكن ممتلئة. صعد دون جوزيه في الوقت المناسب للحصول على مقعد إلى جانب نافذة. نظر خارجاً، متأنلاً كيف كان تحلل الضوء في الجو، بتأثير بصري غير عادي، يضيء واجهات المباني بلون مائل إلى الحمرة، كما لو أن الشمس بالنسبة لكل واجهة منها تولد في تلك اللحظة. وهناك كانت المحفوظات العامة، ببوابتها القديمة جداً، والدرجات الحجرية الثلاث السوداء المؤدية إلى المدخل، والنواخذة الخمس المتطاولة في واجهتها الأمامية، والعقار كله يبدو كطلل ثابت في الزمن، كما لو أنهما

قد حنطوه بدل أن يرمموه عندما استدعي التاكل المادي ذلك. كانت إحدى العرقلات المرورية تحول دون انطلاق الحافلة. وأحس دون جوزيه بالضيق، فهو لا يريد الوصول في وقت متأخر إلى بيت سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي. فعلى الرغم من الحديث الذى دار بينهما، وكان مليئاً وصريحاً، وبالرغم من تبادلهما الأسرار، منها ما هو غير متوقع من شخصين تعارفاً لتوهما، إلا أنهما لم يصلا إلى درجة من الحميمية تسمح له طرق بابها في أوقات غير مواتية. نظر دون جوزيه مرة أخرى إلى الساحة، كان الضوء قد رحل، وتحولت واجهة المحفوظات العامة فجأة إلى اللون الرمادي، ولكنه رمادي ما يزال منيراً يبدو وكأنه يتحقق، يهتز، وحدث في تلك اللحظة، في الوقت نفسه الذي انتطلقت فيه الحافلة أخيراً، منحرفة ببطء نحو مسرب الدوران، أن ضعد رجل طويل، ضخم، أدرج المحفوظات، وفتح الباب ودخل. فهمهم دون جوزيه، إنه الرئيس، ما الذي يفعله في المحفوظات في مثل هذه الساعة. نهض بفظاظة من المقعد، مدفوعاً برعب مفاجئ ومبهم، قام بحركة متوجلة للخروج، مما جعل الراكب الذي بجانبه يومئ إيماءة مفاجأة عظيمة واستثناء، ثم عاد للجلوس مضطرباً. كان يعرف أن هناك ما يدفعه لأن يهرع إلى البيت، كما لو أن عليه حمايته من خطر، وهو منطق غير معقول دون ريب. فلو افترض أن الرئيس لص، وهذا غير معقول آخر، فإنه لن يدخل من بوابة المحفوظات ليصل إلى بيته. ولكن من غير المعقول كذلك الظن أن الرئيس قد رجع، بعد انتهاء الدوام الرسمي، إلى المحفوظات حيث لا ينتظره أي عمل، مثلاً تبين في هذه القصة من قبل، ويمكن لدون جوزيه أن يضع يده في النار لتأكيد ذلك. والافتراض بأن الرئيس يذهب إلى المحفوظات لاداء ساعات عمل إضافية، هوأشبه إلى هذا الحد أو ذاك، بتخييل دائرة مريعة. غادرت الحافلة الساحة، وواصل دون جوزيه البحث عن

الأسباب العميقة التي دفعته إلى التصرف بذلك الطريقة المشوasha. وانتهى إلى الجزم بأن السبب يكمن في أنه اعتاد، منذ سنوات، على أنه المقيم الليلي الوحيد في مجمع المباني المؤلف من المحفوظات العامة وب بيته، إذا كان هذا البيت جديراً بأن يطلق عليه اسم مبني، وربما كانت التسمية مناسبة من وجهة النظر اللغوية الصارمة، فالمبني هو كل شيء جرى بناؤه، ولكنها تسمية غير ملائمة بخلاف لدلي المقارنة مع ذلك الوقار الهندسي الذي تتضمن به الكلمة كما يبدو، وخصوصاً عندما تنطق بها. وفك في أن وقع رؤية الرئيس يدخل إلى المحفوظات سيكون مثل رؤيته، عند عودته إلى البيت، جالساً على مقعده. الطمأنينة النسبية التي بثتها هذه الفكرة في دون جوزيه، دون حساب الاعتبارات المتصلة بالموضوع والمُحِيرَة أخلاقياً، والاستحالـة الفيزيائية المادية لتسـلـ الرئيس إلى حجرات مـرـؤـسـيهـ الحـمـيمـةـ، والوصـولـ إلىـ حدـ استخدامـ كـرـسيـهـ، انهـارتـ فـجـأـةـ عـنـدـماـ تـذـكـرـ الـبـطـاقـاتـ المـدـرـسـيـةـ للـمـرـأـةـ المـجهـولةـ، وـتـسـاءـلـ إـذـاـ ماـ كـانـ قـدـ خـبـأـهـاـ تـحـتـ الفـراـشـ، أوـ آنـهـ تـرـكـهاـ، بـإـهـمـالـ، مـكـشـوفـةـ فـوـقـ الطـاـوـلـةـ. فـحتـىـ لـوـ كـانـ بـيـتـهـ أـمـيـنـاـ جـداـ مـثـلـ صـنـدـوقـ خـزـنـةـ مـصـرـفـ، وـمـزـودـاـ بـأـقـفالـ مـشـفـرـةـ وـتـصـفـيـعـ مـثـبـتـ فيـ الأـرـضـيـةـ وـالـسـقـفـ وـالـجـدـرـانـ، فـبـاـنـ الـبـطـاقـاتـ يـجـبـ أـلـاـ تـبـقـىـ عـلـىـ الإـطـلـاقـ ظـاهـرـةـ لـلـعـيـانـ. وـوـاقـعـ آنـهـ لـيـسـ هـنـاكـ مـنـ يـمـكـنـهـ أـنـ يـرـاهـاـ لـيـسـ بـالـعـذـرـ المـقـبـولـ لـمـاـ اـقـرـفـهـ مـنـ إـهـمـالـ بـتـرـكـهاـ مـكـشـوفـةـ، وـنـحـنـ نـعـرـفـ، رـغـمـ جـهـلـنـاـ، المـدىـ الـذـيـ صـارـ بـإـمـكـانـ التـقـدـمـ الـعـلـمـيـ الـوصـولـ إـلـيـهـ، فـبـالـطـرـيقـةـ نـفـسـهـاـ الـتـيـ يـمـكـنـ بـهـاـ لـلـمـوـجـاتـ، التـيـ لـاـ يـرـاهـاـ أـحـدـ، أـنـ تـحـمـلـ الـأـصـوـاتـ وـالـصـورـ فـيـ الـهـوـاءـ وـالـرـيـاحـ، قـافـزةـ عـنـ الجـبـالـ وـالـأـنـهـارـ، وـمـجـازـةـ الـمـحـيـطـاتـ وـالـصـحـارـىـ، لـيـسـ هـنـاكـ مـاـ هـوـ اـسـتـثـانـيـ فـيـ آنـ يـكـونـواـ قـدـ اـكـتـشـفـوـاـ أوـ اـخـتـرـعـوـاـ، أوـ سـيـتـمـ ذـلـكـ فـيـ الـغـدـ، مـوـجـاتـ قـارـئـةـ وـمـوـجـاتـ تـصـوـيـرـيـةـ قـادـرـةـ عـلـىـ اـخـتـرـاقـ الـجـدـرـانـ وـتـسـجـيلـ أـحـوالـ وـأـسـرـارـ وـحـيـاءـاتـ

حياتنا اليومية التي نظرناها في مأمن من الكشف، وبتها إلى الخارج. أما إخفاؤها، أي الأحوال والأسرار والحياءات، تحت الفراش، فما زال أكثر أساليب الإخفاء أماناً، وخصوصاً إذا أخذنا في الاعتبار الصعوبة المتزايدة التي تواجهها عادات اليوم حين تريد فهم عادات الأمس. مهما كانت خبرة تلك الموجات القارئة وتلك الموجات التصويرية، فإن دس الأنف بين فراش وسطح سرير هو أمر لا يمكن له أن يدور في رأسها.

من المعروف أن أفكارنا، سواء القلقة منها أو الراضية، وغيرها مما هي ليست هذه ولا تلك، ينتهي بها الأمر عاجلاً أو آجلاً إلى التعب والضجر من نفسها، إنها مسألة منح وقت للوقت فقط، وتركها مستسلمة للهذيان الكسول الذي يأتيها بصورة طبيعية، وعدم الإلقاء إلى المحقة بآية تأملات جديدة، مثيرة للسخط أو الجدل، وتؤخى، قبل كل شيء، أقصى درجات الحذر من التدخل في كل مرة ضد فكرة مستعدة بذاتها إلى الشرود في تشعب جذاب، فرعى، تحويل في الاتجاه. أو التدخل، أجل، ولو بالبحث بدفة رقيقة على الظهر، وكأننا ننصح أفكارنا، امضر من هناك، فأنت تتخذين مساراً صحيحاً. وكان هذا هو ما فعله دون جوزيه عندما برزت في ذهنه تلك الفنتازيا غير المعقولة والتي أوحت بها العناية الإلهية، عن موجة الصورة والموجة القارئة، واستسلم فوراً للتخيّلات، دفعها لأن تُظهر له الموجات الغازية وهي تفتش في كل أرجاء الغرفة في محاولة للعثور على البطاقات، التي تبين له في النهاية أنه لم يتركها فوق الطاولة، وكانت الموجات حائرة وخجلة لأنها لم تستطع تنفيذ الأمر الذي تلقته، أنت تعلمين، إما أن تعثري على البطاقات وتقرئها وتصوريها وإلا فإننا سنستفني عنك ونعود إلى أساليب التجسس التقليدية. وفكر دون جوزيه مع ذلك بالرئيس، ولكنها كانت فكرة فضلة، إنها بساطة الفكرة النافعة للعثور على تفسير مقبول لواقعه عودته إلى المحفوظات خارج أوقات العمل

الرسمية، لقد نسي شيئاً هو بحاجة إليه، لا يمكن أن يكون هناك سبب آخر. ودون وعي منه، كرر الشطر الثاني من الجملة بصوت عالٍ، لا يمكن أن يكون هناك سبب آخر، مستثيرةً بذلك للمرة الثانية ربة الراكب الذي بجانبه، ولا بد أن أفكار هذا الراكب، على ضوء الحركة التي جعلته ينتقل من مكانه، صارت جلية وواضحة، هذا الشخص مجنون، نراهـن بأنه فكر بهذه الكلمات أو بما يشبهها. لم يلحظ دون جوزيه انسحاب جاره من المـقعد، وانتقل دون انقطاع، إلى التفكير بـسيدة الشقة الـيـمنـيـة من الطابق فوق الأرضـيـ، فـهـاـ هوـذاـ يـراـهاـ أـمـامـهـ، عند عـتـبةـ الـبـابـ، هلـ تـذـكـرـيـنـنـيـ، أناـ مـنـ الـمـحـفـوظـاتـ الـعـامـةـ، أـتـذـكـرـكـ جـيـداـ، إـنـيـ قـادـمـ بـخـصـوصـ الـقضـيـةـ السـابـقـةـ، هلـ عـثـرـتـ عـلـىـ اـبـنـتـيـ بـالـعـمـادـ، لـمـ أـجـدـهـ، أـوـ بـكـلـمـةـ أـدـقـ، بـلـىـ، أـجـلـ، لـاـ، أـعـنـيـ أـنـتـيـ أـرـيدـ التـحـدـثـ مـعـ حـضـرـتـكـ، إـذـاـ لـمـ يـكـنـ لـدـيـ مـانـعـ، وـإـذـاـ كـانـتـ لـدـيـكـ لـحظـةـ فـرـاغـ، تـفـضـلـ بـالـدـخـولـ، وـأـنـاـ أـيـضاـ لـدـيـ أـمـرـأـوـدـ أـنـ أـخـبـرـكـ بـهـ، مـنـ مـثـلـ هـذـهـ كـلـمـاتـ تـقـرـيـباـ، كـانـتـ الـجـمـلـ الـتـيـ تـبـادـلـهـاـ دـوـنـ جـوـزـيـهـ وـسـيـدةـ الشـقـةـ الـيـمـنـيـةـ مـنـ الطـابـقـ فـوـقـ الـأـرـضـيـ، عـنـدـمـاـ فـتـحـتـ الـبـابـ وـرـأـتـهـ، آهـ، أـهـذـاـ أـنـتـ، هـتـفـتـ بـذـلـكـ مـشـدـوـهـةـ، فـلـمـ يـسـتـطـعـ بـالـتـالـيـ أـنـ يـسـأـلـهـاـ، هـلـ تـذـكـرـيـنـنـيـ، أناـ مـنـ الـمـحـفـوظـاتـ الـعـامـةـ، وـلـكـنـهـ لـمـ يـسـتـطـعـ كـذـلـكـ أـنـ يـكـبـحـ نـفـسـهـ مـنـ تـوـجـيـهـ السـؤـالـ الـمـلـحـ، وـالـضـاغـطـ، إـلـىـ حـدـ يـبـدوـ مـعـهـ أـنـ حـاجـتـاـ هـيـ المـضـيـ فـيـ الدـنـيـاـ قـائـلـينـ لـكـلـ مـنـ نـصـادـفـهـ مـنـ نـحـنـ، حـتـىـ عـنـدـمـاـ نـكـونـ قـدـ سـمـعـنـاـ لـلـتوـ، آهـ، أـهـذـاـ أـنـتـ، كـماـ لـوـ أـنـ تـعـرـفـهـمـ عـلـيـنـاـ قـدـ أـوـصـلـهـمـ إـلـىـ مـعـرـفـتـاـ وـلـمـ يـعـدـ هـنـاكـ الـمـزـيدـ لـعـرـفـتـهـ عـنـاـ، أـوـ أـنـ القـلـيلـ الـمـتـبـقـيـ لـاـ يـسـتـحقـ عـنـاءـ تـوـجـيـهـ سـؤـالـ جـدـيدـ.

لم يكن هناك أي تبدل في الصالة الصغيرة، والمـقـعـدـ الذي جـلسـ عـلـيـهـ دونـ جـوـزـيـهـ فـيـ المـرـةـ الـأـوـلـىـ، كانـ ماـ يـزالـ فـيـ مـكـانـهـ، وـالـمـسـافـةـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ الطـاـوـلـةـ كـانـتـ هـيـ نـفـسـهـاـ، وـكـانـتـ الـسـتـائـرـ تـتـدـلىـ بـالـطـرـيقـةـ نـفـسـهـاـ،

وتشكل الثياب نفسها، وكانت حركة المرأة أيضاً هي نفسها عندما وضعت يديها على حجرها، اليد اليمنى فوق اليسرى، وضوء السقف وحده هو الذي كان يبدو شاحباً بعض الشيء، كما لو أن الصباح يشرف على نهايته. سألها دون جزئه، كيف هي أحوالك بعد زيارتي الأخيرة، ثم أتب نفسه لقلة لياقتك، بل وللبلادة الواضحة التي يكشف عنها، كان عليه أن يعرف أنه لا يمكن التقييد دائماً بحرفية قواعد التربية الأساسية، بل لا بد منأخذ الظروف بعين الاعتبار، وموازنة كل حالة على حدة، فلتتصور الآن أن المرأة قد ردت عليه وهي تبتسم ابتسامة منفتحة، لحسن الحظ إنني على ما يرام، فمن الناحية الصحية، أنا في أحسن حال، ومن الناحية المعنوية، حالي ممتازة، فمنذ زمن لمأشعر بمثل هذه القوة، فيواجهها هو عندئذ دون تروٍ، أعلمي إذن أن ابنتك بالعماد قد ماتت، ولتر كيف ستلتقي الخبر. ولكن المرأة لم ترد على سؤاله، واكتفت برفع كتفيها دون مبالغة، وقالت، لقد كنتُ أفكر منذ أيام في الاتصال بك هاتفياً على رقم المحفوظات العامة، ولكنني تخليت عن الفكرة، مقدرة أنك ستأتي لزيارة عاجلاً أو آجلاً، لحسن الحظ أنك لم تتصلني، فالمدير يستاء من تلقينا مكالمات هاتفية، يقول إن ذلك يضر بالعمل، أفهم ذلك، إنما كان يمكن حل هذا الأمر بسهولة، إذ يكفي أن أخبره هو نفسه بالمعلومة التي لدى، دون حاجة لأن يخبرك بها. غطى عرقاً بارداً مفاجئ جبهة دون جزئه. فقد انتبه لتوه إلى أنه كان، طوال عدة أسابيع، وهو جاهل بالخطر، وغير مدرك للتهديد، على شفا الكارثة المطلقة المتمثلة في الكشف العلني عن عدم قانونية سلوكه المهني، وعن انتهاكه المتواصل والإرادي لقوانين الحقوق والواجبات الموقرة في المحفوظات العامة للسجل المدني، التي يسود فصولها، وبنودها، وفقراتها، ونقاطها، تعقيد شديد، خصوصاً بسبب لغتها المفرقة في القدم، إلا أن خبرة القرون الطويلة أوجزتها

في سبع كلمات عملية، لا تتدخل في ما لا يطلب منك. أحس دون جوزيه لبرهه بكراهية ساخطة نحو المرأة التي تجلس قبالتة، فشتمها في ذهنه، ونعتها بالعجوز الشمطاء، القميئه، البلهاء، وكم لم يجد طريقة أفضل للانتقام من رعب عنيف ومفاجئ، كان على وشك أن يقول لها، آه، هكذا، تحملني إذن هذا الخبر، فابتكت بالعماد، صاحبة الصورة، قد ماتت. ولكن المرأة سائلته، هل تشعر بالتوزع يا دون جوزيه، أتريد كأساً من الماء، إنني بخير، لا تقليقي، ردّ عليها بذلك وهو يشعر بالخجل من اندفاعه الشرير، سأعد لك شاياً، أشكرك جزيل الشكر، لا حاجة إلى ذلك، لا أريد إزعاجك، وأحس دون جوزيه في هذه اللحظة بأنه أشد خسّة ومذلة من غبار الشارع، كانت سيدة الشقة اليمني من الطابق فوق الأرضي قد خرجت من الصالة، وراح يسمع ضجة أوانى الخزف في المطبخ، مرت بضع دقائق، أول ما يجب عمله هو غلي الماء، ودون جوزيه يتذكر بأنه قرأ في مكان ما، ربما في إحدى المجالات التي يقص منها صور الأشخاص المشهورين، بأنه يتوجب صنع الشاي من ماء مغلي مسبقاً وليس من ماء يغلي، صحيح أنه كان سيتمنى بكأس ماء بارد، ولكن الشاي سيكون أفضل بكثير، فالجميع يعرفون أنه من أجل رفع المعنويات المنهارة، ليس هناك ما يمكن مقارنته بفنجان من الشاي، هذا ما تقوله كل المراجع، الشرقية منها والغربية. ظهرت صاحبة البيت وهي تحمل صينية، فيها طبق من المعجنات، إضافة إلى إبريق الشاي والفنجانين والسكريه، قالت، لم أسألك إن كنت تحب الشاي، لقد فكرتُ فقط في أنه سيكون أفضل من القاهرة في هذه اللحظات، أحب الشاي، أجل يا سيدتي، أحبه كثيراً، هل تريد سكراء، لا أتناوله مطلقاً، وفجأة اعتبره الشحوب، وراح يتعرق، وظن بأن عليه أن ييرر ذلك، لابد أنها آثار إصابة بالأنسفونزا ألمت بي، لو أتنى تلفنت إذن، لما وجدتك في المحفوظات العامة، أي أنه كان على أن أخبر رئيسك بما

جري معي. وفي هذه المرة لم يكِد العرق يبلل راحتي يدي دون جوزيه، ومع ذلك فإن حسن الحظ وحده شاء أن يكون فنجان الشاي على المنضدة، لأنه لو كان في يده في تلك اللحظة، لهوى فنجان الخزف على الأرض، أو لانسكب الشاي، وسلق ساقي الكاتب التعس، مع ما سيتبع ذلك من نتائج بينة، أولها الحرق، ثم العودة بعد ذلك بالبنطال إلى المصيفية. تناول دون جوزيه قطعة معجنات من الطبق، قضمها بأثابة، دون تلذذ، مدارياً بحركة المضغ الصعوبة التي تجدها الكلمات في الخروج من فمه، إلى أن تمكن من صياغة السؤال الذي يشغلة، وما هي تلك المعلومة التي كنتِ تودين إطلاعه عليها. شربت المرأة قليلاً من الشاي، ومدت يدها المترددة نحو طبق المعجنات، ولكنها لم تكمِل الحركة. قالت، هل تتذكر أنتي نصحتك في نهاية زيارتك، عندما كنتَ على وشك الانصراف، بأن تبحث في دليل الهاتف عن اسم ابنتي في العِمَاد، أتذكري ذلك، ولكنني فضلتُ لا أعمل بنصيحتك، ولماذا، هذا أمر يصعب تفسيره، ولكن لا بد أن تكون لديك أسباب لذلك، تقديم أسباب لما يفعله أحدهنا أو لما يمتنع عن فعله هو من أسهل الأمور، وعندما نلاحظ أننا لا نملك الأسباب، أو أننا نملك القليل منها، فإننا نحاول اختلاقها، وفي قضية ابنتك بالعماد، على سبيل المثال، يمكنني أن أعلن الآن بأنني ارتأيت أنه من الأفضل سلوك أطول السبيل وأكثرها تعقيداً، وأنا أتساءل، هل هذا المبرر هو من المبررات الحقيقة أم المختلفة، فلنتحقق على أنه يتضمن من الحقيقة قدر ما يتضمنه من الكذب، وما الجانب الكاذب فيه، كوني أتصرف هنا كما لو أن السبب الذي قدمته لك سبُّوك خدْعَة مطلقة، أليس هو كذلك، لا، لأنني أغفل السبب الذي فضلتُ من أجله ذلك السبيل وليس أي سبيل مباشر سواه، هل لأنك تشعر بالضجر من روتين عملك، يمكن لهذا أن يكون سبباً آخر، وإلى أي نقطة وصلت تحرياتك، حدثيني أولاً عما جرى، ولنضع في

الحسبيان أنتي كنت موجوداً في المحفوظات العامة عندما فكرت في الاتصال بي، وأن الرئيس لا يكترث بتلقي موظفيه اتصالات هاتفية. رفت المرأة الفنجان مرة أخرى إلى شفتيها، ثم وضعته في الصحن دون أن تحدث أدنى صوت، وقالت في الوقت نفسه الذي كانت يداها تعودان فيه إلى حجرها، اليمنى منها فوق اليسرى، لقد فعلت ما طلبت منك أن تفعله، هل اتصلت بها، أجل، وتكلمت معها، أجل، ومتى حدث ذلك، بعد أيام من مجيئك، لم أستطع مقاومة الذكريات، بل إنني لم أعد أستطيع النوم، وماذا حدث، تبادلنا الحديث، لا بد أنها فوجئت، لم تُبدر لي ذلك، ولكنه الأمر الطبيعي بعد كل تلك السنين من البعد والصمت، من الواضح أن معرفتك بالنساء قليلة، لا سيما إذا كان تعيسات، وهل كانت تعيسة، لقد انخرطنا كلتنا في البكاء بعد قليل، كما لو أن كلاً منا مريوطة إلى الأخرى بخيط من الدموع، وهل أخبرتك بشيء عن حياتها، من تعني، هي لك، لا شيء تقريباً، سوى أنها تزوجت، وأنها الآن مطلقة، هذا أمر نعرفه، فهو مثبت في البطاقة، وقد اتفقنا على أن تأتي لزيارتني عندما يتاح لها ذلك، وهل جاءت، حتى اليوم لا، ماذا تعنين، أعني ببساطة أنها لم تأت، ولم تتصل بالهاتف، لم تتصل، وكم يوماً مضى على ذلك، منذ أسبوعين تقريباً، أكثر أم أقل من أسبوعين، أقل على ما أعتقد، أجل، أقل، وماذا فعلت حضرتك، ظننت في البدء أنها غيرت رأيها، وأنها لا تريد في نهاية المطاف تجديد العلاقات القديمة، ولا تريد علاقة حميمة بيننا، وأن تلك الدموع ليست إلا لحظة ضعف لا أكثر، وهو ما يحدث في أحياناً كثيرة، فهناك لحظات في الحياة نطلق فيها العنان لأنفسنا، ولا نتورع عن مكاشفة أول مجھول نصادفه بالأمان، لا تذكر، عندما جئت إلى هنا، إنني أتذكر، ولنأشكرك مطلقاً على ثقتك تلك بي، لا تظن أنني فعلت ذلك بداع الثقة، بل بداع اليأس وحسب، أيًّا كان الدافع، فإنني

أعدكِ بأنكِ لن تتدمى، يمكنكُ أن تطمئني، فأنا شخص متكم، أجل، لدى اليقين بأنني لن أندم، شakraً، ولكن ذلك في الحقيقة، لأنني لم أعد أبالي بشيءٍ، ولهذا أنا موقنة من أنني لن أندم، آه. إن الانتقال من نداء متفعج كهذا إلى استجواب مباشر من نوع، وماذا فعلتِ بعد ذلك، ليس بالأمر السهل، ولهذا احتفظ دون جوزيه بالصمت، منتظراً ما سيأتي. وكما لو أن المرأة عرفت ذلك أيضاً، فسألته، أتريد مزيداً من الشاي، ووافق وهو يُقرّب الفنجان، أرجوكِ. ثم قالت المرأة بعد ذلك، قبل أيام اتصلتُ ببيتها، وماذا جرى، لم يرد أحد على المكالمة، ورددت على آلة التسجيل، وهل اتصلتِ مرة واحدة فقط، أجل، في اليوم الأول مرة واحدة، ولكنني فعلت ذلك عدة مرات في الأيام التالية، وفي مواعيد مختلفة، تلفنت لها في الصباح، وتلفنت في المساء، وتلفنت بعد موعد العشاء، وبلغ بي الأمر حد الاتصال في منتصف الليل، دون جدوى، دون جدوى، ففكّرتُ بأنها ربما تكون خارج البيت، وهل أخبرتكِ بمكان عملها، لا. عند هذا الحد لم يعد بإمكان المحادثة أن تتواصل حول البئر السوداء التي تخفي الحقيقة، وبدأت تقترب اللحظة التي يقول فيها دون جوزيه، لقد ماتت ابنتك في العماد، بل كان عليه أن يقول ذلك منذ دخوله، ولهذا ستهمنه المرأة بالتأخر كثيراً، لماذا لم تخبرني بذلك فوراً، ولماذا وجهت كل هذه الأسئلة ما دمتَ تعرف أنها ميتة، ولن يستطيع عندي الكذب متعللاً بأنه صمتَ لكي لا يصدّها، دون تهيئة مسبقة، ودون احترام، بوجع الخبر المحزن، والحقيقة أن السبب الوحيد لكل هذا الحوار البطيء والطويل هو الكلمات التي قالتها هي عند المدخل، وأنا أيضاً لدي ما أقوله لك، وفي تلك اللحظة افتر دون جوزيه إلى الهدوء المستكين الذي يجعله يرفض إغواء حب الإطلاع على هذا الأمر الصغير عديم الجدوى مهما كان، لقد افتقر إلى الاستكانة الهدائة ليقول لها، لم يعد هناك ما يستحق العناء، فقد ماتت. كان ذلك

كما لو أنه يمكن لما ستخبره به سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي، أن يعيد الزمن إلى الوراء، دون أن يدرى كيف، ليتمكن في اللحظة الأخيرة من اختطاف المرأة المجهولة من الموت. كان دون جوزيه متعباً، ولم تعد لديه الآن من رغبة سوى أن يؤخر لبضع ثوان ما لا مفر منه، فسألها، ألم يخطر لك الذهاب إلى بيتها، وسؤال الجيران إذا ما كانوا قد رأوها، لقد فكرت في ذلك بالطبع، ولكنني لم أفعله، لماذا، لأن ذلك سيجعلني أبدو دخيلة، وقد لا يرافق لها ذلك، ولكنك اتصلت بها هاتفياً، الأمر مختلف. ساد صمت، وبعد ذلك بدأت ملامح وجه المرأة تتبدل، وبدت عليه إمارات الاستفهام، فأدرك دون جوزيه أنها ستسأل، أخيراً، عن المسائل المتعلقة بالقضية التي قادتهاليوم إلى بيتها، وإذا ما كان قد تمكّن من اللقاء بها ومتى، وإذا ما كانت مشكلة المحفوظات العامة قد حلّت وكيف، سيدتي العزيزة، يؤسفني أن أعلمك بأن ابنتك بالعماد قد ماتت، قال دون جوزيه ذلك بسرعة. فتحت المرأة عينيها على اتساعهما، رفعت يديها عن حضنها ونقلتهما إلى فمهما، لماذا، ابنته في العماد، أقول إن ابنته في العماد قد توفيت، وكيف عرفت ذلك، سألته المرأة دون تفكير، فقال دون جوزيه، من أجل هذا وجدت المحفوظات، ثم هز كفيه على الفور وكأنه يقول، ليس الذنب ذنبي، ومتى ماتت، لقد أحضرت البطاقة معى، إذا أردت رؤيتها. مدت المرأة يدها، قربت قطعة الكرتون من عينيها، ثم أبعدتها وهي تتلعثم، نظارتي، ولكنها لم تبحث عنها، فقد كانت تعرف أنها لن تقيدها في شيء، وحتى لو أرادت أن تقرأ فلن تستطيع قراءة ما هو مكتوب هناك، فقد كانت الدموع تحول الكلمات إلى لطخات. قال لها دون جوزيه، إنني متأسف جداً. غادرت المرأة الصالة، تأخرت بضع لحظات، وعندما رجعت كانت تمسح عينيها بمنديل. جلست، سكبت لنفسها شيئاً من جديد، ثم سألت بعد ذلك، هل جئت لتخبرني بموت ابنتي

بالعماد فقط، أجل، هذا لطف كبير من جانبك، لقد فكرتُ ببساطة،  
بأن الواجب يفرض على ذلك، لماذا، لأنني شعرتُ بأنني مدين لك، بأي  
شيء، بالطريقة اللطيفة التي قابلتي وعاملتني بها، ومساعدتك لي،  
وأجابتك على استفساراتي، والآن بعد أن بلغ العمل الذي كلفوك به  
نهايته بقوة الأشياء، لم يعد عليك أن تُتعب نفسك بالبحث عن ابنتي  
في العmad المسكونة، عملياً، أجل، ربما يكونون قد كفواك في  
المحفوظات العامة بالبدء في البحث عن شخص آخر، لا، لا، فمثل هذه  
الحالات نادرة جداً، هذا هو الجيد في الموت، فمعه ينتهي كل شيء،  
ليس الأمر على هذا النحو دائماً، فسرعان ما تبدأ الحروب بين الورثة،  
وضراوات التقاسم، وضريبة الميراث التي لا بد من دفعها، كنت أشير  
إلى ما يخص الشخص الميت نفسه، في هذا الشأن، أجل، معك حق،  
كل شيء ينتهي، إنه لأمر مثير للفضول، أنت لم تخبرني قط عن السبب  
الذي دفع المحفوظات العامة للبحث عن ابنتي في العmad، أسباب مثل  
هذا الاهتمام الكبير بها، مثلاً قلت حضرتك للتو، لقد حلَّ الموت كل  
المشاكل، كانت هناك مشكلة إذن، أجل، وما هي، لم يعد الأمر يستحق  
الحديث فيه، لقد فقد الموضوع أهميته، أي موضوع، فقاطعها دون  
جوزيه يائساً، أرجو منك عدم الإلحاح، وضعفت المرأة الفنجان في  
الصحن بجفاء وقالت وهي تنظر مواجهة إلى الزائر، لقد كنا هنا، أنا  
وأنت، في ذلك اليوم وفي هذا اليوم، وكان أحدهما يقول الحقيقة منذ  
البداية وطوال الوقت، بينما كان الآخر يكذب منذ البداية وطوال  
الوقت، أنا لم أكذب، ولستُ أكذب الآن، اعترف إذن بأنني كنتُ أكلمك  
طوال الوقت بصدق، بصرامة، وبافتتاح، وبأنه لم يخطر لكَ قط أن  
هناك كذبة واحدة في كلماتي، أعترف بذلك، أعترف بذلك، إذا كان  
هناك كاذب في هذه الغرفة إذن، وأنا متأكدة من وجوده، فلن أكون أنا،  
لستُ كاذباً، أعتقد أنك لستَ كذلك بطبيعتك، ولكنكَ كنتَ تكذب مد

جئتَ هنا أول مرة ومنذ ذلك الحين واصلتَ الكذب، لا يمكن لحضرتك أن تفهمي الأمر، ولكنني أفهم بما يكفي لكي لا أصدق بأن المحفوظات قد أرسلتك يوماً للبحث عن ابنتي في العمار، إنك مخطئة، أؤكد لكِ بأنها أرسلتني، إذا لم يكن لديكَ ما تقوله لي، وإذا كانت هذه هي كلمتك الأخيرة، فاخترج إذن من بيتي الآن فوراً، كفى، هيا، وقد نطقـت المرأة الكلمتين الأخيرتين بما يشبه الصراخ، ثم بدأت بعد ذلك بالبكاء. نهض دون جزئـه، مشـى خطـوة باتجـاه الـباب، ثم عاد للجلوس وقال، اعذرـينـي، لا تبـكي، سأـخبرـكـ بكلـ شيءـ.

٦

عندما انتهيتُ من الكلام، سألتني، وماذا تفكّر أن تفعلَ الآن، فقلتُ، لا شيء، هل تفكّر في العودة إلى مجموعاتك من الشخصيات المشهورة، لستُ أدري، ربما، فلا بد لي من أن أشغل وقتِي بشيءٍ ما، وصمتُ قليلاً وأنا أفكّر ثم أجبتُ، لا، لا أظن ذلك، لماذا، إذا ما أمعنا النظر، فإن حياة هؤلاء الناس تمضي على وتيرة واحدة دائمًا، لا تتبدل أبداً، يظهرون، يتكلّمون، يستعرضون أنفسهم، يبتسمون للمصورين، وهمقادمون أو مسافرون على الدوام، مثل أي واحد منا، أنا لست كذلك، بل أنت وأنا والجميع، كلنا نستعرض أنفسنا، وكلنا نتكلّم أيضاً، ونخرج من البيت ونعود إليه أيضاً، بل إننا نبتسم أحياناً، والفرق هو أنه ليس هناك من يهتم بنا، لا يمكن لنا أن نكون جميـعاً مشهورين، هذا سيُسعدك، تصور أن تكون مجموعتك بحجم المحفوظات العامة، بل ستكون في هذه الحالة أكبر منها بكثير، فالمحفوظات لا يهمها أن تعرف إلا متى نولد، متى نموت، وبعض الأشياء القليلة الأخرى، إذا ما تزوجنا، تطلقا، ترملنا، وإذا ما تزوجنا ثانية، ولا يهم المحفوظات في شيء إذا ما كنا في أشياء ذلك كلّه سعداء أو تعساء، السعادة والتعاسة مثل الأشخاص المشهورين، تأتي وتذهب، وأسوأ ما في المحفوظات هو أنها لا تريد أن تعرف من نكون، فتحن لسننا في نظرها سوى قطعة ورق عليها بعض الأسماء وبعض التواريخ، مثل بطاقة ابنتي في العماد، ومثل بطاقة وبطاقتـي، ماذا كنتَ فاعلاً لو أنك التقـيت بها، لا أدري، ربما كنتَ كلمتها، وربما لا، لم أفكـر في ذلك فقط، وهل فكرتَ في أنك

منذ تلك اللحظة التي ستجدها فيها أمامك، لن تعرف عنها أكثر مما كنت تعرفه، أي لا شيء، وأنك إذا ما أردت أن تعرف من هي فعلاً سيكون عليك أن تبدأ البحث عنها من جديد، ويمكن للأمر أن يكون أصعب بكثير إذا ما كانت، على عكس الأشخاص المشهورين الذين يحبون الظهور، لا ترحب في أن يُعثر عليها، هذا صحيح، ولكن يمكنك، وقد ماتت الآن، أن تواصل البحث عنها، لأن ذلك لم يعد بهما، تست أفهمك، أنت لم تتوصل حتى الآن، بالرغم من كل الجهد التي بذلتها، إلا لعرفة أنها كانت ترتاد مدرسة، وهي بالنسبة المدرسة نفسها التي وجهتك إليها، ولدي صور، الصور هي أوراق أيضاً، يمكننا أن نتقاسمها، ونظن أنها تقسمها هي نفسها، جزء لك، وجزء لي، لا يمكن عمل ما هو أكثر من ذلك، كان هذا ما قاتته لها في تلك اللحظة، معتقداً أنتي أغلق القضية، ولكنها سألتني، لماذا لا تتكلم مع والديها، مع زوجها السابق، وما الفائدة، لمعرفة شيء آخر ما عنها، كيف كانت تعيش، ماذا كانت تعمل، الزوج لن يرغب في مثل هذه المحادثة، فالمaries التي جرت ومضت لا تدير الطواحين، ولكن الأبوين سيرغبان، فالآباء لا يرفضون مطلقاً الحديث عن أبنائهم، حتى عندما يكون الأبناء ميتين، هذا ما لاحظته، مادمت لم أذهب من قبل، فلن أذهب الآن، وقد كان بإمكانني من قبل أن أدعى بأنني مبعوث من المحفوظات العامة، ما هو سبب موت ابنتي في العماد، لست أدرى، وكيف ذلك، يجب أن يكون سبب الوفاة مسجلاً في المحفوظات، نحن لا نثبت في البطاقات سوى الوفعات، وليس أسبابها، ولكن لا بد أن يكون هناك إشعار بالوفاة، فالآباء مجبرون قانونياً على تأكيد الوفاة، ولا يقتصرن على القول إنها ميتة عندما تكون قد ماتت، لم تكن هناك بين الأوراق التي وجدتها في أرشيف الموتى إشارة إلى شهادة الوفاة، ولماذا ذلك، لست أدرى، لا بد أنها سقطت في الطريق عندما حفظوا الملف، أو أنها سقطت مني،

إنها مفقودة، والبحث عنها سيكون أشبه بالبحث عن إبرة في كومة من القش، وأنت لا يمكنك أن تصوري ما يعنيه ذلك، يمكنني تصوره من خلال ما روَيْتُه لي، لا يمكنك تصوره، مستحيل، إلا إذا كنت هناك، مadam الأمر كذلك، فإن لديك سبباً وجياً للتحدث مع الآبوين، قل لهما إن شهادة الوفاة قد ضاعت، للأسف، في المحفوظات، وإنك تريد استكمال الملف وإلا فإن الرئيس سيعاقبك، أظهر التذلل والقلق، واسأله عنمن كان الطبيب الذي عالجها، وأين ماتت، وبأي داء، وإذا ما حدث ذلك في البيت أم في المستشفى، اسأل عن كل شيء، وأظن أن التكليف ما زال بحوزتك، أجل، ولكن لا تنسِ أنه مزيف، لقد انطلت الحيلة علىِّ، وستتطلّي عليهم أيضاً، ما دام لا وجود لحياة دون أكاذيب، فلا يأس كذلك في وجود خدعة في هذه الميتة، لو أنك كنت موظفة في المحفوظات العامة، لعرفت أنه ليس بالإمكان خداع الموت، ولا بد أنها خلصت إلى الاعتقاد بأنه ليس هناك ما يُرجى من الرد علىِّ، وقد كانت على حق تماماً في ذلك، لأن ما قلته لم يكن أكثر من عبارة مبهргة، جوفاء، من تلك التي تبدو عميقه دون أن تتضمن في أعماقها شيئاً. بقينا صامتين نحو دقيقتين، وكانت تنظر إلىِّ بوجه مؤنِّب، كما لو أنني قدمت لها وعداً رسمياً ثم خذلتها في اللحظة الأخيرة. لم أعد أدرى أين أتواري، وكانت إرادتي تدفعني إلىِّ أن أتمنى لها ليلة سعيدة وأنصرف من هناك، ولكن ذلك سيبدو فظاظة حمقاء، وعدم لياقة لا تستحقها السيدة المسكينة، وهي تصرفات لا تشكل في الواقع جزءاً من شخصيتي، لقد تربيت هكذا، صحيح أنتي لا أتذكر أنتي تناولت الشاي يوماً في صфи، ولكن النتيجة انتهت إلى أن تكون نفسها. حين كنت أفكِّر في أنه من الأفضل تقبل الفكرة، ويدِّع البحث مجدداً في اتجاه معاكس لبحثي الأول، أي انطلاقاً من الموت باتجاه الحياة، قالت هي، لا تكثر بما قلته، إنها ترهات تخرج من رأسي، فعندما نبلغ سن

الشيخوخة ونتبه إلى أن الزمن آخذ بالنفاد، نبدأ بالتصور بأننا نملك في يدنا العلاج لكل شرور العالم، وبصيغنا القنوط لأن الآخرين لا يولوننا اهتمامهم، لم تراودني هذه الفكرة قط، سيأتي دورك، فأنت ما تزال شاباً، أنا شاب، إنني في الثانية والخمسين، إنك في زهرة العمر، لا تلعب بي، ابتداء من سن السبعين فقط تصير حكيمًا، ولكن ذلك لن يفيدك، أنت أو سواك، في شيء عند ذلك. ولأنه ما زال أمامي وقت طويل لبلوغ تلك السن، فإبني لم أعرف إذا ما كان على أن أوفقها الرأي أم لا، ولهذا رأيت أنه من الأفضل لي أن أصمم. لقد صار بإمكانني الآن داعها، فقلت، لن أسبب لك مزيداً من الإزعاج،أشكرك على صبرك ولطفك، وألتمس منك المعدرة، فالسبب في هذا كله هو تلك الحماقة التي خطرت لي، إنها عبٰية لا يُعرف لها مثيل، فأنت كنت تعيشين بهدوء في بيتك، وجئت إلى هنا بالتحايل، بقصص ملقة، إنني أحمر خجلًا وأنا أذكر بعض الأسئلة التي وجهتها إليك، على عكس ما تقوله، أنا لم أكن أعيش بهدوء، كنت وحيدة، واطلاعك على بعض الأشياء الحزينة من حياتي كان أشبه بإزاحة ثقل عن كاهلي، لحسن الحظ أنك تفكرين على هذا النحو، هكذا أفكر، ولا أريدك أن تفادر قبل أن أتقدم إليك بطلب، قولي ما تشاءين، سأفعل كل ما أستطيعه لإرضائك، ليس هناك من هو قادر على فعل ذلك خيراً منك، وما سأطلبه بسيط، أن تزورني بين حين وآخر، عندما تتذكر ذلك وترغب فيه، وإن لم يكن للحديث عن ابنتي في العماد، سأتي لزيارتكم بكل سرور، وسيكون في انتظارك فنجان من القهوة أو الشاي على الدوام، هذا سبب جيد للمجيء، ولكن الأسباب الأخرى ليست قليلة، شكراً جزيلاً، وأعود لأكرر القول بألا تهتم بفكري تلك، فهي في نهاية المطاف حمقاء مثلما كانت فكريتك، سوف أفكر في الأمر. قبلت يدها كما في المرة الأولى، ولكن حدث عندئذ شيء لم أكن أتوقعه، فقد بقىت

ممكّة ببدي ورفعتها إلى شفتيها. لم تفعل امرأة معي مثل هذا من قبل قط، وقد أحسست بالأمر كصدمة في الروح، اختلاجة في القلب، وما زلت حتى الآن، في الفجر، بعد مرور عدة ساعات، وبينما أنا أكتب أحداث اليوم في الدفتر، أنظر إلى يدي اليمنى وأجدها مختلفة، وإن كنتُ عاجزاً عن تحديد جوهر الاختلاف، لا بد أنه شيء داخلي، وليس خارجياً. توقف دون جوزيه عن الكتابة، ترك قلم الرصاص، وخبأ في الدفتر، بحرص، بطاقات المرأة المجهولة المدرسية التي تبين له أخيراً أنها بقيت على الطاولة، ثم دسها بين الفراش وسطح السرير، عميقاً. بعد ذلك سخن الطبيخ المتبقى من الغداء وجلس لتناول العشاء. كان الصمت شبه مطبق، تكاد لا تلحظ ضجة السيارات القليلة التي ما زالت تجوب المدينة. وما كان يسمع بصورة أفضل هو صوت مخنوق، يعلو وينخفض مثل كيرناء، ولكن دون جوزيه كان معتمداً على هذا الصوت، إنه تفس المحفوظات. اندس دون جوزيه في السرير، ولكنه لم يكن يشعر بالنعاس. كان يتذكر أحداث اليوم، المفاجأة المثيرة في رؤية الرئيس يدخل إلى المحفوظات في ساعة غير مألوفة، المحادثة الهائجة مع سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي، والتي ترك دليلاً عنها في دفتر الملاحظات، دليلاً أميناً في المعنى، وإن لم يكن كذلك في الشكل، وهو ما يمكن فهمه وغفرانه لأن الذاكرة، وهي شديدة الحساسة ولا يررق لها أن تُضبط في خطأ، تميل إلى ملء فجوات النسيان باختلافات من واقع خاص، مفعولة بجلاء، ولكنها متاخمة إلى هذا الحد أو ذاك للأحداث التي لم يبق منها إلا ذكرى غامضة، مثل ما يتبقى من أثر مرور ظل. كان يبدو لدون جوزيه أنه لم يصل بعد إلى نتيجة منطقية لما يحدث، وأنه ما زال عليه أن يتخذ قراراً وإن الكلمات الأخيرة التي قالها لسيدة الطابق فوق الأرضي، سوف أفك في الأمر، لن تكون سوى وعد باطل، من تلك الوعود التي

تظهر دائمًا خلال الأحاديث دون أن يتوقع أحد إنجازها. كان دون جوزيه يتلهف للدخول في إغفاءة عندما برز له فجأة، ومن يدري من أي عمق، الحال المنشود، مثل طرف خيط آريان جديد، يوم السبت سأذهب إلى المقبرة، قال ذلك بصوت عالٍ. دفعه الانفعال إلى الجلوس بفتة في السرير، ولكن صوت الحس السليم الهدئ هرع لنصحه، بما أنك قررت ما الذي ستفعله، فتمدد ونم، لا تكن طفلاً، ولا أظنك ت يريد، في هذه الساعة من الليل، أن تذهب إلى المقبرة وتسلق الجدار، وهذا مجرد كلام بالطبع. انزلق دون جوزيه، منصاعاً، ما بين الملاءات، وغطى نفسه حتى أنفه، ولكنه بقي دقيقة أخرى مفتوح العينين وهو يفكر، لن أستطيع النوم. ولكنه في الدقيقة الثانية كان قد نام.

استيقظ متاخراً، في موعد فتح أبواب المحفوظات تقريباً، فلم يُلح له الوقت لحلاقة ذقنه، ولبس بتعثر متجل وخرج من البيت في جري أرعن، غير لائق بسنّه ومكانته. كان جميع الموظفين، ابتداء من الكتبة الثمانية وحتى نائب المدير، جالسين في أماكنهم، وعيونهم مثبتة على ساعة الجدار، بانتظار أن ينطبق عقرب الدقائق على الرقم اثنى عشر. توجه دون جوزيه إلى مأمور قسمه الذي عليه أن يقدم إليه أذاره الأولية، وطلب منه العذر عن تأخره، لقد نمت نوماً سيئاً، قال مبرراً سلوكه وهو يعلم، من خلال تجربة سنوات طويلة، بأن تفسيراً مثل هذا لن ينفعه في شيء، وكان الجواب الجاف الذي سمعه، اجلس. وبعد ذلك بالضبط، عندما حولت الانزلاق الأخيرة لعقارب الثواني زمن الانتظار إلى زمن العمل، لم يكن دون جوزيه، المذهول من رياضي حذائه اللذين نسي عقدهما، قد وصل إلى منضدته بعد، وهو أمر لحظه المأمور بفتح وسجل الواقعه غير المألوفة في مفكرة اليوم. مضى أكثر من ساعة قبل أن يصل المدير. دخل بملامح مرئية، ومتوجهة تقريباً، مما أدخل الريبة في مزاج الموظفين، إذ يمكن للوهلة الأولى أن يقال

بأنه هو أيضاً نام نوماً سيناً، ولكنه كان في الحقيقة متناقاً كعادته، ذقه حلقة بعنابة، وليس في بدلته تعجيدة واحدة، وليس في رأسه شعرة واحدة في غير مكانها. توقف هنีهة بجانب منضدة دون جوزيه ونظر إليه بصرامة، دون أن ينطق بكلمة واحدة. فبدأ دون جوزيه المقل حركة تبدو غريزية عند الرجال، هي حركة رفع اليد إلى الوجه وفرك الذقن ليرى إذا ما كانت نامية، ولكن الحركة توقفت في منتصف الطريق، وكأنه يستطيع بهذه الطريقة أن يواري ما هو جلي للجميع، إهمال مظهره غير المفتر. وفكر الجميع، التوبيخ يوشك أن ينهاه عليه. توجه المدير إلى منضدته، جلس واستدعى نائبي المدير. وكانت الفكرة العامة التي سادت هي أن أمور دون جوزيه ستتسوء، وإلا لما استدعا الرئيس مرؤوسه المباشرين، فهو يريد سماع آرائهم حول العقوبة القاسية التي يعتزم فرضها، وفكرا الكتبة بسعادة، لقد نفد صبره، وكانوا قد استهجنوا في الآونة الأخيرة المعاملة التفضيلية غير المستحقة التي تلقاها دون جوزيه من الرئيس، وقررروا في دخيلتهم، أن لذلك أن ينتهي. ولكنهم سرعان ما تبينوا أن الأمر لم يكن كذلك. فبينما راح أحد نائبي المدير يأمر الجميع، مأمورين وكتبة، بأن يلتقتوا نحو المدير، كان الآخر يدور حول منضدة الكونتوار ويغلق بوابة الدخول، بعد أن علق على جانبها الخارجي لوحة تقول **مغلق مؤقتاً لضرورات العمل**. مادا هناك، وما الذي سيحدث، هكذا تسأله الموظفون، بمن فيهم نائبا المدير، لأنهما لا يعرفان أكثر مما يعرفه الآخرون، أو ربما يعرفون أكثر بقليل، لأن الرئيس أخبرهما بأنه سيتكلم. وكانت الكلمة الأولى التي قالها اجلسوا. فانتقل الأمر من نائبي المدير إلى المأمورين، ومن المأمورين إلى الكتبة، وحدثت الضجة المحتملة نتيجة تبديل اتجاه الكراسي، ليصبح ظهر كل واحد منهم إلى منضدته، ولكن هذا كله جرى بسرعة، وفي أقل من دقيقة كان الصمت مطبقاً في المحفوظات

العامة. لم يكن يُسمع طنين ذبابية، بالرغم من أن الذباب موجود، بعضه را布ض بسكون في أماكن آمنة، وبعضه الآخر يحتضر في شباك العناكب القذرة في السقف. نهض المدير بتمهل، وبالتمهل نفسه جاب بعينيه الموظفين، واحداً واحداً، وكأنه يراهم للمرة الأولى، أو كما لو أنه يتعرف عليهم بعد غياب طويل، والغريب أن ملامحه لم تعد متوجهة، أو أنها كانت كذلك بمفهوم آخر، وكأن أملأ أخلاقياً يؤرقه. ثم تكلم بعد ذلك، أيها السادة، بصفتي رئيس هذه المحفوظات العامة للسجل المدني، الوريث الأخير لسلالة من المديرين الذين بدأت نشاطاتهم تاريخياً بإيداع أقدم الوثائق المحفوظة في أرشيفنا، وباستخدامي القانوني للصلاحيات المنوحة لي، ومقتدياً بأسلافي الذين سبقوني، نفذت وأشرفت بأعلى قدر من الدقة، على تنفيذ القوانين المدونة التي تنظم سير العمل، دون تجاهل القواليد، بل وضعها نصب عيني في كل وقت. إنني أعي تبدل الأزمنة، وال الحاجة إلى التحديث المستمر في وسائل وأساليب الحياة الاجتماعية، ولكنني أدركُ، مثلما أدركَ جيداً من مارسوا قبلِي إرادة هذه المحفوظات، بأن الحفاظ على الروح، الروح التي سأطلق عليها روح الاستمرارية والهوية العضوية، يجب أن تسمو على أي اعتبار ممكن آخر، وإلا فإننا سنشهد، ما لم نوجه أنفسنا، انهيار البنية الأخلاقية، الذي نواصل تمثيله هنا، كمؤمنين سابقين ولاحقين على الحياة والموت. ولن نعدم من يحتاج لأنَّه لا توجد في هذه المحفوظات العامة ولو آلة كاتبة واحدة، وهذا دون ذكر الأجهزة الأكثر حداثة، ولأنَّ الخزائن والرفوف ما زالت من الخشب الطبيعي، ولأنَّ الموظفين يضطرون إلى غمس ريش كتابتهم في المحابر واستخدام ورق النشاف، ولا بد أن هناك من يعتبرنا متوقفين بصورة مضحكة في التاريخ، ومن يطالب السلطة بالإدخال السريع للتكنولوجيا المتطرفة في خدماتنا، ولكن إذا كان صحيحاً أن القوانين والأنظمة حساسة وسريعة

التأثر لكونها عرضة للتغيير والتبدل في كل لحظة، إلا أن الشيء نفسه لا ينطبق على التقاليد التي هي، بحد ذاتها، سواء بمجملها أو بجواهرها، ثابتة وغير قابلة للتبدل. فلا يمكن لأحد أن يعود إلى الماضي للانطلاق من تقليد ولد في الزمن، وتغذى وتدعم مع الزمن. ولا يمكن لأحد أن يقول لنا إن كل ما هو موجود لم يكن موجوداً، وليس هناك من يجرؤ على الرغبة، وكأنه طفل، في عدم حدوث ما قد حدث. وإذا وجد من يفعلون ذلك فإنهم إنما يبددون وقتهم. هذه هي أسس إدراكنا وقوتنا، هذا هو الجدار الذي أمكن لنا أن نحمي وراءه، حتى يومنا هذا، هوينا حيناً، واستقلالنا الذاتي حيناً آخر. وهكذا يجب علينا أن نستمر. وهكذا سنستمر ما لم تُشر لنا رؤى جديدة إلى حاجتنا لسبل جديدة.

إلى هنا لم يبرز أي جديد في خطاب الرئيس، وإن تكون تلك هي المرأة الأولى التي يسمع فيها داخل المحفوظات العامة شيء يشبه إعلاناً رسمياً للمبادئ. فقد كانت العقلية الموحدة للموظفين تتشكل قبل كل شيء من خلال الممارسة العملية للعمل، التي نظمت منذ الأزمنة الأولى بصراحة ودقة، إلا أنه، في الأجيال الأخيرة، ربما بسبب الإرهاق التاريخي للمؤسسة، تبدت بعض مظاهر التهاون الخطيرة والمستمرة التي نعرفها، والمستقرة حتى على ضوء أشد الأحكام رأفة. فكر الموظفون الذين مُسّوا عليهم المثلوم، بأن هذا هو الموضوع الرئيسي للمحاضرة المفاجئة، ولكنهم سرعان ما تبينوا وهمهم. ولو أنهم كانوا قد انتبهوا جيداً إلى الملامح التعبيرية لوجه المدير، لأدركوا على الفور أن هدفه لم يكن ذا طبيعة انضباطية، ولا الإشارة إلى توبیخ عام، والإل كانت كلماته، في هذه الحالة، دوت مثل ضربات جافة، واكتسى وجهه كله بلامبالاة مزدرية. ولكن هذه العلامات لم تبدُّ مع ذلك في سلوك الرئيس، وإنما بدا عليه ما يكاد يشبه حال من هو معتاد على النصر

دائماً، ووجد نفسه، للمرة الأولى في الحياة، حيال قوة أكبر من قوته. وكانت هناك قلة من الموظفين، خصوصاً نائباً المدير وأحد المأمورين، اعتقدوا بأن الجملة الأخيرة، التي نطق بها هي إعلان عن الإدخال القريب للتحديث الذي كان عملة رائحة خارج جدران المحفوظات العامة، ولكنهم لم يتأخروا كذلك في الاعتراف، بعيرة، بأنهم قد أخطأوا. كان المدير يواصل كلامه، ولكن لا يخدعن أحد نفسه معتقداً بأن الأفكار التي أعرضها ستقودنا ببساطة إلى فتح أبوابنا للمخترعات الحديثة، لأن ذلك ما كان ليحتاج منا إلى التأمل، إذ يكفي استدعاء تقني متخصص في هذه الشؤون، وستتمكن بذلك، خلال أربع وعشرين ساعة، من ملء المكان بالآلات من كل نوع. وبالرغم من شدة تأمله لإعلان ذلك، ومن شدة استفراحكم واستتكاركم، فإن ما ترمي تأملاتي إلى إثارته يؤثر على أحد المظاهر الأساسية في تقاليد المحفوظات العامة، وأعني به، التوزيع المكاني للأحياء والأموات، والفصل المصط manh بينهم، ليس في أرشيفين مختلفين وحسب وإنما كذلك في منطقتين مختلفتين من المبنى. سمع همس خفيف جداً، كما لو أن التفكير المشترك للموظفين المذهولين قد صار مسموعاً، ولا يمكن للأمر أن يكون غير ذلك، لأن أيّاً منهم لم يجرؤ على النطق بكلمة. وواصل المدير، إنني أتفهم انزعاجكم، لأنني أنا نفسي، حين فكرتُ بالأمر، أحسست كما لو أنني أرتكب هرطقة، بل ما هو أسوأ من ذلك، فقد شعرت بأنني أقترف إهانة ضد ذاكرة كل أولئك الذين تولوا، قبلي، موقع القيادة هذا، وضد كل من عملوا في الأماكن التي تشغلونها أنتم الآن، ولكن القوة الحتمية لما هو ظاهر للعيان أضطررت إلى مواجهة ثقل التقاليد، وهي تقاليد اعتبرتها طوال حياتي راسخة لا مجال لتفييرها. إن الوصول إلى هذا الوعي للواقع ليس من صنع القدر ولا هو استجابة لإلهام مفاجئ. ففي مناسبتين، منذ أن صرتُ رئيساً للمحفوظات،

وُجِهَتْ إِلَيْيَ تَبَيَّنَاتِ اسْتِبَاقِيَّةِ، وَلَكِنِي لَمْ أَعْرَهَا فِي ذَلِكَ الْحِينَ أَهْمَى  
خَاصَّةً، اللَّهُمَّ إِلَا تَعْامِلِي مَعَهَا بِطَرِيقَةٍ لَا يُمْكِنِنِي إِلَّا أَصْنَفُهَا عَلَى  
أَنَّهَا أُولَئِيَّةُ، وَلَكِنَّهَا، وَإِنَّا أَدْرَكَ الْيَوْمَ ذَلِكَ، كَانَتْ تَمَهَّدُ الطَّرِيقَ لِكَيْ  
أَحْتَضِنَ، بِرُوحٍ مَفْتُحَةٍ، إِنذَارًا ثَالِثًا وَجَدِيدًا، سَأَتَجَنِّبُ التَّعْلِيقَ عَلَيْهِ فِي  
هَذِهِ الْمَنَاسِبَةِ، لِأَسْبَابٍ أُرِيَ أَنَّ الْوَاجِبَ يَفْرُضُ إِيقَائِهَا سَرِيَّةً. لَقَدْ كَانَتْ  
الْحَالَةُ الْأُولَى، وَالَّتِي تَحْفَظُونَ جَمِيعَكُمْ بِذِكْرِهَا، عِنْدَمَا اقْتَرَحَ أَحَدُ  
نَائِبِيِّ الْمُدِيرِ، وَهُوَ حَاضِرٌ بَيْنَنَا، بِأَنَّ يَتَمَّ تَنظِيمُ أَرْشِيفِ الْمَوْتِي بِصُورَةٍ  
مَعْكُوسَةٍ، أَيْ بِجَعْلِ الْمَوْتِي الْقَدَمَاءَ أَبْعَدَ وَالْمَوْتِي الْحَدِيثِيَّنَ أَقْرَبَ. وَنَظَرَأُ  
لِحَجمِ الْعَمَلِ الَّذِي يَتَطَلَّبُهُ ذَلِكَ النَّقلُ، وَأَخَذَّ بِعِنْدِ الْاعْتَبَارِ قَلِيلٌ مِنَ الْعَامِلِينَ  
الَّتِي نَعْانِي مِنْهَا، بَدَا الاقتراحُ غَيْرَ قَابِلٍ لِلتَّفْعِيلِ بِالْكَاملِ، وَهَذَا  
مَا أَشْعُرُتُ بِهِ صَاحِبُ الاقتراحِ، وَإِنْ كُنْتُ قَدْ فَعَلْتُ ذَلِكَ بِكَلِمَاتٍ أَفْضَلَ  
نَسِيَانِهَا، وَأَنْ يَتَمَكَّنْ هُوَ بِصُورَةٍ خَاصَّةٍ مِنْ نَسِيَانِهَا أَيْضًا. أَحْمَرَ وَجْهُ  
نَائِبِ الْمُدِيرِ الْمُعْنَى مِنَ السُّعَادَةِ، وَالْتَّفَتَ بِوَجْهِهِ إِلَى الْخَلْفِ مُظْهِرًا  
نَفْسَهُ، ثُمَّ نَظَرَ مُجَدَّدًا نَحْوَ رَئِيسِهِ وَهَزَّ رَأْسَهُ بِحَرْكَةٍ خَفِيفَةٍ، كَمَا لو أَنَّهُ  
يَفْكِرُ، لَوْ أَنَّكَ تُولِي اهْتِمَامَكَ إِلَى مَا يَقَالُ لَكَ. وَوَاصَلَ الْمُدِيرُ كَلَامَهُ، لَمْ  
أَسْتَطِعْ أَنْ أَسْتَوْعِدَ آنِذَاكَ بِأَنَّهُ وَرَاءَ فَكْرَةٍ تَبَدُّو سَخِيفَةً، وَهِيَ كَذَلِكَ  
بِالْفَعْلِ إِذَا مَا حَكَمْنَا عَلَيْهَا مِنَ الْوَجْهَةِ الْعَمَلِيَّةِ، يَنْبَضُ حَدْسُ بَشِيءٍ  
ثُورِيِّ بِالْمُطْلَقِ، صَحِيحٌ أَنَّهُ حَدْسٌ لِإِرَادِيِّ، وَغَيْرُ وَاعٍ، وَلَكِنْ ذَلِكَ لَا يَجْعَلُهُ  
أَقْلَى فَعَالِيَّةً. وَصَحِيحٌ أَيْضًا أَنَّهُ لَا يَمْكُنُ انتِظَارُ أَنْ يَجْمُودَ رَأْسُ نَائِبِ  
مُدِيرٍ بِمَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ كَانَ عَلَى الْمُدِيرِ، الَّذِي هُوَ أَنَا، سَوَاءٌ  
بِمَقْتضِيِّ وَاجِبَاتِ الْمَنْصَبِ الْفَطَرِيَّةِ أَوْ بِفَعْلِ الْخَبْرَةِ، أَنْ يَفْهَمَ عَلَى الْفُورِ  
مَا يَخْفِيهِ السَّخْفُ الظَّاهِرِيُّ الْمُبَاشِرُ لِلْفَكْرَةِ. لَمْ يَنْظُرْ نَائِبُ الْمُدِيرِ هَذِهِ  
الْمَرَةِ إِلَى الْوَرَاءِ، وَإِذَا مَا كَانَ وَجْهُهُ قدْ أَحْمَرَ حَرْجًا، فَإِنْ أَحَدًا لَمْ يَلْحَظْ  
ذَلِكَ، لَأَنَّهُ كَانَ يَطْأَطِئُ رَأْسَهُ. تَوَقَّفَ الْمُدِيرُ عَنِ الْكَلَامِ لِحَظَةٍ لِيَأْخُذَ  
نَفْسًا عَمِيقًا، ثُمَّ تَابَعَ، الْحَالَةُ الثَّانِيَّةُ هِيَ الْمُتَعَلِّقَةُ بِذَلِكَ الْبَاحِثَ عَنِ مَوَادٍ

لها علاقة بشعارات البلاء، الذي اختفى في أرشيف الموتى ولم نعثر عليه إلا بعد مرور أسبوع، وكان على وشك الموت، بعد أن فقدنا كل الآمال بالعثور عليه حياً. وحيث أنها حالة ذات مواصفات عامة، إذ ليس هناك على ما أعتقد من لم يضع مرة واحدة على الأقل في المتأهة، فقد اكتفيتُ باتخاذ التدابير التي تفرض نفسها، فأصدرتُ أمراً داخلياً يقضي بفرض استخدام خيط آريان، وهي تسمية كلاسيكية، وتهكمية أيضاً، إذا ما سمحتم لي باستخدام هذه الكلمة، للحبال الذي احتفظ به في درج منضدي. وما يؤكد صواب هذا الإجراء هو الواقع عدم حدوث حالة مماثلة أو حتى مشابهة منذ ذلك الحين. مع الوصول إلى هذه النقطة، ووفق هذا الاستعراض، يجدر بنا التساؤل عن النتائج التي استخلصتها من قضية الباحث عن شعارات البلاء النائية، وسأقول، بكل تواضع، إنه لو لم تقع مؤخراً بعض الواقائع، ولو أن هذه الواقائع المذكورة لم تستشر في داخلي بعض التأملات، لما كنتُ توصلتُ مطلقاً إلى فهم العبيبة المزدوجة التي يمثلها فصل الأموات عن الأحياء. إنها عببية في المقام الأول من الوجهة التوثيقية، إذا اعتبرنا أن الطريقة الأسهل للعثور على الأموات هي في البحث عنهم حيث يوجد الأحياء، لأن هؤلاء، بحكم كونهم أحياء، يستيقظون دوماً أمام أعيننا، ولكنها عببية أيضاً، في المقام الثاني، من وجهة نظر الذاكرة، فما لم يتواجد الأموات بين الأحياء، فإن الأمر سينتهي بهم عاجلاً أو آجلاً إلى غياب النسيان، وعندما سنحتاج إليهم، وهذا ما سيحدث كما هو معروف على المدى القريب أو البعيد، فإن العثور عليهم سيكون (مدوحاً)، واعذروني لهذا التعبير العامي. يجب أن يكون واضحاً في ذهن جميع من يستمعون إلى هذا، دون تمييز في المراتب الوظيفية أو المقامات الشخصية، بأنني أتكلم في شؤون تتعلق، حسراً، بهذه المحفوظات العامة، وليس بالعالم الخارجي، حيث يجري دفن الأموات،

لأسباب مرتبطة بالحفظ على الصحة البدنية والسلامة الذهنية للأحياء. ولكنني أتجرأ على القول بأن هذا الحفاظ على الصحة البدنية والسلامة الذهنية تحديداً، هو الذي يفرض علينا نحن، من نعم في المحفوظات العامة للسجل المدني، نحن، من نكتب ونحرك أوراق الحياة والموت، أن نجمع الأحياء والأموات في أرشيف واحد، نطلق عليه ببساطة اسم الأرشيف التاريخي، ونجعلهم مجتمعين لا ينفصلون في هذا المكان، لأن القانون والعادات والخوف لا تسمح بمثل ذلك خارج هذه الجدران. وبناء عليه، سوف أوّلُ أمرٍ يتعدد فيه أولاً، أنه ابتداء من تاريخ هذا اليوم، سيبقى الأموات في الأماكن نفسها من الأرشيف التي كانوا يشغلونها وهم أحياء، ثانياً، ستبدأ بصورة تدريجية، ملفاً، ووثيقة وثيقة، إعادة الموتى السابقين، ابتداء من أحدهم عهداً وحتى أقدمهم، إلى الأرشيف الذي سيتحول إلى حاضر الجميع. وأنا أدرك أن النقطة الثانية تحتاج لعشرين السنين كي تتحقق، وأنه لن يتيح لنا، وربما للجيل التالي، أن نشهد اللحظة التي ستعود فيها أوراق الميل الأخير، البالية، التي نخرها العث، وسُودَها غبار القرون، إلى العالم الذي سُحبَت منه بعمل عنف أخير لا مبرر له. وبما أن الموت النهائي هو الثمرة الأخيرة لإرادة النسيان، فسوف يكون بإمكان إرادة التذكر أن تخليد الحياة. ربما كنتم ستتعللون، بركاكة مفترضة، لو أنتي طلبت رأيك، بأن ديمومةً مثل هذه لن تتفع من ماتوا في شيء. وهذه ليست إلا حجة من لا يرى أبعد من أنفه. ففي حالة إبداء رأيك هذا، وكذلك في حالة رؤيتي أنه من الضروري الرد عليه، فإبانتي سوف أوضح بأنني كنتُ أتحدث هنا عن الحياة فقط، وليس عن الموت، وإذا كنتم لم تفهموا هذا من قبل، فلأنكم لن تكونوا قادرين مطلقاً على فهم أي شيء.

حالة التوفير التي استمع بها الحضور للجزء الأخير من الخطاب،

تزعزعت بعنف بسبب سخرية الكلمات الأخيرة. عاد المدير ليكون الرئيس الذي يعرفونه منذ الأزل، الرئيس المقطرس والمهكم، الجازم في حكماته، الصارم في الانضباط، مثلاً قال بعد ذلك بوضوح، من أجل مصلحتكم أنتم فقط، وليس من أجل مصلحتي، يتوجب علي أن أقول لكم إن أسوأ خطأ ترتكبونه على امتداد حياتكم هو أن تعتبروا حديثي إليكم بقلب وعقل منفتحين هو علامة ضعف شخصي أو انقصاص للسلطة الرسمية. وإذا كنتُ لم أقتصر ببساطة على إصدار الأمر، دون تفسيرات، مثلاً يخولني منصبي، فلأنني أريدكم فقط أن تفهموا الأسباب العميقة لقراري، لأنني أرغب فقط في أن يتم تنفيذ العمل الذي ينتظركم بروح من يشعر بأنه يعني شيئاً، وليس باللامبالاة البيروقراطية من تلقى أمراً بجمع أوراق إلى أوراق. الانضباط سيجي في هذه المحفوظات مثلاً كان على الدوام، لا سهو، لا هراء، لا كلمات ليست لها علاقة مباشرة بالخدمة، لا دخول بعد الوقت المحدد، ولا أي إهمال في السلوك الشخصي، سواء في الأسلوب أو المظهر. وفكرون دون جوزيه، هذا موجه إليّ، لأنني لم أحلق ذقني، ولكنه لم يقلق، فقد يتوقف التلميح عند هذا الحد، لكنه طأطاً رأسه على كل حال ببطء شديد، مثل تلميذ لم يحفظ الدرس ويريد التملص من استدعائه إلى السبورة. بدا أن الخطبة قد بلغت منتهاها، ولكن أحداً لم يتحرك، لأن عليهم انتظار الأمر بالعودة إلى العمل، ولهذا فزعوا جميعهم عندما قال المدير منادياً بنبرة قوية وجافة، دون جوزيه، نهض المنادي بسرعة، ما الذي تريده مني، ولم يعد يفكر في أن سبب النداء الفظ هو لحيته النامية، فثمة ما هو أخطر بكثير من تأنيب عادي في طريقه إليه، فهذا هو ما تعلن عنه ملامح الرئيس القاسية، وهو ما بدأت تضج به في رأسه نوبة غمّ رهيبة عندما رأه يتقدم باتجاهه، ويتوقف أمامه، وكاد دون جوزيه أن يفقد القدرة على التنفس، منتظرًا الكلمة الأولى مثلاً ينتظر

المحكوم بالإعدام سقوط شفرة المصلحة، أو شد حبل المشنقة، أو انطلاق رصاص فصيلة الإعدام، وعندئذ قال الرئيس، هذه اللحية. ثم أدار ظهره، وأوْمأَ إلى نائبه للبدء في العمل. لقد تبدى في وجهه الآن شيء من الرضى، لمحه غريبة من السكينة، كما لو أنه هو أيضاً قد وصل إلى نهاية مهمة ما. لن يأتي أحد ليناقش مع دون جوزيه هذه الانطباعات، أولاً لكي لا يملأ له رأسه بمزيد من الأوهام، وثانياً لأن الأمر واضح. ولا كلمة واحدة ليست على علاقة مباشرة بالعمل.

الدخول إلى المقبرة يتم عبر بناء قديم تكاد واجهته أن تكون أخاً توأمًا لواجهة المحفوظات العامة للسجل المدني. ففيها الدرجات الحجرية السوداء الثلاث نفسها، والبوابة القديمة في الوسط نفسها، والنوافذ الخمس المطلولة في الأعلى نفسها. ولولا البوابة الخارجية الكبيرة ذات المصراعين المجاورة للمقدمة، فإن الفرق الكبير سيكون في اللوحة المعلقة فوق بوابة الدخول، وهي مكتوبة كذلك بحروف من الملاط، وتقول المقبرة العامة. البوابة الكبيرة مغلقة منذ سنوات طويلة، حين تبين أن الدخول منها لم يعد عملياً، ولا يفي تماماً بالهدف الذي كُرست له، وهو السماح بدخول مريض ليس للموتى ومرافقهم وحسب، وإنما كذلك للزائرين الذين سيأتون لزيارة أولئك الموتى لاحقاً. ومثلاً في كل مقابر هذا العالم وأي عالم آخر، بدأت المقبرة كشيء صغير جداً، قطعة أرض مقتضبة خارج ما كان يشكل جنين المدينة، مفتوحة لهواء الأرياف الطلق، ولكنها فيما بعد، مع مرور الزمن، ومثلاً هو مقدر، لسوء الحظ، راحت تنمو، وتنمو، وتمو، إلى أن تحولت إلى المقبرة الهائلة التي هي عليها اليوم. في البدء كان كل شيء محصوراً بسور، وطوال أجيال، كلما أخذت الفسحة الداخلية تضيق على سكن الموتى أو حركة الأحياء العملية، كان يحدث الشيء نفسه الذي يجري في المحفوظات العامة، تُهدم الجدران ويُعاد بناؤها إلى الوراء قليلاً. وفي أحد الأيام، وهذا مضى عليه حوالي أربعة قرون، خطرت للقيم على المقبرة في ذلك الحين فكرة فتحها من كل الجهات، باستثناء

الجهة المطلة على الشارع، متذرعاً بأنها الطريقة الوحيدة لتشييط العلاقة العاطفية بين من هم في الداخل ومن هم في الخارج، والتي كانت قد تقلصت آنذاك، وهو ما يمكن لأي شخص أن يتحقق منه إذا ما دقق في الإهمال الذي كانت تعانيه القبور، وخصوصاً القديمة منها. وكان ذلك القِيم يعتقد بأن الجدران، على الرغم من فائدتها الإيجابية من الناحية الصحية والتجميلية، إلا أنها تنتهي إلى إشاعة تأثير خبيث ياطلاقها أجنهة النسيان، وهو ما يجب ألا يفاجئ أحداً، إذا ما تمثلنا الحكمة الشعبية المعروفة مذ صارت الدنيا دنيا، بأن القلب لا يشعر بما لا تراه العين. لدينا أسباب كثيرة للاعتقاد بأن دوافع ذات جذر داخلي فقط، هي التي قادت رئيس المحفوظات إلى اتخاذ قرار توحيد أرشيفي الموتى والأحياء، مخالفًا بذلك التقاليد والروتين، ليدمج بهذه الطريقة المجتمع البشري في المنقطة التوثيقية المحددة ضمن صلاحياته. ولهذا يصير من الصعب علينا تفهم التفاسع اللاحق في إبراز الدرس الريادي لقيمة مقبرة باش وبدائي، وقليل الذكاء دون شك، مثلاً هو طبعي في حرفته وفي زمانه، ولكنه ذو حدس ثوري، والأدهى من كل ذلك، ونحن نسجله بحزن، أنه لا يوجد على قبره لوعة وقورة، تدل الأجيال اللاحقة على مؤثرته. بل على العكس من ذلك، فمنذ أربعة قرون تُوجّه اللعنات، والشتائم، والافتراط، والأهابي إلى ذكرى ذلك المجدد التعس، واعتباره المسؤول التاريخي عن الوضع الحالي للمقبرة الأثرية، الذي يصفونه بالكارثة الوخيمة والفوضوية، خصوصاً وأن المقبرة العامة لم تبق دون جدران تحيط بها فقط، بل صار من المستحيل أن يشيد لها سور في أي يوم من الأيام. فلنوضح الأمر بصورة أفضل. كنا قد قلنا سابقاً بأن المقبرة قد نمت، ولم يحدث ذلك طبعاً بفضل قدرتها الذاتية على التكاثر، كما لو أن الموتى، واسمحوا لي بهذا المثال المشؤوم، راحوا ينجبون أمواتاً دون حساب، وإنما لأن المدينة

كانت تزايد سكانياً فتزايد بالتالي قبورها أيضاً. عندما كانت المقبرة ما تزال محاطة بسور، حدث أكثر من مرة، في فترات متالية، تلك الظاهرة التي سيُطلق عليها فيما بعد، بلغة البيروقراطية البلدية، طفرات التوسيع السكاني العمراني. وشيئاً فشيئاً بدأت الحقول الفسيحة التي وراء المقبرة بالتحول إلى مناطق مأهولة، ونشأت تجمعات سكانية صغيرة، ضياع، دساكير، إقامات ثانية، راحت تتمو بدورها هنا وهناك، ويتصل بعضها ببعض، ولكنها تركت فيما بينها مع ذلك مساحات فسيحة خالية هي حقول الزراعة، أو الفابات، أو المرعى، أو الأجام. وفي هذه المساحات بالذات راحت تتمدد المقبرة العامة بعد أن هدموا أسوارها. ومثلاً يبدأ فيضان بفمر المستويات المنخفضة، متلوياً في الوديان، ليأخذ بعد ذلك بالارتفاع متناولاً على السفوح، هكذا راحت القبور تتتسخ الأرض، ملحة في أحياناً كثيرة أضراراً خطيرة بالزراعة، حين لم يعد أمام مالكي الأراضي، مدفوعين بالحصار، من مخرج سوى بيع بساتينهم، أو أنها أحاطت في أحياناً أخرى ببساتين التفاحيات، وحقول القمح، والبيادر، وزرائب الماشية، تحت نظر السكان على الدوام، وفي أحياناً كثيرة بطريقة يمكن وصفها بالباب مقابل الباب. إذا ما نظر إلى المقبرة العامة من الفضاء، فإنها تبدو أشبه بشجرة مطروحة أرضاً، جذعها قصير وثخين، تشکله النواة الأصلية للمدافن، ومنه تتفرع أربعة أغصان غليظة، متباورة المنسوب، ولكنها تتشعب بعد ذلك في تفرعات متواالية، تمتد حتى تضيق عن البصر، مشكلة، على حد قول شاعر ملهم، شجرة وارفة يختلط فيها الموت بالحياة، مثلما تختلط على الأشجار الحقيقة العصافير بالأوراق.

هذا هو السبب الذي أدى إلى التوقف عن استخدام البوابة الرئيسية للمقبرة العامة كمدخل للمواكب الجنائزية. لم تعد البوابة تفتح إلا في أوقات متباعدة، عندما يتقدم باحث متخصص بالأحجار القديمة، بعد

أن يكون قد درس نصباً جنائياً من أزمنة المقبرة الأولى، بطلب تصريح لاستسخ بعض القوالب، مع ما يتبع ذلك من إحضار مواد أولية، مثل الجص وألياف القنب والأسلاك، ومواد تكميلية في بعض الأحيان، مثل التقاط صور فوتوغرافية دقيقة وحساسة، من تلك التي تتطلب مصابيح إضاءة، وكشافات، وبطاريات، وأجهزة قياس شدة الضوء، ومظللات ومعدات أخرى لا يسمع، من أجل عدم تشويش العمل الإداري، بإدخالها من الباب الصغير الذي يصل داخلياً بين المبني الإداري والمقبرة.

على الرغم من هذا التراكم المفرط للتفاصيل، التي ربما اعتُبرت بلا معنى، من حيث أن الغابة، في عودة إلى المقارنات النباتية، تحول دون رؤية الأشجار، وهناك احتمال كبير بأن أحد مستمعي هذه القصة، من المستمعين المتيقظين والمهتمين، ومن لم يفقدوا الإحساس بمطلب تنظيمي متواتر لعمليات ذهنية محددة، عبر المنطق المكتسب من المعرف بصورة خاصة، نقول إن هناك احتمالاً كبيراً بأن ذلك المستمع سيقف جديراً ضد وجود، بل ضد تعميم مثل هذه المقابر غير المنضبطة والهديانية، التي توشك أن تصل إلى السير، كتفاً إلى كتف تقريباً، مع الأماكن التي خصصها الأحياء لاستخدامهم الخاص، مثلاً هي البيوت، والشوارع، والساحات، والحدائق والأماكن العامة الأخرى، كالمسارح، ودور السينما، والمقهى، والمطعم، والمستشفيات، ومصحات الأمراض العقلية، ومفوضيات الشرطة، وحدائق الأطفال، والمناطق الرياضية، وموقع المهرجانات والمعارض، ومواقف السيارات، والمتاجر الكبرى، والحوانيت الصغيرة، والأزقة، والحوالى، والجادات. وانه، على الرغم من تفهم الحاجة الماسة لنمو المقبرة العامة، في تتناسب تكافلي مع تطور المدينة وتزايد سكانها، يرون أن الحيز المخصص للراحة النهائية يجب أن يخضع لحدود صارمة وفق أنظمة صارمة. فقطمعة

أرض عادبة مريعة ذات جدران عالية، دون زخارف أو فخامة في الزينة المعمارية، ستكون أكثر من كافية، بدل هذا الأخطبوط الضخم، وهو في الحقيقة أشبه بالأخطبوط منه بالشجرة، مهما سبب ذلك من آلام للتخيالات الشعرية، الذي يتمدد خارجاً بأذرعه الثمانية، الستة عشر، الاثنين والثلاثين، الأربعية والستين، وكأنه يريد احتواء العالم بأسره. وان الأسلوب السليم المعول به في البلدان المتحضرة، مع مزايا ثباتها التجارب، يعمد إلى إبقاء الأجساد تحت التراب لبعض سنوات، تكون خمس سنوات عموماً، يتم في نهايتها، باستثناء حدوث معجزة عدم التفسخ، استخراج القدر القليل المتبقى من الجسد بعد تعرضه للتآكل بفعل الكلس الحي وهضم الديدان، من أجل إفساح المجال لشاغلين جدد. وفي البلدان المتحضرة لا وجود لهذه الممارسة العقيبة المتمثلة في الأماكن الأبدية، ولا لهذه الفكرة التي ترى أنه يجب عدم المس بأي قبر إلى الأبد، كما لو أنه يمكن للموت أن يكون سرمدياً ما دامت الحياة السرمدية غير ممكنة.وها هي النتائج ظاهرة للعيان، متمثلة في هذه البوابة المحكومة بالإغلاق، وبفوضى الحركة الداخلية، والتفاف الجنازات الذي يصبح أطول فأطول للدوران خارج المقبرة العامة قبل أن تصل إلى مستقرها، في أقصى أي واحد من أذرع الأخطبوط الأربعية والستين، والتي لا يمكن بلوغها دون الاستعانة بدليل يتقدم الجنائز. وبالطريقة نفسها التي في المحفوظات العامة للسجل المدني، مع أنه، بسبب نسيان مؤسف، لم تجر الإشارة إلى هذه المعلومة في حينه، فإن الشعار غير المكتوب لهذه المقبرة العامة هو كل الأسماء، بالرغم من أنه لا بد من الاعتراف، في الواقع، بأن هاتين الكلمتين تتطبقان أكثر على المحفوظات، لأن الأسماء كلها موجودة فيها بالفعل، أسماء الأموات أو أسماء الأحياء على السواء، أما المقبرة، وبسبب طبيعتها كمستقر آخر ومستودع آخر، فعليها أن ترتضي دوماً بأسماء

الميتين فقط. ومع ذلك، فإن هذه البدائية الرياضية غير كافية لإسكات القائمين على المقبرة العامة، الذين يهزون أكتافهم حيال ما يسمونه النقص العددي الظاهري، ويعلّقون، مع الزمن والصبر سينتهي الأمر بالجميع هنا، فمحفوظات السجل المدني، إذا ما نظرنا إلى الأمر بتمعن، ليست سوى راقد للمقبرة العامة. ولا حاجة للقول إن المحفوظات العامة ترى في وصفها بالراقد إهانة مشينة. وبالرغم من هذه الخصومات، وهذه المنافسات المهنية، فإن العلاقات بين موظفي المحفوظات والمقبرة هي، بكل وضوح، ودية، وتقوم على الاحترام المتبادل، وذلك لأنهم في العمق، فضلاً عن التعاون المؤسسي الذي يضطربون إليه من خلال التواصل الرسمي والتقارب الموضوعي لأنظمتهم الخاصة، يعرفون أنهم إنما يحفرون في طرفي الكرم نفسه، هذا الكرم الذي يدعى حياة ويقع بين العدم والعدم.

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يذهب فيها دون جوزيه إلى المقبرة العامة. فالحاجة البيروقراطية للتأكد من بعض الإجراءات، توضيح بعض التناقضات، مقارنة بعض البيانات، تدقيق بعض الاختلافات، تضطر موظفي المحفوظات إلى التردد بكثرة على المقبرة، والكتبة هم الذين يذهبون في الغالب، وقلما يذهب المأمورون، أما نائبا المدير والمدير نفسه فلا حاجة إلى الإشارة إلى أنهم لا يذهبون مطلقاً. كما أن كتبة ومأموري المقبرة العامة، يذهبون بين حين وآخر، لأسباب مماثلة، إلى المحفوظات، وهم يستقبلونهم هناك أيضاً بالترحاب نفسه الذي سيحيطون به دون جوزيه هنا. ومبني إدارة المقبرة من الداخل، مثلما هي واجهته، هو نسخة أمينة وطبق الأصل عن المحفوظات، ولا بد من التوبيه هنا إلى أنه من عادة موظفي المقبرة العامة التأكيد على أن محفوظات السجل المدني هي نسخة عن المقبرة، وأنها نسخة ناقصة لافتقدانها البوابة الخارجية الضخمة، فيرد موظفو المحفوظات على

ذلك بالقول يا لأهمية هذه البوابة التي تبقى مغلقة. ومهما يكن من أمر، فإننا نجد هنا منضدة الكونتوار الطويلة نفسها التي تقطع القاعة الفسيحة، والخزائن العالية نفسها، وترتيب العاملين نفسه، على شكل مثلث، الكتبة الثمانية في الصف الأول، والأموروون الأربع بعدهم، ويليهم نائباً القيّم، فهكذا يسميان هنا، وكذلك القيّم، في رأس زاوية الثالث، وهو ليس مديراً، وإنما هو قيّم. ومع ذلك، فإن هؤلاء الموظفين الإداريين ليسوا كل العاملين في المقبرة. فعلى مقددين طوليين، على جانبي المدخل، قبلة الكونتوار، يجلس المرشدون. هناك من لا يزال يطلق عليهم، بفجاجة، تسمية حفاري القبور، كما في الأزمنة الأولى، لكن تصنيف مرتبتهم المهني، في الجريدة الرسمية للمدينة، هو مرشد في المقبرة، وهي تسمية إذا ما أمعنا النظر، وعلى عكس ما يمكن تخيله، لا ترمي إلى تلطيف متعمد لمداراة الفطالة المفولة مجرفة تحفر حفرة مستحلبة في الأرض، وإنما هي التعبير الصحيح عن وظيفة لا تقتصر على إزالة الميت إلى الأعماق، بل تقوده كذلك على السطح. فهؤلاء الرجال الذين يعمل كل اثنين منهم معاً، يجلسون منتظرین، بصمت، مجئ المواتك الجنائزية، وعند ذلك يتزودون بوثيقة مرشد المسير التي يملؤها الكاتب المكلف بالميت، ويركبون في إحدى سيارات الخدمة التي تنتظر في المراقب، من تلك السيارات التي على مؤخرتها لوحة مضيئة تشتعل وتتطفل قائلة اتبعني، مثل المستخدمة في المطارات، وفي هذه النقطة يكون قيّم المقبرة العامة على حق تماماً عندما يؤكد بأنهم متقدمون في التكنولوجيا الحديثة على محفوظات السجل المدني، حيث ما زالت التقاليد تقضي باستخدام ريشة تفمس في المحبرة. والحقيقة أن رؤية العربية المأتمية ومرافقها يتبعون المرشدين بانصياع عبر شوارع المدينة المنظمة، وعبر الدروب السيئة في الضواحي، بينما الضوء يشتعل وينطفئ دون توقف حتى موقع

المدفن، اتبعني، اتبعني، يجعل من المستحيل عدم الإقرار بأن الانتقال من العالم لا يكون إلى عالم أسوأ دوماً. ومع أن هذا التفصيل لا يتمتع بأهمية خاصة في الفهم الإجمالي للقصة، إلا أنه من المناسب توضيح أن إحدى أبرز المواقف الشخصية لهؤلاء المرشدين هي أنهم يؤمنون بأن الكون محكوم فعلاً بتقدير سام متيقظ على الدوام لتلبية الحاجات البشرية، لأنه لو لم يكن كذلك، مثلاً ما يتعللون هم، لما اخترعْتُ السيارات في اللحظة التي صارت الحاجة إليها ماسة بالضبط، أي عندما صارت المقبرة العامة شديدة الاتساع وصار العذابُ محنةً آلام حقيقة في نقل الميت إلى الجلجلة بالوسائل التقليدية، سواءً كانت العصا والحبال، أم العربة ذات العجلتين. وإذا ما جرى لفت انتباههم برصانة إلى أنه عليهم أن يكونوا أكثر حذراً في استخدام الكلمات، لأن الجلجلة ومحنة الآلام<sup>(١)</sup> هما الشيء نفسه، ولا معنى لاستخدام لفظتين تشيران إلى الآلام التي يسببها نقل شخص لم يعد قادراً على التأمل، فمن المؤكد والمضمون أنهم سيردون علينا بانزعاج بأن كل واحد يعرف نفسه والله وحده هو الذي يعرف الجميع.

دخل دون جوزيه على أي حال، وتقدم مباشرة إلى منضدة الكونتيوار، موجهاً لدى مروره نظرة فاترة إلى المرشدين الجالسين الذين لا يتعاطف معهم لأن وجودهم يخل بتوازن العاملين العددي لصالح المقبرة. وأنه معروف في المكان، لم يكن بحاجة إلى تقديم بطاقة هويته كموظفي في السجل المدني، أما وثيقة التكليف الشهيرة، فلم يخطر له حتى مجرد إحضارها معه، لأنه يمكن لأقل الكتبة خبرة أن يكتشف، بنظره واحدة، أنها مزيفة من السطر الأول حتى الأخير. ومن

<sup>(١)</sup> يستخدم كلمتي calvario و gólgota، وهو ما تشيران إلى اسم الجبل الذي صُلب عليه السيد المسيح. وكلتا هما تشيران معنويَا إلى محنة العذاب. وإن كانت الأولى أكثر دلالة على هذا المعنى، بينما الثانية أكثر دلالة على اسم الموقع.

بين الموظفين الثمانية الذين يصطفون وراء الكونتوار، اختار دون جوزيه واحداً من يستلطفهم أكثر من سواهم، وهو رجل أكبر منه سناً بقليل، يبدو عليه سهو من لم يعد ينتظر حياة أخرى. لقد كان يجده هناك على الدوام، مثل الآخرين، أياً كان اليوم الذي يذهب فيه. وكان يظن في البدء بأن موظفي المقبرة لا يتمتعون بالعطلة الأسبوعية ولا بإجازات، وأنهم يعملون طوال أيام السنة، إلى أن أخبره أحدهم بأن الأمر ليس كذلك، وبأن هناك فرقاً احتياطية يتم التعاقد معها للعمل أيام الأحد، فنحن لم نعد في زمن العبودية يا دون جوزيه. وبينما أنه لا طائل من القول إن رغبة موظفي المقبرة العامة، منذ سنوات طويلة، هي أن يتولى أولئك الاحتياطيون العمل كذلك في الفترة المسائية من أيام السبت، ولكن مطالبهم لم تُقبل لذرائع تتعلق بالميزانية والوضع الاقتصادي، ولم ينفع موظفو المقبرة في شيء إشارتهم إلى أن موظفي محفوظات السجل المدني لا يعملون أيام السبت إلا في الفترة الصباحية، وكانت فتوى البلاع السامي الذي رفض الطلب هي، الأحياء يستطيعون الانتظار، أما الموتى فلا. وعلى كل حال، كان من المريب أن يظهر هناك موظف من المحفوظات في مأمورية رسمية مساء يوم السبت تحديداً، بينما يفترض فيه أن يستمتع بالعطلة الأسبوعية مع أسرته، يتزهء في الريف أو يشفل نفسه في إصلاحات منزلية تؤجل إلى أن يُتاح الوقت لإنجازها، أو يخرج للتسكع على الأقل، أو يتساءل عن جدوى العطلة عندما لا نعرف ما الذي نفعله بها. ولتفادي استهجانات غير موافية، سرعان ما تحول بسهولة إلى احراجات، سعى دون جوزيه إلى استباق فضول محادثه، مقدماً التبرير الذي جاء به جاهزاً، إنها قضية استثنائية، مستعجلة، نائب مديرنا بحاجة إلى هذه المعلومة يوم الاثنين صباحاً، ولهذا طلب مني المجيء اليوم إلى المقبرة العامة، في ساعات فراغي، آه، حسن، قل

لي ما هو الموضوع، إنه بسيط جداً، نريد أن نعرف فقط متى دُفنت هذه المرأة. تاول الرجل البطاقة التي قدمها إليه دون جوزيه، واستنسخ الاسم وتاريخ الوفاة على ورقة، وذهب ليستشير المأمور المختص. لم يفهم دون جوزيه ما كانا يقولانه، فهنا، مثلاً هي الحال في المحفوظات، لا يمكن التكلم إلا بصوت خافت، ولا بد منأخذ بعد المسافة بين الاعتبار أيضاً، ولكنه رأى أن المأمور يهز رأسه مؤكداً، ومن خلال حركة شفتيه، لم يخامر الشك في ما يقوله، يمكنه الحصول على المعلومة. بحث الرجل في فهرس البطاقات الموجود تحت منضدة الكونتوار، حيث تحفظ بطاقات موتى الخمسين سنة الأخيرة، أما الآخرون فيملؤون الخزائن العالية التي تمتد إلى داخل المبنى، فتح الرجل أحد الأدراج، وجد بطاقة المرأة، استنسخ على الورقة التاريخ المطلوب ورجع إلى حيث يقف دون جوزيه، ها هو، قال ذلك ثم أضاف وكأنه يشعر بأنه يمكن لمعلومة إضافية أن تكون مفيدة، إنها في قسم المنتحررين. أحس دون جوزيه بتشنج مباغت في بباب معدته، وهذا هو المكان، على وجه التقرير، الذي يوجد فيه، حسب مقال قرأه منذ زمن في مجلة علمية، نوع من النجمة العصبية متعددة الأطراف، ذات نقطة اتصال شعاعية يسمونها ضفيرة عصبية شمسية، ولكنه استطاع مع ذلك أن يداري وقع المفاجأة بتصنع عدم المبالغة آلياً، فسبب الوفاة وارد تماماً في شهادة الوفاة الضائعة، والتي لم يرها قط، ولكنه لا يستطيع إظهار عدم معرفة ذلك، وهو الموظف في المحفوظات، فضلاً عن أنه قادم إلى المقبرة في مهمة رسمية. طوى الورقة بكل حرص وخبأها في محفظته، وشكر من قدم له المعلومة، دون أن ينسى أن يضيف بأنه سيكون تحت تصرفه في كل ما يحتاجه من المحفوظات، مما هو ضمن إمكانياته، وهي مجرد كلمات يتبادلها الموظفون، لأن أيهما لا يعدو كونه كاتباً. وبعد أن مشى خطوتين باتجاه الباب، رجع قائلاً، لقد

خطرت لي الآن فكرة، سأستغل لحظة من هذا المساء للقيام بجولة في المقبرة، فإذا ما سمحتم لي بالدخول من هنا، ستجنبوتي عناء الدوران في التفافة طويلة، فقال له الكاتب، انتظر ريثما أستفسر. نقل الرغبة إلى المأمور الذي تحدث معه من قبل، ولكن هذا، بدلاً من أن يرد عليه، نهض وتوجه إلى نائب **القيم** في قسمه، وبالرغم من أن المسافة كانت أكبر من المرة السابقة، إلا أن دون جزئه فهم من إيماءة الرأس وحركة الشفتين بأن طلبه سيستجاب وسيسمح له بالمرور عبر الباب الداخلي. لم يرجع الكاتب فوراً إلى الكونتوار، بل فتح أولاً أحدى الخزائن وأخرج منها صحيفة كرتون كبيرة، وضعها بعد ذلك تحت غطاء آلة تتبع منتها بعض الأضواء الملونة. ضغط زرًا، وسُمعت ضجة حركة آلية، أضيئت أنوار أخرى ثم خرجت ورقة أصفر حجماً من فتحة جانبية في الآلة. أعاد الكاتب صحيفة الكرتون إلى الخزانة، ورجع أخيراً إلى الكونتوار، من الأفضل أن تأخذ معك خريطة، فقد وقعت حالات ضاغط فيها بعض الأشخاص، وتطلب العثور عليهم تعقيبات هائلة، إذ يتوجب على المرشدين في مثل هذه الحالات أن ينطلقوا للبحث عنهم بالسيارات، فيضطرر سير العمل، وتعطل الجنائزات في الانتظار هنا في الخارج، الناس يصابون بالذعر ويفقدون أعصابهم بسهولة، يكفي أن يواصلوا المشي في خط مستقيم، وفي الاتجاه نفسه، ليصلوا بذلك إلى مكان ما، الصعوبة الحقيقة هي في أرشيف الموتى في المحفوظات العامة، فهناك لا وجود لخطوط مستقيمة، نظرياً معك حق، ولكن الخطوط المستقيمة هنا هي مثل خطوط متاهة الممرات، تتقاطع فيما بينها طوال الوقت، وتبدل اتجاهها، تدور حول قبر، فلا نعود نعرف فجأة أين نحن، نحن نستخدم في المحفوظات عادة خيط آريان، وهو لا يخيب ظننا أبداً، لقد استخدمناه نحن أيضاً في إحدى الفترات، ولكن لوقت قصير، فقد تقطع الخيط في عدة مناسبات، ولم يتم التوصل إلى

معرفة الفاعل ولا سبب إقدامه على ذلك، لم يكن الموتى وراء ذلك بالتأكيد، من يدري، هؤلاء الأشخاص الذين ضلوا طريقهم هم أناس يفتقرون إلى المبادرة، فقد كان بإمكانهم التوجه مستعينين بالشمس، لقد فعل بعضهم ذلك، ولكن السبئ في الأمر هو أن تكون السماء غائمة، ليس لدينا مثل هذه الآلات في المحفوظات، أقول لك إنها تساعد كثيراً في العمل. لم يعد بإمكانهما مواصلة المحادثة لمزيد من الوقت، فقد نظر إليهما المأمور مرتين، وفي المرة الثانية قطب جبينه، وكان دون جزئيه هو الذي نبه محادثه بصوت خافت، مأمورك وجه إلىينا نظرتين، لا أريد لك أن تتعرض لمشاكل بسببي، سأذلك فقط على المكان الذي دُفنت فيه المرأة، لاحظ نهاية هذا التفرع، الخط المتعرج هنا هو جدول ما زال يشكل حداً، والقبر موجود عند هذا المنعطف، يمكنك التعرف عليه من الرقم، وماذا عن الاسم، أجل، إذا كان الاسم قد نقش عليه، ولكن الأرقام هي التي تؤخذ في الاعتبار عندنا، أما الأسماء فلا تسع لها الخريطة، ولا سنحتاج إلى خريطة بحجم العالم، بمقاييس رسم واحد إلى واحد، أجل، واحد إلى واحد، وحتى في هذه الحالة سيفطي بعض الأسماء بعضها الآخر، وهل الخريطة جديدة، إننا نجددها كل يوم، وبالمناسبة، قل ما الذي تظنه بي وأنا أسعى لرؤيه قبر المرأة، لا شيء، ربما لأنني كنتُ سأفل الشيء نفسه لو كنتُ مكانك، لماذا، من أجل التوصل إلى اليقين، بأنها ميتة، لا، اليقين بأنها كانت على قيد الحياة. نظر المأمور للمرة الثالثة، وتحرك كمن هو يوشك على النهوض، ولكنه لم يُكمل حركته، فقد ودع دون جزئيه الكاتب على عجل، شكراً، قال ذلك وهو يعني رأسه قليلاً باتجاه القِيم، ذلك المقام الذي يجب أن تتحنى له الهمامات احتراماً بخضوع على الدوام، مثلما يحدث عند تقديم الشكر للسماء، حتى ولو كانت متلبدة، مع فرق وحيد هو أن الرأس لا ينحني إلى أسفل في هذه الحالة، وإنما يشرئب

إلى أعلى.

أقدم أجزاء المقبرة العامة، الجزء الذي يتسع إلى بضع عشرات الأمتار في الجهة الخلفية للمبنى الإداري، هو الذي يفضله علماء الآثار لأبحاثهم. وكانت الأحجار القديمة، التي أبلى الزمن بعضها إلى حد لم يعد معه ممكناً أن تميز فيها سوى بعض الخطوط شبه المتلاشية التي يمكن لها أن تكون بقايا حروف أو ضربات إزميل أخرق على السواء، ما تزال موضع مناظرات ومجادلات مكثفة، ضاع فيها نهائياً، في معظم الحالات، الأمل بمعرفة من الذي دُفن تحتها، وغالباً ما تناوش تلك الكتابات المحتملة، كمسألة حيوية. اختلافات عقيمة، حول مئة سنة تافهة إلى الأمام أو مئة سنة إلى الوراء، كانت سبباً في مجادلات طويلة، عامة أو أكاديمية، تسفر في أغلب الأحيان، ليس عن قطعية عنيفة للعلاقات الشخصية وحسب، وإنما إلى عداوات قاتلة كذلك. وكانت الأمور تزداد سوءاً عندما يظهر المؤرخون ونقاد الفن ليدسوا ملقتهم في القضية، لأنه إذا كان ما يزال ممكناً للسلوك الأركيولوجي أن يتوصل إلى اتفاق حول مفهوم واسع للقِدْم يكون مقبولاً من الجميع، بترك تحديد التواريخ إلى ما بعد، فإن مسألة ما هو جميل وما هو حقيقي تتضاع رجال، ونساء، علم الجمال والتاريخ على خلاف، ليشد كل واحد المسألة إلى جهته، ولا يكون غريباً على الإطلاق رؤية ناقد فني يبدل رأيه فجأة مجرد أن ناقد آخر غير وجهة نظره فتطابق الرأيان. وعلى امتداد قرون طويلة، كان السلام الفائق الذي يكتف المقبرة العامة، بأجنحته النباتية التلقائية، بأزهاره، بلبلاته، بآجامه الكثيفة، بضفائر زهره وأكاليله، بقرصيه وعوسيجه، وبالأشجار الجباره التي كثيراً ما تت بش جذورها أحجار المدافن وتخرج إلى ضوء الشمس عظاماً فاجأتها، هدفاً وشاهدأ على حروب كلامية ضارية وعلى تحولات سريعة بين حين وآخر. وكلما كانت تقع أحداث من هذا النوع، كان

القيّم يبدأ بإصدار الأوامر للمرشدين المتوفرين لديه لكي يسرعوا للفصل بين أولئك الأعلام المشاكسين، وإذا ما تطلب الأمر، واستدعت الضرورة القصوى حضوره شخصياً، فإنه يذكّر المتعاركين بسخرية بأنه لا يجدر بهم أن يشعثوا شعورهم من أجل أمر تافه في الحياة، لأنهم سيجتمعون هناك، عاجلاً أو آجلاً، وقد أصبحوا جميعهم صلعاً. ومثل رئيس محفوظات السجل المدني، يتعاطى قيّم المقبرة العامة السخرية اللاذعة بتلقٍ، وبهذا يتأكّد الاعتداد في اعتبار هذا الجانب من الشخصية ضروريًا من أجل الوصول إلى المناصب الرفيعة، إضافة بالطبع إلى الكفاءات المعرفية العملية والنظرية في تقنيات التوثيق. ومع ذلك، فإن المؤرخين، ونقاد الفن، وعلماء الآثار يعترفون، في بعض الحالات، بأنهم متلقون على الواقع أن المقبرة العامة هي كتالوج كامل، ومجمع عينات، وملخص لكل الأساليب، وخصوصاً أساليب فنون العمارة والنحت والزخرفة، وهي وبالتالي فهرس لكل أساليب الرؤى والعيش والسكن التي وجدت حتى اليوم، منذ الرسم البدائي الأول لبروفيل جسد بشري، وقد جرى فتحه والتقطيب عنه في ما بعد بالمعول، وحتى الفولاد المقوى بالكروم، واللوحات العاكسة، والألياف الاصطناعية، وزجاج المرايا الذي صار يستخدم بصورة هذيانية في الزمن الحاضر الذي يدور الحديث عنه.

كانت النصب الجنائزية الأولى مؤلفة من الدُّولَمِن<sup>(1)</sup>، والسيست<sup>(2)</sup>، والاستيلا<sup>(3)</sup>، وبعد ذلك تظهر كصفحة كبيرة ممتدة، في أعمال حفر بارزة ومجسمة، المشكابيات، المذابح، المصليات، ومسلات الغرانيت، وأننية

<sup>(1)</sup> الدُّولَمِن dolmen: ضريح من أضرحة ما قبل التاريخ قوامه حجر مسطح موضوع فوق عدد من الحجارة المنصوبة.

<sup>(2)</sup> السيست cista: نوع آخر من الأضرحة.

<sup>(3)</sup> الاستيلا estela: نصب على شكل صفيحة حجرية منقوشة توضع فوق الضريح.

الرخام، والألواح الحجرية الملساء والمنقوشة، والأعمدة الدُّوريَّة<sup>(٤)</sup>،  
 والأيونية، والكورنثية، وأعمدة الكرتيد<sup>(٥)</sup>، والأفاريز، والأكانتو<sup>(٦)</sup>،  
 والمُوجَّهات<sup>(٧)</sup>، والأسطح المعمدة، والعقود الزائفة، والعقود الحقيقة،  
 والجدران المؤلفة من آجر متراكم، والضرائح المسورة بأحجار ضخمة،  
 وكوى الإنارة في السقف، والكوى الجانبية المزخرفة على شكل زهور،  
 والميازيب، والتواوفذ الكبيرة، والعقود المثلثة، والقباب المستديقة،  
 والأضرحة المكسوة بال بلاط، والزوافر<sup>(٨)</sup>، والأعمدة المربعة، والتماثيل  
 الرابضة التي تمثل رجالاً يعتمرون الخوذ ويحملون سيفاً ويتسلبون  
 بالدروع، وتيجان الأعمدة التاريخية وغير التاريخية، ونقوش الرمان،  
 والزنابق، والخالدات، وأبراج الأجراس، والقباب، والتماثيل المستلقية  
 لنساء مشددوات الأثداء، ولوحات الرسم، والأقواس، والكلاب الوفية  
 الرابضة على الضريح، والأطفال المزנرون، ومقدمو القرابين، والنادبات  
 برؤوسهن المفطاة بشلالات، والمسلات، وزخارف التعاريف الناتحة،  
 والزجاج الملون، والمنابر، والمنصات، والشرفات، ثم عقود حجرية أخرى،  
 وتيجان أعمدة أخرى، وأقواس أخرى، وبعض الملائكة مبوسطي  
 الأجنحة، وملائكة آخرون بأجنحة متهدلة، أوسمة، جرار فارغة، أو  
 تُطلق لهباً متصنعاً في نحت على الحجر، أو يُسحب منها قماش  
 حريري بوهن، كأباقات، دموع، رجال مهيبون، نساء عظيمات، أطفال  
 مجتثون وهم في عمر الزهور، مسنون ومسننات لم يعد بإمكانهم انتظار

<sup>(٤)</sup> دُوري: dorico: طراز معماري إغريقي بدائي، يمتاز بالبساطة.

<sup>(٥)</sup> الكرتيد: cariátid: تمثال امرأة أو رجل يقوم مقام عمود يسند ثنفأً أو افريزاً.

<sup>(٦)</sup> أكانتو: acanto: زخرفة معمارية تستخدم أساساً في تيجان الأعمدة وتتخذ شكل أوراق نبات شوكي يحمل الاسم نفسه.

<sup>(٧)</sup> المُوجَّهة: مثلث مزخرف فوق نافذة أو مدخل بناء معبد.

<sup>(٨)</sup> زافرة: arbotante: نصف قنطرة يُدعم بها عقد أو جدار.

المزيد، صلبان كاملة، وصلبان مكسرة، أدراج، مسامير صلب، تيجان شوك، رماح، مثاثل غامضة، بعض الحمائم الفريدة من الرخام، وأسراب حمام حقيقة تحلق في دوائر فوق المقبرة. وصمت. صمت لا تقطعه بين حين وأخر إلا خطوات شخص عابر ومحب متلهف للعزلة، يصله حزن مفاجئ في ضجة قريبة، حيث ما زال يسمع صوت بكاء عند حافة جثوة فوقها باقات زهر غضة، ما تزال رطبة بنسفها، مخترقة، إذا كان يمكن قول ذلك، قلب الزمان، هذه الثلاثة آلاف سنة من قبور مختلفة الأشكال، والأرواح، والظروف، ومتعددة في الهجران نفسه والعزلة نفسها، لأن الآلام التي ولدت منها يوماً صارت قديمة جداً بحيث لا يمكن لها أن تجد ورثة. مسترشداً بالخريطة، ومتأسفاً مع ذلك في بعض اللحظات لافتقاره إلى بوصلة، كان دون جوزيه يمشي باتجاه قطاع المنتحرين، حيث دُفنت امرأة البطاقة، لكن خطواته صارت الآن أقل سرعة، أقل تصميمًا، وهو يتوقف بين الفينة والفينية ليتأمل تفصيلاً نحتياً ملطفاً بالطحالب أو بأثر انزلاق المطر، بعض النائحات الصامتات في فاصل بين صرختين، بعض الكشف الرصين، بعض التراتيل الطقوسية، أو ليتهجى بصعوبة كتابة استرعى خطها انتباهه بصورة عابرة، ويفهم، منذ السطر الأول الذي أمضى وقتاً طويلاً في فك رموزه، أن هذا الكاتب غير ضليع في الكتابات القديمة، بالرغم من أنه تفحص في بعض المرات، هناك في المحفوظات، رقوقاً تعود إلى هذه العصور تقريباً، ولهذا لم يتجاوز في الوظيفة مرتبة الكاتب فقط. في أعلى ربوة قليلة الارتفاع، في ظل مسلة كانت في ما مضى علامه مسح جيوديزية، راح دون جوزيه يجول ببصره في ما حوله، إلى حيث يصل النظر، ولا يجد سوى قبور تعلو وتحفظ مع تضاريس الأرض، متسلقة منحدراً وعرأ، ومسترسلة في المنبسطات. دمم، إنها بالملايين، وفك عندي بمساحات الأرض الشاسعة التي كان

يمكن توفيرها لو جرى دفن الأمواط وقوفاً، متلاصقين كتفاً إلى كتف، في صفوف محكمة، مثل جيش في وقفة التأهب، دون أن يكون هناك سوى مكعب حجري فوق رأس كل واحد منهم، يشير إلى وجوده هناك، وتُروي على وجوهه الخمسة المرئية الوقائع الأساسية في حياة الميت، خمسة مربعات حجرية كأنها خمس صفحات، تضم ملخصاً لكتاب الكامل الذي كان من المستحيل عليه كتابته. وفي ملامسة الأفق تقريباً، بعيداً، بعيداً، يرى دون جوزيه أنواراً تتحرك ببطء، مثل بروق صفراً تشتعل وتتطفى بانتظام ثابت، إنها سيارات المرشدين تستدعي من يمضون في إثرها، اتبعني، اتبعني، تتوقف واحدة منها فجأة، يختفي ضوؤها، وهذا يعني أنها وصلت إلى هدفها. نظر دون جوزيه إلى ارتفاع الشمس، ثم إلى الساعة، لقد بدأ الوقت يتأخر، عليه أن يبحث الخطى إذا ما أراد الوصول إلى امرأة البطاقة قبل الفسق.

استشار الخريطة، مرّ عليها بإصبعه السبابة كي يستعيد، بصورة تقريبية، الطريق الذي قطعه من مبني الإدارة حتى المكان الذي هو فيه، قارنه مع ما عليه أن يمشيه، وأوشك أن يفقد الشجاعة. فالمسافة المتبقية في خط نظر مستقيم، حسب مقاييس الخريطة، تبلغ خمسة كيلومترات، ولكن الخط المستقيم في المقبرة العامة لا يستمر طويلاً، كما قيل سابقاً، ولا بد من أن يضاف إلى هذه الخمسة كيلومترات التي يطيرها عصفور في الفضاء، كيلومتران آخران، بل وثلاثة، لمن سيجتازها على الأرض. أجرى دون جوزيه حساباً للوقت وللقوة المتبقية في ساقيه، وسمع صوت التعقل يطلب منه أن يؤجل إلى يوم آخر، وبترو أكبر، زيارة قبر المرأة المجهولة، وبعد أن عرف أين مكانه، يمكن لأي سيارة أجراً، أو حافلة، أن توصله، بالدوران خارج المقبرة، إلى مقبرة من المكان، مثلاً يفعل ذوو الموتى عندما يحضرون للبكاء على أعزائهم ولوضع زهور جديدة في الجرار الفخارية التي على قبورهم،

أو لاستبدال مائتها، خصوصاً في فصل الصيف. وكان دون جوزيه يُفند هذا التردد عندما وردت إلى ذهنه ذكرى مغامرته في المدرسة، في تلك الليلة المدหมายة الماطرة، وذلك السفح الجبلي المائل الذي تحول إليه سطح المستودع، ثم بحثه الجزء في داخل المبنى، وهو يقطر من رأسه حتى قدميه، بركتيه المسلطتين اللتين يحتك بهما البنطال بصورة مؤلمة، وكيف تمكن، بالتصميم والذكاء، من التغلب على مخاوفه وتجاوز ألف صعوبة اعترضت طريقه، إلى أن اكتشف أخيراً السقية الغامضة ودخل إليها، مواجهاً ظلمة مخيفة أكثر من ظلمة أرشيف الموتى. من استطاع تجاوز كل تلك المشقات لا يحق له الآن أن يفقد الهمة أمام الجهد الذي تتطلبه مسيرة، مهما كانت طويلة، خصوصاً وأنها تجري تحت نور الشمس الصرير، وهو كما نعرف، صديق للأبطال. وإذا ما أدركته ظلال الفسق قبل أن يصل إلى قبر المرأة المجهولة، وإذا ما جاء الليل ليقطع عليه الدروب، وبيث فيها مُفزعاته غير المرئية، مانعاً إياه من مواصلة التقدم، فيمكنته أن ينتظر ميلاد اليوم الجديد مستلقياً على أحد هذه الأحجار المغطاة بالطحالب، في كنف تمثال ملاك حجري كثيب يحرس أحلامه. وفكر دون جوزيه، أو النوم تحت قنطرة إسناد مثل تلك التي هناك، ولكنه تذكر بعد ذلك أنه لن يجد بعد قليل مزيداً من تلك القناطر. وبفضل الأجيال القادمة والتطور اللاحق للعمارة المدنية، سيبدأ عما قريب ابتكار طرق أقل كلفة لإسناد جدار وإيقائه منتصباً، والمقاابر هي، عملياً، المكان الذي تتبدى فيه أكثر من سواه منجزات التقدم لعيون الدارسين أو الفضوليين العاديين، بل وهناك من يؤكّد أن مقبرة مثل هذه هي أشبه بمكتبة، حيث يحلّ أشخاص مدفونون محل الكتب، والحقيقة أنه لا فرق، إذ يمكن التعلم منهم بقدر ما يمكن التعلم منها. نظر دون جوزيه إلى الوراء، لم يكن بإمكانه، من المكان الذي هو فيه، أن يصل ببصره، من فوق النصب الجنائزية

المرتفعة، إلى ما هو أبعد من الرسم النائي لسطح مبني الإدارة، فغمغم، لم أكن أتصور أنتي ابتعدت إلى هذا الحد، وبعد أن أبدى هذه الملاحظة، وكما لو أنه كان ينتظر سماع صوته فقط، لكي يتخذ قراراً، أعاد وضع قدميه على الطريق.

عندما وصل أخيراً إلى قسم المنتحرين، وكانت السماء ما تزال تغريلاً رماد الفسق الذي ما زال أبيض اللون، فكر في أنه أخطأ في التوجه، أو أن رسم الخريطة سيئ. فقد وجد أمامه امتداداً ريفياً فسيحاً، فيه الكثير من الأشجار، تكاد تشكل غابة، حيث القبور، لولا بعض أحجار الضرائح الظاهرة، لبدت أكثر شبهها بالآجام النباتية الطبيعية. لم يكن بالإمكان رؤية الجدول من هنا، ولكن الخرير الخافت لأنزلاق الماء على الصخور كان مسموعاً، وكانت تطفو في الجو، الذي مثل زجاج أخضر، برودة ليس سببها أولى ساعات الفروب فقط. وبما أن قبر المرأة المجهولة حديث لم تمض عليه سوى أيام قليلة، فلا بد أن يكون في الطرف الخارجي للحيز المشغول بالقبور، والمسألة الآن في معرفة في أي اتجاه هو. فكر دون جوزيه بأن أفضل ما يمكنه عمله، حتى لا يضيع، هو أن ينحرف باتجاه ضفة مجرى الماء الصغير والسير بعد ذلك على امتداد الضفة إلى أن يجد آخر القبور. سرعان ما غطته ظلال الأشجار، كما لو أن الليل قد خيم فجأة. فتمتم دون جوزيه، يجب أنأشعر بالخوف، وسط هذا الصمت، وبين هذه القبور، ومع هذه الأشجار التي تحيط بي، ولكنني بالرغم من كل ذلك أشعر بالطمأنينة وكأنني في بيتي، ساقاي وحدهما تؤمناني من كثرة المسير، ها هو هذا الجدول، ولو أنتي أشعر بالخوف لاستطعت الذهاب من هنا في هذه اللحظة بالذات، يكفي أن أجتازه، ولن يكون علي سوى أن أخلع حذائي، وأشمّر بنطالي، وأعلق الحذاء برقبتي وأعبر، ولن يصل الماء إلى ركبتي، وخلال وقت قصير سأكون مع أناس أحياء، بين تلك الأنوار التي

أضيئت للتو. بعد نصف ساعة من ذلك، وصل دون جوزيه إلى أقصى الحقل، عندما كان القمر، المكتمل تقريباً، وشبه المستدير، يصعد من الأفق. القبور هنا ما زالت دون أحجار كبيرة نقشت عليها الأسماء ودون زينات زخرفية، ولا يمكن تمييزها إلا من خلال الأرقام البيضاء المكتوبة على لوحاتسوداء مغروسة عند موقع الرأس، مثل فراشات مثبتة بدبابيس. كان ضوء القمر ينسكب رويداً رويداً على الحقل، متسللاً ببطء بين الأشجار مثل شبح مألف وخير. في فسحة خلاء، عثر دون جوزيه على ما كان يبحث عنه. لم يُخرج من جيبه الورقة التي أعطاه إياها كاتب المقبرة، ولم يبذل أي جهد ليحفظ الرقم في رأسه، ولكنه عرفه عندما احتاج إليه، وهو ذا الآن أمامه، مشعاً بالكامل، كما لو أنه قد طلي بصباغ فسفوري. قال، إنها هنا.

عاني دون جوزيه من البرد طوال الليل. وبعد أن تلفظ بالكلمتين الحاسمتين وغير المجديتين، إنها هنا، لم يعد يعرف ما الذي يمكنه أن يفعله. صحيح أنه توصل أخيراً، بعد جهود طويلة ومضنية، إلى العثور على المرأة، أو بكلمة أدق، على المكان الذي ترقد فيه، على عمق سبعة أشبار معدودة عن سطح الأرض التي ما زالت تحمله فوقها، أما في أعماقها، وفكراً بأن الأمر الطبيعي هو أن يتملكه الخوف، أن ترتعد فرائصه من المكان، من الوقت، من حفييف الأشجار، من ضوء القمر الفاضل، ومن المقبرة التي تحيط به على وجه الخصوص، فهناك جمعية عمومية للمنتحررين، مجلس للصمت يمكن له بين لحظة وأخرى أن يبدأ بالصراخ، لقد جئنا إلى هنا قبل أن ينتهي أجلنا، جاءت بنا إرادتنا، ولكن ما كان يجول في أعماقه بدا أقرب بكثير إلى التردد، إلى الشك، كما لو أن بحثه لم ينته بعد، بينما هو يعتقد بأنه قد بلغ النهاية، وكما لو أن مجئه إلى هنا لا يمثل إلا خطوة أخرى، لا تزيد أهمية عن ذهابه إلى بيت سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي، أو المدرسة، أو الصيدلية التي وجده الاستفسارات فيها، أو الأرشيف الذي تُحفظ فيه، هناك في المحفوظات، أوراق الموتى، وكان الانطباع شديداً إلى حد غمغم معه، وكأنه يحاول إقناع نفسه، إنها ميتة، ولم يعد باستطاعتي عمل أي شيء آخر، لأنه لا يمكن عمل أي شيء في مواجهة الموت. كان قد مشى لساعات عبر المقبرة العامة، مرّ عبر أزمنة، عبر عصور وسلالات، عبر ممالك، وإمبراطوريات وجمهوريات،

عبر حروب وأوبئة، عبر میتات يومية لا متناهية، بدءاً من أول الم  
بشري وانتهاء بهذه المرأة التي انتحرت منذ أيام قليلة، ولهذا كان دون  
جوزيه يعرف أنه لا يمكن عمل شيء في مواجهة الموت. خلال الدرب  
المشكّل من كل تلك الأعداد من الموتى، لم ينهض أي واحد منهم على  
وقع خطواته، ولم يتسلل إليه أي واحد ليُساعدُه في جمع غبار اللحم  
المنثور إلى العظم المتخلل، ولم يطلب أحد منه، تعال وانفخ في عيني  
نَفْسَ الْحَيَاةِ، فهم يعرفون جيداً أنه لا يمكن عمل شيء في مواجهة  
الموت، هم يعرفون ذلك، جميعهم يعرفونه، وما دام الأمر كذلك، من أين  
يأتي إذن هذا الفم الذي يُطبق على خناق دون جوزيه، من أين يأتيه  
انقباض الروح هذا، كما لو أنه ترك، بندالة، عملاً في منتصفه ولم يعد  
يعرف كيف يعود ليُكمله بكرامة. في الجانب الآخر من الجدول، غير  
بعيد جداً، تبدو بعض البيوت بنوافذها المضاءة، ومصابيح الإنارة العامة  
في الضاحية بأضوائها الذاوية، وومضة عابرة من السيارة التي تجتاز  
الطريق العام. وفي مواجهته، على بعد أقل من ثلاثين خطوة، مثلاً  
يجب أن يكون على هذا البعد أو ذاك، هناك جسر صغير يصل بين  
ضفتى الجدول، وليس على دون جوزيه وبالتالي أن يخلع الحذاء، ولا أن  
يشمر بنطاله من أجل الوصول إلى الضفة الأخرى. لو كان في ظروف  
عادية لفعل ذلك، وخصوصاً إذا أخذنا في الاعتبار أنا لا نعرفه  
شخصاً مفرط في الشجاعة، وهي الصفة التي يحتاج إليها للبقاء دون  
مبالاة في مقبرة طوال الليل، مع وجود ميت تحت قدميه، وقمر لا  
يتورع عن جعل الظلال تمشي. ولكن الظروف على كل حال هي هذه  
وليس غيرها، فالامر هنا لا يتعلق بالشجاعة أو الجبن، وإنما بالموت  
والحياة، ولهذا فإن دون جوزيه، مع معرفته بأنه سيشعر بالخوف مرات  
كثيرة هذه الليلة، ومع معرفته بأن تتهادات الريح ستثبت الرعب في  
قلبه، وأن البرد الذي يهبط من السماء عند الفجر سيلتقطي بالبرد الذي

يصعد من الأرض، سيجلس دون جوزيه تحت شجرة، متكوراً على نفسه في الفجوة التي هيأتها العناية الإلهية في جذع شجرة. إنه يرفع ياقه سترته، يتکور بأقصى ما يستطيع ليحتفظ بحرارة جسمه، يقاطع ذراعيه مخبئاً يديه تحت إبطيه ويستعد لانتظار طلوع النهار. يشعر بمعدته تطالبه بالطعام، ولكنه لا يأبه، فليس هناك من مات لأنه أطاح الفترة بين وجبتين، اللهم إلا إذا تأخر تقديم الثانية طويلاً وفات موعد تقديمها إلى الأبد. دون جوزيه يريد أن يعرف إذا ما كان كل شيء قد انتهى حقاً، أم أن الأمر خلاف ذلك، وأنه ما زال ثمة شيء نسيه، أو شيء، وهذا أهم، لم يخطر له قط، ويكون هذا الشيء، أخيراً، هو جوهر هذه المغامرة الغريبة التي طلع بها القدر عليه. لقد بحث عن المرأة المجهولة في كل مكان وانتهى به الأمر إلى العثور عليها هنا، تحت جثوة التراب تلك التي لن تتأخر الأعشاب البرية طويلاً في تفطتها، ما لم يأت قبل ذلك نحات الرخام ليسوى التراب ويركب فوقه اللوحة الرخامية وقد كتب عليها التاريخان المعهودان، الأول والأخير، والاسم، وقد يكون الأهل من يفضلون لموتاهم إطاراً مستطيلاً بسيطاً يزرعون بعد ذلك في داخله عشبًا تزيينياً، وهذا حلّ يوفرفائدة مزدوجة بكونه أرخص كلفة ويتامينه مأوى لحشرات سطح الأرض. ولكن المرأة موجودة هناك، لقد سدت أمامها كل دروب العالم، مشت ما كان عليها أن تمشيه، وتوقفت حيث شاءت هي نفسها، نقطة وانتهى. لم يستطع دون جوزيه مع ذلك التخلص من فكرة ثابتة، فكرة أنه ما من أحد، اللهم إلا هو نفسه، قادر على تحريك الحجر الأخير المتبقى على الرقعة، الحجر الحاسم، ذاك الذي سيعطى، إذا ما حرك في الاتجاه الصحيح، معنى حقيقياً للعبة، تحت طائلة تعرضه، إذا لم يحدث ذلك، للبقاء متعدلاً حتى الأبدية. إنه لا يعرف ما هي تلك النقلة السحرية، وإذا كان قد قرر قضاء الليل هنا فليس لأنه يأمل بأن الصمت سيبيوح له في

أذنه بالسر ولا لأن نور القمر سيرسمه له بلطف بين ظلال الأشجار، إنه مثل شخص صعد جبلًا ليشاهد المناظر الطبيعية من هناك، ورفض العودة إلى الوادي طالما لم يشعر بأن عينيه المبهورتين ما عادتا تتسعان لل Mizid.

الشجرة التي اختارها دون جوزيه هي زيتونة هرمة، ما زال أناس الضاحية يلتقطون ثمارها على الرغم من تحول حقل الزيتون إلى مقبرة. ومع تقدم الشجرة في عمرها المديد، راح جذعها ينفتح في إحدى جهاته، من أعلى إلى أسفل، مثل مهد وضع بصورة عمودية ليشغل حيزاً أصفر، وهناك راح دون جوزيه يغفو بين وقت وأخر، وهناك كان يستيقظ فجأة مذعوراً من صفة ريح لطمت وجهه، أو إذا ما صار الصمت وسكون الهواء عميقين إلى حد تبدأ معه الروح الهائمة بين النوم واليقظة بالحلم بصرخات عالم ينزلق نحو العدم. وعند حد معين، مثل من يقرر أن يُنظف لطخة أحدثها حبة توت بحبة أخرى من التوت، قرر دون جوزيه اللجوء إلى الفنتازية لكي يستعيد في ذهنه كل الأهوال التقليدية للمكان الذي هو فيه، مواكب الأرواح المحزونة الملحوقة بملاءات بيضاء، رقصات الموت التي ترقصها هياكل عظمية تقطّق عظامها مع الإيقاع، شخصية الموت البغيضة وهي تحصد الأرض بمنجلها الكبير الدامي حتى يستسلم الميتون قانين ببقائهم ميتين، ولكن، لأن شيئاً من ذلك كله لم يكن يحدث في الواقع، وأنها مجرد تخيلات، راح دون جوزيه يهوي، شيئاً فشيئاً، في سلام داخلي هائل، لا يعكره أحياناً إلا الجري غير المسؤول للنيران الكاذبة التي يمكن لها أن توصل إلى حافة الانهيار العصبي كل شخص، مهما كانت قوة معنوياته ومهما كانت معارفه في المبادئ الأولية للكيمياء العضوية. وكعون دون جوزيه الرعدي يبدي هنا شجاعة لم نكن نتوقعها منه بعد أن رأينا الكثير من تردداته وكروبيه، يثبت، مرة أخرى، أن الروح تُظهر كل عظمتها

الحقيقة في اللمات الكبرى. ومع اقتراب الفجر، حين كان قد شفي تقربياً من المخاوف، وأنعشه دفء الشجرة التي تحضنه، غرق دون جوزيه في النوم بهدوء واضح، بينما كان العالم من حوله قد بدأ يخرج، ببطء، من ظلال الليل الخبيثة ومن أضواء القمر الفامضة التي بدأت تودع. وعندما فتح دون جوزيه عينيه، كان الضياء قد بزغ. كانت فرائصه ترتعد من البرد، وبيدو أن الحضن النباتي الودود لم يكن سوى حلم آخر، اللهم إلا إذا كانت الشجرة قد رأت أنها أنجزت واجب الضيافة المفروض على كل أشجار الزيتون، بحكم طبيعتها، أن تقدمه، فأفلته منها قبل الأوان وتركته مهجوراً دون ملاذ لبرودة الضباب الخفيف الذي يطفو، على مستوى الأرض، فوق المقبرة. نهض دون جوزيه بمشقة وهو يشعر بكل مفاصل جسده تقطّق، وتقدم متعرضاً يطلب الشمس، في الوقت الذي كان يهز فيه ذراعيه ليدفع جسده. إلى جانب قبر المرأة المجهولة، كانت هناك نعجة بيضاء تقضم العشب الرطب، وفي ما حولها، هنا وهناك، كانت نعاج أخرى ترعى. وكان هناك رجل مسن، يحمل في يده عصا رعاة، ويتقدم باتجاه دون جوزيه. يرافقه كلب عادي، غير كبير ولا صغير، لا تبدو عليه سمات العدواية، بالرغم من أن كل ما فيه يشير إلى أنه ينتظر أمراً من صاحبه ليكشف عن حقيقة طباعه. توقف الرجل في الجانب الآخر من القبر باللامع المؤكدة لمن يرى، دون أن يطلب تفسيرات، بأن الآخرين مجبرون على تقديمها إليه، قال دون جوزيه، صباح الخير، فرد عليه الآخر، صباح الخير، صباح جميل، ليس بالسيئ. فقال دون جوزيه، لقد غفتُ، وكسر الرجل بنبرة متشككة، آه، غفت، جئت هنا لزيارة قبر شخص عزيز، وجلست لأستريح تحت شجرة الزيتون تلك، فغلبني النعاس، أمضيت الليل هنا، أجل، إنها المرة الأولى التي التقى فيها بأحد في مثل هذه الوقت، عندما أجيء بالأغنام لترعى، فسأله دون جوزيه، ولا تأتي

خلال بقية النهار، سيبدو ذلك سيئاً، سيكون نوعاً من إساءة الاحترام أن تتوغل الأغنام بين المدافن أو تفلت البعر بين الناس الآتين لذكر أحبيائهم وهم يتلون الصلوات ويبكون، علاوة على أن المرشدين لا يريدون أن تزعجهم النعاج بينما هم يحضرون القبور، ولهذا لا أجد بدأ من إحضار بعض الجبن لهم من حين لآخر حتى لا يحتاجون لدى القيمة، مادامت المقبرة العامة ميداناً مفتوحاً من كل الجهات، فإنه يمكن لأي شخص الدخول إليها، ومن يقول كل شخص، يمكنه أن يقول كل دابة، وأنا أستغرب أنتي لم أر أي كلب أو قطة من مبني الإدارة حتى هنا، الكلاب والقطط الضالة ليست قليلة هنا، ولكنني لم أر أي واحد منها، وهل قطعت كل هذه الكيلومترات على قدميك، أجل، كان بإمكانك المجيء بالحافلة العامة، أو بسيارة أجرة، أو بسيارتك إذا كنت تملك واحدة، لم أكن أعرف مكان القبر، ولهذا اضطررت إلى الاستعلام أولاً في الإدارة، وبعد ذلك قررت المجيء مشياً لأن النهار كان رائعاً، يبدو لي غريباً أنهم لم يطلبوا مني الانتظار من الخارج، مثلما يفعلون دائماً، طلبت منهم أن يسمحوا لي بالمرور، فسمحوا لي بذلك، هل أنت عالم آثار، لا، مؤرخ، ولا هذا، ناقد فني، ولا بأي حال، باحث في شعارات النبلاء، أرجوك، هذا ما ينقصني، لستُ أفهم إذن لماذا أردت أن تمشي كل هذه المسافة، ولا كيف استطعت النوم وسط القبور، فأنا المعتمد على هذا المشهد، لن أبقى دقيقة واحدة هنا بعد غياب الشمس، كما ترى، جلستُ لاستريح وغلبني النوم، أنت رجل جسور، لستُ رجلاً جسوراً، وهل وجدت الشخص الذي جئت بحثاً عنه، إنه هذا الذي هنا، عند قدميك، أهو رجل أم امرأة، مازالت دون اسم، أعتقد أن الأسرة تعمل على إعداد اللوحة الحجرية، لقد لاحظتُ أن ذوي المتنحرين أقل اهتماماً من الآخرين بهذا الواجب الأولي، ربما يشعرون بتأنيب الضمير، لا بد أنهم يشعرون بأنهم مذنبون، هذا محتمل، إذا كنا

لم نتعارف في أي مكان من قبل، فلماذا تردد على كل أسئلتي، التصرف الطبيعي هو أن تقول لي إنه يجب علي لا أتدخل في حياتك، هذه هي طريقي في التعامل، أجيب عن كل ما يسألونني عنه، هل أنت مرؤوس،تابع، مستخدم، نادل، مراسل، أنا كاتب في المحفوظات العامة للسجل المدني، لقد جئت إذن لتعرف الحقيقة حول موقع المتحررين، ولكن قبل أن أخبرك بذلك، عليك أن تقسم لي بوقار بأنك لن تكشف السر لأحد، أقسم لك بأقدس ما لدى في الحياة، وما هو أقدس ما لديك في الحياة، لستُ أدرى، كل شيء، أو لا شيء، عليك أن تعرف بأنه قسم غامض، ليس لدى ما هو أكثر قيمة منه، يا رجل، احلف بشرفك، فقد كان هذا القسم هو الأكثر ضماناً في ما مضى، مثلما تريد، أقسم بشرفني، ولكن عليك أن تعرف بأن رئيس المحفوظات سينفجر في الضحك إذا ما سمع أن أحد كتبته قد أقسم بشرفه، ولكنه قسم جدي بما يكفي بين راعي أغذام وكاتب، قسم لا يدعو إلى الضحك، ولهذا سنلتزم به، فسألة دون جوزيه، وما هي حقيقة موقع المتحررين، الحقيقة هي أن هذا المكان ليس مثلما يبدو لنا، إنه مقبرة، المقبرة العامة، بل هو متاهة، المتأهات يمكن رؤيتها من الخارج، ليس كلها، وهذه تتتمي إلى النوع غير المرئي، لستُ أفهم، فقال الراعي وهو يلمس بطرف عصاه جثوة التراب، الشخص الذي هنا على سبيل المثال، ليس الشخص الذي تطنه. وفجأة، مادت الأرض تحت قدمي دون جوزيه، فالحجر الأخير على الرقعة، يقينه الأخير، المرأة المجهولة التي عثر عليها أخيراً، اختفت كلها، فسأل وهو يرتجف، هل تعي أن هذا الرقم خاطئ، فقال الراعي، الرقم هو رقم، والرقم لا يخدع أبداً، فإذا ما رفعوا هذا الرقم من هنا ووضعوه في مكان آخر، حتى لو كان في آخر العالم، فسوف يبقى الرقم نفسه، لستُ أفهمك، سوف تفهم، أرجوك، رأسي مشوش، ليس بين كل هذه الأجساد المدفونة هنا جسد واحد

يتطابق مع الاسم المكتوب على لوحات الرخام، لا أصدق ذلك، أنا أقوله لك، وماذا عن الأرقام، كلها مستبدلة، لماذا، لأن هناك من يبدلها قبل أن يأتوا بالأحجار التي تحمل الأسماء ويشبّوها عليها، ومن الذي يفعل ذلك، أنا، فاحتاج دون جوزيه ساخطاً، ولكن هذا العمل جريمة، ليس هناك قانون ينص على ذلك، سوف أشكوك الآن هوراً لإدارة المقبرة، تذكر أنك أقسمت، إنني أسحب قسمى، فهو بلا قيمة في مثل هذه الحالة، يمكنك دائمًا أن تضع الكلمة الطيبة فوق الكلمة الخبيثة، ولكن ليس بالإمكان سحب هذه ولا تلك، الكلمة هي الكلمة، والقسم هو القسم، للموت قدسيته، القدسية هي للحياة أيها السيد الكاتب، أو هذا هو ما يقال على الأقل، ولكن لا بد أن يكون هناك، باسم الوقار، حدًّا أدنى من الاحترام للموتى، فالناس يأتون هنا لتذكر أقربائهم وأصدقائهم، ليتأملوا أو ليتأملوا الصلوات، ليضعوا أزهاراً أو ليكتبوا أمام اسم عزيز، وهو أنت ترى أنه بسبب خبث راعي أغنام، يكون اسم المدفون الحقيقي مختلفاً، والرفات الموقر ليس للشخص المفترض، ويتحول الموت هكذا إلى مهزلة، لا أظن أن هناك احتراماً أكبر من البكاء على شخص لا نعرفه، ولكن الموت، لماذا، يجب احترام الموت، أحب أن أعرف ما الذي يعنيه، في رأيك، وجوب احترام الموت، عدم انتهاء حرمه قبل كل شيء، أنت تدرك جيداً أنتي أتكلم عن الموتى وليس عن الموت بعد ذاته، قل لي أين تجد هنا أدنى إشارة إلى التدين، تلاعبك بأسمائهم ليس بالتدنيس الضئيل، أتفهم أن تكون لدى كاتب في محفوظات السجل المدني مثل هذه الأفكار عن الأسماء، قطع الراعي كلامه، وأوّما إلى الكلب ليذهب في إثر نعجة ضالة، ثم تابع قائلاً، تم أخبرك بعد بالسبب الذي بدأ من أجله استبدال اللوحات التي كُتبت عليها أرقام القبور، أشك في أن معرفة ذلك تهمني، وأنا أشك في أنه لا يهمك، هيا أخبرني، إذا كان صحيحاً، مثلاً

هي قناعتي، أن الناس ينتحرون كي لا يُعثر عليهم، فإن هؤلاء الذين هنا، وبفضل خبث راعي أغنام كما قلت حضرتك، صاروا بمنجى من كل التدخلات، والحقيقة أنه لن يكون بإمكانني أنا نفسي، حتى لو رغبت في ذلك، أن أذكر أماكنهم الصحيحة، ما أعرفه فقط هو ما أفكر به عندما أمر أمام أحد هذه الألواح الحجرية التي تحمل الاسم الكامل وتاريخي الميلاد والوفاة، وبماذا تفكّر، بأنه من غير الممكن رؤية الأكذوبة حتى ونحن نراها أمام عيوننا. كان قد انقضى وقت طويل على اختفاء الضباب، وصار بالإمكان الآن رؤية كبر حجم القطبيع. أو ما الراعي بحركة بالعصا فوق رأسه، وكانت تلك الحركة أمراً إلى الكلب ليجمع الماشية. وقال الراعي، لقد حان وقت ذهابي مع النعاج، ليس لأن المرشدين بدؤوا بالمجيء، فأنا أرى أضواء سياراتهم، ولكنهم لا يأتون إلى هنا، فقال دون جوزيه، أما أنا فسابقي، وسألة الراعي، هل تفكّر حقاً في الإبلاغ عنِي، أنا رجل يحافظ على كلمته، وما أقسمت عليه قد أقسمت عليه، ومن المؤكد أنهم سوف ينصحونك بالتزام الصمت أيضاً، لماذا، تصور الجهد الذي سيتطلبه نبش قبور كل هؤلاء الأشخاص، والتعرف عليهم، مع أن كثريين منهم لم يعودوا سوى تراب بين التراب. كانت الأغنام قد تجمعت، وكانت إحداها، وقد تلکأت قليلاً، تقفز برشاقة فوق القبور هرباً من الكلب لتتضم إلى أخواتها. سأله الراعي، هل كنتَ صديقاً أو قريباً لمن جئت لتزورها، بل إنني لم أكن أعرفها، وأنت تبحث عنها مع ذلك، كنتَ أبحث عنها لأنني لا أعرفها، أرأيتَ كيف أنتي كنتَ على حق عندما قلت لك إنك ليس هناك احترام أكبر من البكاء على شخص لم نتعرف عليه، مع السلامة، ربما سيتاح لنا أن نلتقي مرة أخرى، لا أظن ذلك، ومن يدري، من تكون حضرتك، أنا راعي هذه الأغنام، ولا شيء سوى ذلك، لا شيء سوى ذلك. تلاؤ ضوء من بعيد، فقال دون جوزيه، ذاك آتٍ إلى هنا، وقال الراعي، هكذا يبدو.

بدأ القطبيع يتحرك، والكلب في المقدمة، باتجاه الجسر. وقبل أن يخفى وراء أشجار الضفة الأخرى، التفت الراعي وأومأً موعداً. فرفع دون جوزيه ذراعه أيضاً. صار بالإمكان الآن رؤية ضوء سيارة المرشدين المتقطع بوضوح أكبر. إنه يختفي بين حين وآخر، متوارياً بتضاريس الأرض، أو بين أبنية المقبرة غير المنتظمة، الأبراج، المسالات، الأهرامات، ثم يعود للظهور أقوى وأقرب من السابق، إنه يأتي مسرعاً، وهي إشارة واضحة إلى أن الموكب المرافق ليس كبيراً. لقد كانت نية دون جوزيه، عندما قال للراعي، أنا سأبقى، هي البقاء وحيداً بضع دقائق أخرى قبل أن يبدأ السير من جديد. الشيء الوحيد الذي يريده هو التفكير قليلاً بنفسه، والعنور على المقاس الدقيق لخيالية أمله، وتقبيله، وإحلال السلام في روحه، والقول دفعة واحدة، لقد انتهى الأمر، ولكن فكرة جديدة خطرت له الآن. دنا من أحد القبور واتخذ هيئه من هو غارق في تأمل عميق في تقلبات الوجود، وفي عبثية كل الأحلام وكل الآمال، وفي الهشاشة المطلقة للأمجاد الدنيوية والإلهية. كان يتأمل بتركيز شديد لم يجد معه أنه انتبه إلى وصول المرشدين والأشخاص الستة، أو أقل، الذين يرافقون النعش. ولم يتحرك خلال الوقت الذي استمره فتح الحفرة، وإنزال النعش، وملء الفجوة، وتشكيل الجثوة المعهودة بما تبقى من تراب. ولم يتحرك عندما غرس أحد المرشدين فوق موضع الرأس لوحة معدنية سوداء عليها رقم القبر بالأبيض. ولم يتحرك عندما انصرفت سيارة المرشدين والسيارة الجنائزية، ولم يتحرك خلال الدقيقتين القصيرتين اللتين بقي أثاءهما المرافقون واقفين عند القبر يقولون كلمات غير مجده ويمسحون دمعة ما، لم يتحرك عندما أدارت السياراتان اللتان أحضرتاهم محركيهما واجتازتا الجسر. لم يتحرك إلى أن بقي وحيداً. عندئذ نزع الرقم الذي على قبر المرأة المجهولة ووضعه على القبر الجديد. ثم نقل رقم هذا

ليحتل مكان الآخر. لقد تمت المبادلة، وتحولت الحقيقة إلى كذبة. والاحتمال الأكبر على أي حال، هو أن يجد الراعي في الغد قبراً جديداً، فينقل، دون أن يدرى، الرقم المزيف إلى قبر المرأة المحملة، إنه احتمال ساخر حيث تكرر الكذبة نفسها، فتحول إلى حقيقة. إمكانيات المصادفة لا نهائية. انطلق دون جوزيه إلى بيته. وفي الطريق، دخل إلى محل حلويات. تناول قهوة مع الحليب وقطعة خبز محمص. لأنه لم يعد يتتحمل مزيداً من الجوع.

قرر دون جوزيه أن يعوض ما فقده من النوم، فاندس في الفراش فور دخوله إلى البيت، ولكن لم تكن قد انقضت ساعتان حين استيقظ من جديد. لقد رأى حلماً غريباً، غامضاً، رأى نفسه وسط المقبرة، بين حشد من الأغنام، أعداد كبيرة من الأغنام تكاد لا تسمع بتمييز جثوات القبور، وعلى رأس كل واحدة منها رقم يتقل باستمرار، بل إنه لم يكن قادراً، لشدة تشابهها، أن يعرف إذا ما كانت الأغنام هي التي تتبادل الأرقام أم أن الأرقام هي التي تتبادل الأغنام. وكان يسمع صوت صارخ، إنني هنا، إنني هنا، لا يمكن أن يكون صادراً عن الأغنام لأنها فقدت القدرة على الكلام منذ زمن بعيد، ولا يمكن له أن يكون صادراً عن القبور كذلك، لأن الذاكرة لم تسجل أنها تكلمت في يوم من الأيام، ومع ذلك، كان الصوت ينادي بإصرار، إنني هنا، إنني هنا، فينظر دون جوزيه في ذلك الاتجاه ولا يرى سوى مخاطم البهائم المرفوعة، ثم تدوي الكلمات نفسها وراءه، إلى يمينه أو إلى يساره، إنني هنا، إنني هنا، فيلتفت بسرعة، ولكنه لا يتبيّن من أين تأتي. كان دون جوزيه مغموماً، يريد الاستيقاظ ولا يمكن من ذلك، ويتوالى الحلم، ويظهر الآن الراعي وكلبه، فيفكر دون جوزيه، ليس هناك ما لا يعرفه هذا الراعي، وسيخبرني الآن من هو صاحب هذا الصوت، ولكن الراعي لم يتكلم، واكتفى بتحريك العصا فوق رأسه، فدار الكلب حول النعاج، مجبراً إياها على التحرك باتجاه جسر كانت تمر عليه بصمت سيارات ذات لوحات مضيئة تشتعل وتتطفيق قائلة اتبعني، اتبعني، اتبعني، وفي

لحظة اختفى القطط، واختفى الكلب، واختفى الراعي، ولم يبق سوى أرض المقبرة مغطاة بأرقام، الأرقام نفسها التي كانت على رؤوس الأغنام من قبل، ولكن، لأنها كانت جميعها الآن معاً، جميعها متلاصقة من أطرافها، في حذرون غير منقطع هو نفسه مرکزه، لم يعد بالإمكان تمييز أين يبدأ أحدها وأين ينتهي الآخر. استيقظ دون جوزيه مغموماً يغطيه العرق وهو يقول، إنني هنا. كانت جفونه مغمضة، وكان شبهه واع، ولكنه كرر مرتين آخرين بقوه، إنني هنا، إنني هنا، ثم فتح عينيه بعد ذلك على الحيز البائس الذي يعيش فيه منذ سنوات طويلة، رأى السقف المنخفض ذا الملاط المشقق، والأرضية بأخشابها المتلوية والمحدبة، والمنضدة والكرسيين في وسط الصالة، إذا كان لهذا الاسم من معنى في مثل هذا المكان، والخزانة التي يخبئ فيها أخبار وصور المشهورين، والركن المؤدي إلى المطبخ، والركن الذي يستخدمه كحمام، وعندئذ قال، عليّ أن أجد طريقة للخلاص من هذا الجنون، وكان يعني بذلك، بكل وضوح، المرأة التي صارت الآن مجهرة إلى الأبد، أما البيت، ويا له من مسكين، فليس له أي ذنب، لأنه بيت كثيب وحسب. وخوفاً من أن يتكرر الحلم، لم يحاول دون جوزيه العودة إلى النوم من جديد. كان مستلقياً على ظهره، ينظر إلى السقف، منتظراً منه أن يسألة، لماذا تنظر إليّ، ولكن السقف لم يأبه به، واقتصر على مراقبته دون أن يبدل ملامحه. تخلى دون جوزيه عن انتظار أن يهب السقف لمساعدته، لأن عليه أن يحل المشكلة وحده، والطريقة المثلثة ما زالت في إيقاع نفسه بأنه ليس هناك أي مشكلة، بموت الكلب انتهى السعار، كان هذا المثل الذي ينم عن قلة احترام هو ما خرج من فمه، وصف المرأة المجهرة بالكلب المسعور، متجاهلاً للحظة أن هناك سموماً بطيئة جداً ما إن يحيى موعد مفعولها حتى تكون قد نسينا أصلها. ولكنه انتبه على الفور، وغمغم، حدار، قالموت في أحيان كثيرة هو سم بطيء، ثم تساءل

بعد ذلك، متى ولماذا بدأت هي بالموت. عندئذ خرج السقف عن لامباته، ودون أن يبدو أن هناك علاقة مباشرة أو غير مباشرة بما سمعه، قال متذكرةً، مازال هناك ثلاثة أشخاص على الأقل لم تكلمهم، فسألة دون جزئيه، ومن هم، إنهم الأبوان والزوج السابق، الحقيقة أن التحدث إلى الأبوين لن يكون بالفكرة السيئة، لقد فكرت في ذلك في البدء، ولكنني قررت تأجيله إلى مناسبة أخرى، إما أن تفعل ذلك الآن وإلا فإنك لن تفعله أبداً، فما زال بإمكانك اللهو بالمضي قليلاً في هذا الطريق، قبل أن يصطدم وجهك، نهائياً، بالجدار، لو لا أنه متشبث بمكانك هنا طوال الوقت، باعتبارك سقفاً، لكنك عرفت أن الأمر لم يكن لهواً، وإنما كان تسلية، وما هو الفرق، ابحث عنه في المعاجم، فهذا هو مبرر وجودها، سألتُ مجرد السؤال، فأي شخص يعرف بأن مناورة لهوٌ ليست مناورة تسلية، وما قوله في الآخر، من تعني بالأآخر، أعني الزوج السابق، ربما كان القادر على إخبارك بأشياء أكثر من غيره عن امرأتك المجهولة هذه، يخيل إلي أن حياة المتزوجين، الحياة المشتركة، هي أشبه بعدهة مكبة، ويغيل إلي أنه لا وجود ل تحفظات أو أسرار قادرة على الصمود لوقت طويل أمام مجهر المراقبة المستمرة، هناك من يقول، على عكس ذلك، بأنه كلما ازداد التحديق تضاءلت الرؤية، ومهما يكن من أمر، لا أظن أن التحدث إلى ذلك الرجل يستحق العناء، إنك تخشى أن يبدأ في عرض أسباب الطلاق أمامك، فأنت لا تريد سماع شيء ينال منها، الناس عموماً لا يكونون عادلين، سواء مع أنفسهم أو مع الآخرين، وبالتالي سوف يروي لي القضية محاولاً أن يعطي نفسه كل الحق، تحليل ذكي، أجل يا سيدي، لستُ بالأبله، صحيح، لستَ أبله، كل ما هنالك أنك تحتاج إلى وقت طويل من أجل فهم الأشياء، وخصوصاً أشدتها بساطة، مثل مثلاً، لم يكن لديك أي مبرر للبحث عن هذه المرأة، إلا إذا، إلا إذا، ماذا، إلا إذا كان هناك حب، لابد من أن

تكون سقفاً حتى تخطر لك مثل هذه الفكرة السخيفية، اظن أنني قلت لك ذات مرة بأن سقوف المنازل هي عين الرب المتعددة، لا ذكر ذلك، إذا كنت لم أقله بهذه الكلمات تحديداً، فإنني أقوله لك الآن، قل لي إذن كيف يمكنني أن أحب امرأة لم أعرفها، ولم أرها قط، إنه سؤال وجيه دون شك، ولكنك أنت وحدك من تستطيع الإجابة عنه، هذه فكرة ليس لها أساس ولا رأس، لا أهمية لأن يكون لها رأس أو أساس، فانا أحدهم عن جزء آخر من الجسم، عن القلب، هذا الذي يقولون إنه محرك العواطف ومستقرها، أكرر أنه لا يمكن لي أن أحب امرأة لا أعرفها، امرأة لم أرها قط، اللهم إلا في صورٍ قديمة، كنت تسعى لرؤيتها، وللتتعرف عليها، وهذا هو الحب سواء وافقت أم لم تتوافق، إنها أوهام سقف، بل هي أوهامك، أوهام إنسان، وليس أوهامي، أنت سقف متعرج، تظن أنك تعرف كل شيء عنِّي، ليس كل شيء، ولكن لا بد أنني عرفت شيئاً ما بعد كل هذه السنوات الطويلة من الحياة المشتركة، أراهن على أنه لم يجعل في ذهنك قط أنت، أنا وأنت، نعيش معاً، والفرق الوحيد بيننا هو أنك لا توليني اهتمامك إلا عندما تحتاج لنصيحتي وترفع بصرك إلى أعلى، بينما أنا أنظر إليك طوال الوقت، عين الرب، خذ مجازاتي على محمل إذا شئت، ولكن لا ترددتها كما لو كانت لك، وبعد هذا قرر السقف أن يصمت، فقد أدرك أن أفكار دون جوزيه تتجه نحو الزيارة التي سيقوم بها إلى أبيي المرأة المجهولة، وهي خطوطه الأخيرة قبل أن يصطدم بالجدار، وهذا أيضاً تعبير مجازي، لقد وصلتُ إلى النهاية.

غادر دون جوزيه الفراش، قام بالنظافة الجسدية كما يجب، أعد شيئاً يأكله، مستعيداً بذلك حيويته البدنية، واستعلن بالحيوية المعنوية ليتصل هاتفيأً بوالدي المرأة المجهولة، مُظهراً الفتور البيروقراطي الضوري، لكي يعرف في المقام الأول إذا ما كانوا موجودين في المنزل،

ثم ليسألهما إذا كانوا يستطيعان، في هذا اليوم بالذات، استقبال موظف من المحفوظات العامة للسجل المدني يحتاج إلى التداول معهما حول قضية لها علاقة بابنتهما المتوفاة. لو كان الأمر متعلقاً بمكالمة أخرى، لخرج دون جوزيه للتحدث من كابينة الهاتف العامة الموجودة في الجانب الآخر من الشارع، أما في هذه الحالة، فهناك خطر أن يسمع الناس، حين يصفون بييقظ، صوت العملة المعدنية وهي تسقط في حسالة الآلة، وعندئذ سيحتاج حتى أقل الناس ارتياحاً إلى البحث عن تفسير للسبب الذي يدفع موظفاً في المحفوظات العامة إلى الاتصال من كابينة هاتف، وفي يوم أحد، للتحدث عن شؤون لها علاقة بالعمل. حلّ هذه المشكلة الصعبة لم يكن بعيداً، في الظاهر، عن متداول يد دون جوزيه، إذ يكفيه أن يدخل خلسة إلى المحفوظات مرة أخرى، ويستخدم الهاتف الذي على منضدة الرئيس، ولكن المجازفة في هذا التصرف لن تكون أقل خطورة، فكشف المكالمات الهاتفية الذي ترسله الشركة كل شهر ويجري تدقيقه، رقماً فرقماً، من قبل المدير نفسه، سيتضمن بالضرورة هذه المكالمة السرية، ما هذه المكالمة التي أجريت من هنا في يوم أحد، هكذا سيسأل المدير نائبه، وسيضيف على الفور، دون انتظار إجابة عادية، بادراً إلى إجراء تحقيق في الأمر، هيا. وسيكون حلّ لغز المكالمة السرية من أسهل الأمور في الدنيا، فهو لن يكلف سوى الاتصال بالرقم المشبوه وسماع المعلومة من هناك، أجل يا سيدي، في ذلك اليوم اتصل بنا موظف من المحفوظات العامة للسجل المدني، ولم يتصل فقط، بل جاء إلى بيتنا، وكان يريد أن يعرف الأسباب التي دفعت ابنتنا إلى الانتحار، وزعم بأن ذلك من أجل الإحصاء، من أجل الإحصاء، أجل يا سيدي، من أجل الإحصاء، هذا ما قاله لنا على الأقل، حسن، اسمعني الآن بانتباه، قل ما تريد، من أجل الكشف التام عن هذه القضية لا بد لكِ أنتِ وزوجكِ من أن تتعاونا مع سلطات المحفوظات،

وما هو المطلوب منا، ستاتيأن غداً إلى المحفوظات للتعرف على الموظف الذي زاركمـا، سنكون عندكم في الفد، ستاتي سيارة لإحضاركمـا. لم تقتصر مخيلة دون جوزيه على خلق هذا الحوار المثير للقلق، فما أن انتهـى من ذلك حتى انتقل إلى التخيـل الذهـني لما سيحدث لاحقاً، دخـول أبوـا المرأة المجهـولة إلى المحفـوظات والإـشارة إـليـهـ، إنهـ ذاكـ، أوـ بـقاـهـماـ فيـ السيـارـةـ التيـ ستـأتـيـ بهـماـ، ليـراـقبـاـ دخـولـ الموـظـفـينـ وـليـشـيراـ، لقد كانـ ذـاكـ. وـتـمـتـ دونـ جـوزـيهـ بـجـزـعـ، إـنـتـيـ ضـائـعـ لـمـحـالـ، لـيـسـ أـمـامـيـ مـنـ مـخـرـجـ، بلـىـ، لـديـكـ مـخـرـجـ، وـهـوـ مـخـرـجـ مـرـبـعـ، وـنـهـائـيـ، إـذـاـ مـاـ تـخـلـيـتـ عنـ الـذـهـابـ إـلـىـ بـيـتـ أـبـوـيـ الـرـأـءـةـ المـجـهـولـةـ، أوـ ذـهـبـتـ إـلـيـهـماـ دونـ إـشـعـارـ مـسـبـقـ، أـنـ تـذـهـبـ وـتـطـرـقـ الـبـابـ بـبـسـاطـةـ وـتـقـولـ، مـسـاءـ الـخـيـرـ، أـنـاـ موـظـفـ مـنـ الـمـحـفـوظـاتـ الـعـامـةـ لـسـجـلـ الـمـدـنـيـ، أـرـجـوـ الـمـعـذـرـةـ لـجـيـئـيـ وـازـعـاجـكـماـ فـيـ يـوـمـ الـأـحـدـ، وـلـكـ الـعـمـلـ فـيـ الـمـحـفـوظـاتـ تـرـاـكـمـ إـلـىـ حدـ أـنـنـاـ طـبـقـنـاـ نـظـامـ عـلـمـ السـاعـاتـ الـإـضـافـيـةـ الدـائـمـةـ، لـأـنـ أـنـاسـاـ كـثـيرـينـ يـوـلـدونـ وـيـمـوتـونـ. سـيـكـونـ ذـكـ أـكـثـرـ التـصـرـفـاتـ ذـكـاءـ دـوـنـ رـيـبـ، فـهـوـ سـيـوـفـرـ لـدـوـنـ جـوزـيهـ أـقـصـىـ الضـمـانـاتـ الـمـمـكـنـةـ حـوـلـ أـمـنـهـ الـمـسـتـقـبـلـ، وـلـكـ مـقـبـرـةـ بـأـذـرـعـهاـ الـأـخـطـبـوـطـيـةـ الـمـمـتـدـةـ، وـلـيـلـةـ الـقـمـرـ الـقـاتـمـ وـالـظـلـالـ الـمـتـحـرـكـةـ، وـالـرـقـصـةـ الـمـتـأـرـجـحةـ لـلـنـارـ الـكـاذـبـةـ، وـالـرـاعـيـ الـمـسـنـ وـالـنـعـاجـ، وـالـكـلـبـ الـصـمـوـتـ، كـمـاـ لـوـ أـنـهـمـ اـسـتـأـصـلـوـاـ حـبـالـهـ الصـوـتـيـةـ، وـالـقـبـورـ بـأـرـقـامـهـ الـمـتـبـدـلـةـ، يـبـدوـ أـنـ كـلـ ذـكـ قـدـ شـوـشـ أـفـكـارـهـ، وـهـيـ الـمـتـأـلـقـةـ وـالـصـافـيـةـ عـمـومـاـ بـمـاـ يـكـفيـ لـلـتـحـكـمـ بـحـيـاتهـ، وـلـاـ يـمـكـنـ أـنـ تـكـوـنـ هـنـاكـ طـرـيـقـةـ أـخـرـىـ لـفـهـمـ إـصـرـارـهـ عـلـىـ فـكـرـةـ الـاتـصالـ بـالـهـاتـفـ، وـمـاـ لـيـمـكـنـ فـهـمـهـ أـكـثـرـ هـوـ أـنـ يـحـاـوـلـ أـنـ يـبـرـرـ ذـكـ، أـمـامـ نـفـسـهـ، بـالـحـجـةـ الصـبـيـانـيـةـ بـأـنـ يـمـكـنـ لـكـالـمـلـةـ مـسـبـقـةـ أـنـ تـمـهـدـ السـبـيلـ لـلـحـصـولـ عـلـىـ الـمـعـلـومـاتـ. وـهـوـ يـرـىـ أـنـ لـدـيـهـ صـيـغـةـ يـمـكـنـ لـهـاـ أـنـ تـبـدـدـ مـنـ الـبـدـءـ أـدـنـىـ قـدـرـ مـنـ الـرـبـيـةـ، إـذـ يـمـكـنـهـ أـنـ يـقـولـ، مـاـ يـقـولـهـ الـآنـ، وـهـوـ

جالس على كرسي الرئيس، أنا من مفرزة المحفوظات العامة للسجل المدني، فكلمة مفرزة هذه، كما يعتقد، هي المفتاح السري الذي سيفتح أمامه كل الأبواب، ويبدو أنه لا يجافي الحقيقة، فها هم يردون عليه من الجانب الآخر، أجل يا سيدي، يمكنك المجيء متى شئت، فالليوم لن نخرج من البيت. وجاءت ومضة رصانة أخيرة لتسوق إلى رأس دون جوزيه فكرة أنه إنما يعقد العقدة الأخيرة في أنشوطه الحبل الذي سيشنقه، ولكن الجنون طمأنه، قال له إن كشف المكالمات الهاتفية سيتأخر بضعة أسابيع قبل أن ترسله شركة الهاتف، ومن يدري، فقد يكون المدير في إجازة عندئذ، أو يكون مريضاً في بيته، أو ربما سيأمر ببساطة أحد نائبه بتدقيق الأرقام، ولن تكون المرة الأولى التي يفعل فيها ذلك، وهو ما يعني أن الجريمة لن تكتشف في الغالب، إذا ما أخذنا في الاعتبار بأن أيّاً من نائب المدير لن تروقه تلك المهمة، حسن، فليسترح الظهر مادامت العصا تروح وتجيء، دمدم دون جوزيه بذلك، مستسلماً لما يحمله القدر. أعاد دليل الهاتف إلى مكانه الدقيق على المنضدة، ومسح السماعة بالمنديل ليمحو بصمات أصابعه ودخل إلى البيت. بدأ بتلميع الحذاء، ثم مر بالفرشاة على البدلة، ارتدى قميصاً نظيفاً، وأفضل ربطة عنق، وكان يمسك مقبض الباب للخروج عندما تذكر وثيقة التكليف. فالذهاب إلى بيت أبيي المرأة المجهولة وتقديم نفسه ببساطة بالقول، أنا هو الشخص الذي اتصل من المحفوظات، لن يكون له بالتأكيد القدرة على الإقناع والسلطة بالمعنى نفسه الذي سيكون لوضعه أمام عيونهما ورقة رسمية، مختومة ومؤقعة، تخول حاملها كامل الحقوق والصلاحيات في ممارسة مهامه ومن أجل الإنجاز التام للمهمة الموكلة إليه. فتح الخزانة، وبحث عن ملف المطران وأخرج منه وثيقة التكليف، ولكنه أدرك بنظره واحدة أنها لن تنفع. أولاً لأن تاريخها سابق للاعتقال، وثانياً بسبب صيغة تحريرها بالذات،

وتضمنها مثل تلك العبارات التي تأمر بالقصي الدقيق عن كل ما يتعلق بحاضر وماضي ومستقبل المرأة المجهولة، وفكر دون جوزيه، حتى أنت لا أعرف أين هي الآن، وأما بالنسبة لحياتها المستقبلية، فقد تذكر في هذه اللحظة، الأهزوحة الشعبية التي تقول، ما هو وراء الموت، لم يره أحد قط، ولن يراه أحد، فمن بين الكثيرين الذين ذهبوا هناك، لم يرجع أحد على الإطلاق. وكان على وشك أن يعيد وثيقة التكليف إلى مكانها، ولكنه اضطر في اللحظة الأخيرة إلى الرضوخ مرة أخرى للحالة الروحية التي تدفعه إلى التركيز بصورة لجوجة على فكرة والالحاد عليها إلى أن يراها تتحقق. فيما أنه تذكر وثيقة التكليف، فلا بد له من أن يحمل معه وثيقة تكليف. دخل ثانية إلى المحفوظات، وتوجه إلى خزانة المطبوعات، ولكنه نسي أن خزانة المطبوعات صارت تُغلق على الدوام منذ ذلك التحقيق. أحس للمرة الأولى في حياته، كشخص مسالم، بهيأة الغضب، وببلغ به ذلك إلى حد التفكير بتوجيهه ضربة إلى الزجاج ولتهب العواقب إلى الجحيم. ولكنه تذكر في الوقت المناسب لحسن الحظ بأن نائب المدير المكلف بالسهر على استهلاك المطبوعات يخieri مفتاح الخزانة في درج منضدته، وأنه من غير المسموح، وفق أنظمة المحفوظات العامة الصارمة، إغلاق أدراج منضدي نائي المدير، الشخص الوحيد الذي يحق له الاحفاظ بالأسرار هنا هو أنا، هكذا كان قد قال الرئيس، وكلمته قانون، ولكنها لا تتطبق في هذه الحالة على المأمورين والكتبة لسبب بسيط هو أنهم، كما رأينا، يعملون على مناضد بسيطة، دون أدراج. لف دون جوزيه يده اليمنى بالمنديل حتى لا يترك أدنى أثر من أصابعه قد يشي به، وتناول المفتاح وفتح خزانة المطبوعات. أخرج ورقة رسمية عليها شعار المحفوظات، ثم أغلق الخزانة، وأعاد المفتاح إلى درج نائب المدير، وفي هذه اللحظة صدر صرير عن قفل باب المبنى الخارجي، سمع لسان

القفل وهو ينزلق مرة، فأصاب دون جوزيه الشلل لبرهة، ولكنه ما ليث أن تحرك على الفور، مثلما في أحلام طفولته تلك التي كان يطفو فيها، دون وزن، فوق الحدائق والأسطح، لقد تحرك بخفة على رؤوس أصابعه، وعندما فتح الباب كان دون جوزيه قد صار في بيته، لاهثاً، كما لو أن قلبه قد صعد إلى فمه. مرّ وقت طويل قبل أن يسمع من الجانب الآخر للباب صوت أحدهم يسعل، وفكرون دون جوزيه وهو يشعر بارتخاء في ساقيه، إنه الرئيس، لقد نجوت بأعجوبة. ثم سمع السعال مرة أخرى، أكثر قوة، وربما أكثر قرباً، مع فارق أنه يبدو في هذه المرة مقصوداً، متعمداً، وكان من دخل يزيد الإعلان عن وجوده. كان دون جوزيه ينظر بربع إلى قفل الباب الرقيق الذي يفصله عن المحفوظات. لم يجد الوقت الكافي ليدير فيه المفتاح، وكان لسان القفل الصغير وحده هو الذي يُبقي الباب مغلقاً، وراح صوت يصرخ في رأس دون جوزيه، إذا ما جاء، إذا ما أدار مقبض الباب، إذا ما دخل هنا، فإنه سيفاجئك متلبساً بالجريمة المشهود، بهذه الورقة في يدك، ووثيقة التكليف على الطاولة، ولم يقل له الصوت غير ذلك، فقد كان يشفق على الكاتب، ولم يحدّثه عن العواقب. تراجع دون جوزيه بتمهل نحو الطاولة، تناول وثيقة التكليف وخبأها، مع الورقة التي أخرجها من الخزانة، بين ملاءات السرير الذي لم يرتبه بعد. ثم جلس بعد ذلك وراح ينتظر. لو أن أحداً سأله ما الذي ينتظره، لما عرف بماذا يجيب. مرت ساعة، وبعد دون جوزيه يفقد الصبر. لم يعد يصدر من الجانب الآخر للباب أي صوت. لا بد أن أبي المرأة المجهولة يستغريان تأخر موظف المحفوظات، انطلاقاً من مبدأ أن العجلة هي السمة الرئيسية لكل القضايا التي تتولاها مفرزة خارجية، مهما كانت طبيعة عملها، سواء الماء، أو الغاز، أو الكهرباء، أو الانتحار. انتظر دون جوزيه ربع ساعة أخرى دون أن يتحرك عن الكرسي. وبعد هذا الوقت انتبه إلى

أنه قد اتخاذ قراراً، ولم يكن ذلك متابعة فكرة ثابتة ببساطة كما هي العادة، وإنما هو قرار، بالرغم من أنه هو نفسه لا يعرف كيف اتخذه. فقد قال بصوت عالٍ تقريباً، فليحدث ما يجب أن يحدث، الخوف لا يحل أي مشكلة. وبرأيَّطة جأش لم تعد تفاجئه، تناول وثيقة التكليف والورقة الرسمية، جلس إلى المنضدة، وضع المخبرة أمامه، وراح يستسخ، ويختصر وينفع، محراً الوثيقة الجديدة، أحيط علمأً، بصفتي مدير هذه المحفوظات العامة للسجل المدني، جميع من بهمهم الأمر، مدنيين أو عسكريين، خاصين أو عامين، ومن يرون أو يقرؤون أو يراجعون هذا التكليف، بأن فلان الفلاني قد تلقى مني مباشرة، الأمر والتکلیف بالتعري عن كل ما هو متعلق بظروف انتشار فلانة الفلانية، وعن الأسباب البعيدة والقريبة لانتشارها، بعد هذه النقطة بقى النص مطابقاً تقريباً للوثيقة الأولى، حتى صيغة الأمر الأخيرة والحاصلة، للتنفيذ. من المؤسف أنه لم يكن بالإمكان مهر الورقة بالخاتم، إذ لا يمكن الوصول إليه الآن بسبب دخول الرئيس إلى المحفوظات، ولكنه كان يعتمد إلى قوة السلطة التي تتضح من كل كلمة في الوثيقة. خباء دون جوزيه وثيقة التكليف الأولى مع قصاصات المطران، ودس في جيب سترته الداخلية الوثيقة التي انتهى من كتابتها، ثم نظر بنفحة تحد إلى باب الاتصال مع المحفوظات. كان الصمت في الجانب الآخر ما يزال مطبقاً. عندئذ غمم دون جوزيه، لا فرق عندي أن تكون هناك أو لا تكون. ثم تقدم نحو باب الخروج مغادراً، وأفلله بالفتح، بفظاظة، مديرأً معصمه دورتين سريعتين، ساب، ساب.

نقلته سيارة أجرة إلى بيت أبيي المرأة المجهولة. قرع الجرس، فظهرت سيدة تبدو في الستين وبضع سنوات قليلة، وهي أصغر سنأً وبالتالي من سيدة الشقة اليمنى من الطباق فوق الأرضي التي كان زوجها يخونها معها قبل ثلاثين سنة، أنا الشخص الذي اتصل من

المحفوظات العامة، قال لها دون جوزيه، تفضل بالدخول، إتنا في انتظارك، اعذرني لأنني لم أحضر فوراً، فقد كان علي أن أنجز قضية مستعجلة أخرى، لا أهمية لذلك، تفضل، تفضل، سأتقدمك. كان البيت غارقاً في جو مكفره، فهناك ستائر تفطى الأبواب والنوافذ، وأثاث ثقيل، وعلى الجدران لوحات قائمة لمناظر طبيعية لم يكن لها وجود قط. أدخلت صاحبة البيت دون جوزيه إلى حجرة أشبه بمكتب، حيث كان في الانتظار رجل أكبر منها سنًا بصورة ملحوظة، قالت له المرأة، إنه السيد القادم من المحفوظات، فدعاه الرجل مشيراً إلى كرسي، تفضل بالجلوس. أخرج دون جوزيه وثيقة التكليف من جيبه، وأمسكها بيده وهو يقول، يؤسفني أن أزعجكم في حدادكم، ولكنها متطلبات العمل، هذه الوثيقة تبين بدقة فحوى مهمتي هنا. سلم الورقة للرجل الذي قرأها وهو يقرّبها كثيراً من عينيه، وقال أخيراً، لابد أن مهمتك على جانب كبير من الأهمية، ولا لما حُررت وثيقة بمثل هذه المفردات لتبريرها، إنه أسلوب المحفوظات العامة، حتى عندما يتعلق الأمر بمهمة بسيطة مثل هذه المهمة للتحقيق في أسباب انتحار، أبيدولك ذلك قليلاً، أرجو ألا تسيء فهمي، فما أردت قوله هو أنه مهما كانت المهمة التي تؤديها، وتتطلب وثيقة تكليف، فإن الأسلوب يكون على هذا النحو، إنها بلاغة السلطة اللغظية، يمكنك أن تسميها بذلك. وهنا تدخلت المرأة لتسأل، وما الذي تريد المحفوظات معرفته منا، نريد أن نعرف السبب المباشر للانتحار في المقام الأول، فسألة الرجل، وفي المقام الثاني، الحيثيات، والظروف، والملابسات، وكل ما يمكن أن يساعدنا في فهم أفضل لما حدث، الا يكفي المحفوظات أن تعرف بأن ابنتي قد انتحرت، عندما قلت لكما إنني أريد التكلم معكما لأسباب إحصائية، كنت أبْسِطُ المسألة، يمكنك الآن أن توضح ما تريده، لقد ولى الزمن الذي كنا نكتفي فيه بالأرقام، وصرنا نسعى في هذه الأيام إلى أن

نعرف، على أكمل وجه ممكن، الإطار السيكولوجي الذي تتطور فيه سيرورة الانتحار، فسألته المرأة، ولماذا، ما دام ذلك لا يعيد الحياة إلى ابنتي، الفكرة المتواخة هي إقرار معايير للتدخل، فقال الرجل، لستُ أفهمك. بدأ دون جوزيه يتعرق، فالقضية أكثر تعقيداً مما توقعه، يا للحر، هتف بضيق، فسألته المرأة، هل تريد كأساً من الماء، إذا لم يكن في ذلك إزعاج، بالله عليك، قالت المرأة ذلك وهي تنهض لتخرج ثم ترجع بعد دقيقة. وبينما كان دون جوزيه يشرب الماء الذي أحضرته، قرر أنه لا بد له من أن يغير تكتيكه. وضع الكأس على الصينية التي تحملها المرأة وقال، تصورا أن ابنتكم لم تتحرر بعد، وتصورا أن البحث الذي تقوم به المحفوظات العامة للسجل المدني قد أتاح لنا إسداء بعض النصائح والتوصيات التي يمكن لها، إذا ما طُبِقت في الوقت المناسب، أن تُوقف ما أسميته سابقاً سيرورة الانتحار، فسألة الرجل، لهذا هو ما كنتَ تعنيه بمعايير التدخل، أجل، بالضبط، قال دون جوزيه ذلك، ثم وجه الطعنة الأولى دون أن يفسح المجال لتعليق آخر، وإذا كنا لم نستطيع الحيلولة دون انتحار ابنتكم، فربما سنتمكن، بمساعدتكم ومساعدة آخرين في مثل وضعكم، من تجنب الكثير من المأسى والكثير من الدموع. كانت المرأة تبكي وهي تهمهم، يا لابنتي الحبيبة، بينما الرجل يمسح عينيه بظاهر يده بعنف مكبوح. وكان دون جوزيه يأمل بـلا يجد نفسه مضطراً إلى اللجوء إلى وسيلة أخيرة، ستكون، كما فكر، قراءة وثيقة التكليف بصوت عالٍ وصارم، كلمة كلمة، وكأنها أبواب تُغلق على التوالي فلا تترك للسامع إلا مخرجاً وحيداً يتمثل في الانصياع الفوري لواجب التكلم. فإذا ما أخفقت هذه الوسيلة، فلن يكون أمامه سوى التماس العذر بأسرع ما يمكن والخروج مبدياً أكبر قدر من السخط. وسيكون عليه عندئذ أن يصل إلى لا يخطر ببال أبي المرأة المجهولة هذا أن يتصل بالمحفوظات العامة طالباً توضيحات بشأن زيارة موظف

يدعى دون جوزيه، ولستُ أذكر كنيته. لم يكن كل ذلك ضروريًّا. فقد طوى الرجل وثيقة التكليف وأعادها إليه. ثم قال، إننا تحت تصرفك. تنفس دون جوزيه الصعداء، لقد صار الطريق مفتوحًا أمامه أخيرًا للدخول في الموضوع، هل تركت ابنتكما رسالة ما، لا، لم تترك أي رسالة، ولا أي كلمة، أتريد أن تقول أنها انتحرت هكذا دون أية مقدمات، لا بد أن تكون لديها أسبابها، ولكننا لم نكن نعرفها، وقالت المرأة، لقد كانت تعيسة، فقاطعها زوجها بنفاد صبر، ما من سعيد ينتحر، وسألهما دون جوزيه، لماذا كانت تعيسة، لا أدرى، منذ طفولتها كانت تبدو كئيبة، وكانت أطلب منها أن تخبرني بما تعانيه فترد عليَّ دومًا بالكلمات نفسها، لستُ أعاني من أي شيء يا أماه، لم يكن الطلاق إذن هو سبب الانتحار، على العكس، وإذا كنتُ قد رأيت ابنتي سعيدة يومًا، فإن ذلك حدث بعد انفصالها عن زوجها، ألم تكن علاقتها بزوجها جيدة، لم تكن جيدة ولا سيئة، بل كانت عادلة مثل أزواج كثيرين، ومن منهم الذي طلب الطلاق، هي، هل كان هناك دافع محدد، على حد علمنا لا، كان ذلك وكأنهما وصلا كلاهما إلى نهاية طريق، وماذا عنه، عادي، إنه شخص عادي جداً، حسن الطباع، ولم يكن بيدي لنا تذمره قط، وهل كان يحبها، أظن ذلك، وهل كانت هي تحبه، أظن ذلك أيضًا، ومع ذلك لم يكونا سعيدين، لم يكونا سعيدين مطلقاً، يا له من وضع غريب، فقال الرجل، الحياة غريبة. ساد الصمت، فنهضت المرأة وخرجت. وبقي دون جوزيه حائراً، لم يكن يدرى إذا ما كان من الأفضل أن ينتظر إلى أن تعود أم يواصل الحديث مع الرجل. كان يخشى من أن يؤدي توقف الحوار إلى تعثر الاستجواب، وكان التوتر في الجو يكاد يكون ملماوساً. تسائل دون جوزيه عما إذا لم تكن عبارة الرجل تلك، الحياة غريبة، إلا صدى لعلاقته القديمة مع سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي، وإذا لم يكن خروج المرأة المفاجئ سوى

رَدَّ مِنْ لَمْ يَكُنْ بِإِمْكَانِهَا فِي تِلْكَ الْلحَظَةِ تَقْدِيمَ رَدًّا أَخْرَى. تَأْوِلُ دُونْ جُوزِيَّهِ الْكَأسِ، وَشَرْبُ قَلِيلًا مِنَ الْمَاءِ لِكِي يَكْسِبُ الْوَقْتَ، ثُمَّ وَجَهَ سُؤَالًا دُونْ تَفْكِيرٍ، هَلْ كَانَتْ ابْنَتَكَ تَعْمَلُ، أَجَلُ، كَانَتْ مُعْلِمَةً رِياضِيَّاتٍ، أُمِّيْنَ، فِي الْمَدْرَسَةِ نَفْسَهَا الَّتِي كَانَتْ تَتَعْلَمُ فِيهَا قَبْلَ الدِّهَابِ إِلَى الْجَامِعَةِ. تَأْوِلُ دُونْ جُوزِيَّهِ الْكَأسِ مَرَّةً أُخْرَى، وَكَانَ عَلَى وَشَكِّ أَنْ يَوْقِعَهُ فِي تَعْجِلٍ، فَتَلْعَمُ بِصُورَةِ مُضْحِكَةٍ، الْمُعْذَرَةُ، ثُمَّ انْقَطَعَ صُوتُهُ فَجَأًةً، وَبَيْنَمَا هُوَ يَشْرُبُ، رَاحَ الرَّجُلُ يَنْظَرُ إِلَيْهِ بِفَضْلِ مَزْدَرٍ، فَقَدْ بَدَأَ لَهُ أَنْ الْمَحْفُوظَاتُ الْعَامَّةُ لِلْسُّجْلِ الْمَدْنِيِّ، بِالنِّظَارَةِ إِلَى هَذَا النَّمُوذِجِ، تَعْانِي مِنْ سُوءِ كَفَاءَةِ مَوْظِفِيهَا، فَلَيْسَ مِنَ الْلَّائِقِ أَنْ يَظْهُرَ أَحَدُهُمْ مَسْلِحًا بِوَثِيقَةِ تَكْلِيفٍ مُثْلِ تِلْكَ لِيَتَصْرِفَ بَعْدَ ذَلِكَ كَأَحْمَقٍ. دَخَلَتِ الْمَرْأَةُ فِي الْلحَظَةِ الَّتِي كَانَ زَوْجَهَا يَسْأَلُهُ بِسُخْرِيَّةٍ، إِلَّا تَرِيدُ أَنْ أَعْطِيَكَ اسْمَ الْمَدْرَسَةِ، فَرِيمَا يَنْفَعُكَ فِي الْوَصْلِ إِلَى نَتَائِجٍ جَيِّدةٍ فِي مَهْمَتِكِ، أَشْكُرُكَ عَلَى ذَلِكَ شُكْرًا جَزِيلًا. انْحَنَى الرَّجُلُ عَلَى الْمُنْضَدَّةِ، وَكَتَبَ عَلَى وَرْقَةِ اسْمِ الْمَدْرَسَةِ وَالْعَنْوَانِ، وَقَدَمَهُ بِجَفَاءِ إِلَى دُونْ جُوزِيَّهِ، وَلَكِنَّ الشَّخْصَ الَّذِي بَدَا أَمَامَهُ الْآنَ لَمْ يَعْدْ الشَّخْصَ نَفْسَهُ الَّذِي كَانَهُ قَبْلَ لَحْظَاتٍ، فَقَدْ اسْتَعْدَادَ دُونْ جُوزِيَّهِ هَدْوَهُ عِنْدَمَا تَذَكَّرَ أَنَّهُ يَعْرُفُ سَرًّا مِنْ أَسْرَارِ هَذِهِ الْأُسْرَةِ، سَرْ قَدِيمٌ لَا يَمْكُنُ لَأَيِّ مِنَ الْزَّوْجَيْنِ أَنْ يَتَصَوَّرَ أَنَّهُ يَعْرُفُهُ. وَمِنْ هَذِهِ الْفَكْرَةِ بَرَزَ السُّؤَالُ الَّذِي وَجَهَهُ عَلَى إِثْرِ ذَلِكَ، هَلْ تَعْرِفَانِ إِذَا مَا كَانَ لَدِي ابْنَتَكُمَا مَذَكَّرَاتٍ مَا، فَقَالَتِ الْأُمُّ، لَا أَعْتَدَ، أَوْ أَنْتِ لَمْ أَجِدْ عَلَى الْأَقْلَى شَيْئًا مِنْ هَذَا الْقَبِيلَ، وَلَكِنَّ لَا بَدَأَ أَنْ تَكُونَ هُنَاكَ أُوراقٌ مُكْتَوَيَّةٌ، مَلَاحِظَاتٌ، فَإِذَا مَا سَمِحْتَ لِي بِاللَّقَاءِ نَظَرَةً عَلَيْهَا، فَقَدْ أَجِدْ فِيهَا شَيْئًا مُهِمًا، فَقَالَ الْأَبُ، حَتَّى الْآنَ لَمْ تُخْرِجِ أَيِّ شَيْءٍ مِنَ الْبَيْتِ، وَلَا أَدْرِي مَتَى سَنَفْعُلُ ذَلِكَ، وَهَلْ كَانَتْ ابْنَتَكُمَا تَعِيشُ فِي بَيْتٍ مُسْتَأْجَرٍ، لَا، الْبَيْتُ مَلْكُ لَهَا، افْهَمُ ذَلِكَ. سَادَ صَمْتٌ قَصِيرٌ، فَتَحَّ دُونْ جُوزِيَّهِ خَلَالَهِ وَثِيقَةُ التَّكْلِيفِ بِتَمْهِلٍ، وَنَظَرَ إِلَيْهَا مِنْ أَعْلَى إِلَى أَسْفَلٍ كَمَا لَوْ أَنَّهُ يَتَأَكَّدُ

من الصالحيات التي ما زال بإمكانه استخدامها، ثم قال، هل تسمحون لي بالذهاب إلى هناك، بحضوركم طبعاً، لا، جاء الجواب جافاً وحازماً، فذكره دون جزئيه، وثيقة تكليفني، فقال الرجل، يمكن لوثيقة تكليفك أن تكفي الآن بالمعلومات التي حصلت عليها، ثم أضاف، وإذا رغبت، يمكننا مواصلة الحديث غداً في المحفوظات، واعذرني الآن، فلدي أمور أخرى ينبغي لي أن أسويها، فرد دون جزئيه، لا حاجة لذهابك إلى المحفوظات، مما سمعته حول حياثات الانتحار يبدو لي كافياً، ولكن ما زالت لدى ثلاثة أسئلة، ما هي، بأي شيء ماتت ابنتكما، تناولت جرعة مفرطة من الحبوب المنومة، وهل كانت وحدها في البيت، أجل، وهل وضعتم لوحة على قبرها، إننا نرتب هذا الأمر، ولكن ما سبب هذا السؤال، لا شيء، إنه الفضول وحسب، نهض دون جزئيه، وقالت المرأة، أنا سأرافقك، وعندما صارا في الممر، رفعت إصبعها إلى شفتها طالبة منه أن ينتظر، أخرجت دون ضجة من درج منضدة صغيره هناك، ملتصقة بالجدار، حزمة مفاتيح، وبعد ذلك، بينما هي تفتح الباب، دستها في يد دون جزئيه هامسة، إنها مفاتيحها، وسأمر في أحد هذه الأيام على المحفوظات لاستعادتها، ثم اقتربت منه أكثر، وبما يشبه الزرفة، أخبرته بالعنوان.

نام دون جوزيه كأنه حجر. بعد أن عاد من الزيارة المجازفة، إنما ذات النتيجة الجيدة، لأبوي المرأة المجهولة أراد أن ينقل إلى الدفتر أحداث نهاية أسبوعه الاستثنائية، ولكن النعاس كان قوياً إلى حد لم يتمكن معه من الذهاب إلى ما هو أبعد من المحادثة مع كاتب المقبرة العامة. ذهب إلى الفراش دون عشاء، وخلال أقل من دقيقتين كان قد نام، وعندما فتح عينيه، مع أول أصوات الفجر، اكتشف أنه، دون أن يعرف كيف ولا متى، قد اتخاذ قراراً بعدم الذهاب إلى العمل. كان اليوم هو الاثنين، وهو تحديداً أسوأ الأيام للتغيب عن الخدمة، وخصوصاً بالنسبة إلى كاتب. فمهما كان السبب الذي سيتذرع به، ومهما أمكن له أن يبدو مقنعاً في مناسبة أخرى، فإنه سيعتبر مربياً إذا لم ينظر إليه على أنه مجرد ذريعة زائفة، الهدف منها تبرير إطالة خمول يوم الأحد في يوم مكرس قانونياً للعمل. وبعد المخالفات المسلكية المتالية والمزيد الخطورة التي ارتكبها منذ بدأ البحث عن المرأة المجهولة، أدرك دون جوزيه أنه يمكن للتغيب عن العمل أن يكون القطرة التي ستجعل كأس صبر الرئيس يطفح. ولكن هذه الرؤية لم تكن كافية مع ذلك للتقليل من عزمه على القرار. لقد كان هناك سببان يجعلان ما سيقدم عليه دون جوزيه غير ممكناً التأجيل إلى ما بعد ظهر يوم لا عمل فيه. أول هذين السببين هو أن أم المرأة المجهولة ستأتي إلى المحفوظات في أحد هذه الأيام لاسترداد المفاتيح، والسبب الثاني هو أن المدرسة، مثلما يعرف دون جوزيه جيداً، وهي معرفة تحققت بتجربة

فاسية، تبقى مغلقة في نهاية الأسبوع.

وعلى الرغم من أنه قرر عدم الذهاب إلى العمل، فقد استيقظ دون جوزيه في وقت مبكر جداً. فهو يريد أن يكون بعيداً عن هناك عندما تفتح المحفوظات أبوابها، لأنه قد يخطر لنائب مدير قسمه أن يرسل أحدهم إلى بيته، ليسأل عما إذا كان قد مرض ثانية. وبينما هو يحلق ذقه أمعن التفكير في ما إذا كان من الأفضل الذهاب أولاً إلى بيت المرأة المجهولة أم إلى المدرسة، ولكنه انتهى إلى تفضيل المدرسة، فهذا الرجل ينتمي إلى جموع من يتركون، على الدوام، ما هو مهم إلى ما بعد. وتساءل أيضاً عما إذا كان عليه أن يأخذ معه وثيقة التكليف أم أن إظهارها سيعرضه للخطر، آخذًا بعين الاعتبار أن مدير المدرسة، بحكم منصبه، يجب أن يكون شخصاً مطلعاً وعارفاً، وواسع القراءات، ولنتصور أن المفردات المستخدمة في تحرير الوثيقة بدت له غير مألوفة، وغريبة، ومبالغاً فيها، ولنتصور أنه طلب معرفة السبب في عدم وجود ختم على الوثيقة، إن الحذر يستدعي ترك هذا التكليف إلى جانب الآخر السابق، بين قصاصات المطران البريئة، وانتهى دون جوزيه إلى الاستئجاج، بطاقة الهوية التي تبين أنني موظف في المحفوظات العامة يجب أن تكون أكثر من كافية، وأنا في نهاية المطاف لا أريد سوى التأكيد من معلومة محددة، موضوعية، حول إذا ما كانت المرأة المنتهورة هي أستاذة رياضيات في تلك المدرسة. كان الوقت ما يزال مبكراً عندما خرج من البيت، وكانت الدكاكين مغلقة، دون أضواء، وحركة مرور السيارات لا تكاد تُلحظ، وربما كان أكثر موظفي المحفوظات نشاطاً ينهض من فراشه في هذا الوقت. ولكي لا يراه أحد في الجوار، اختباً دون جوزيه في حديقة توجد على بعد كتلتين من العمارت، في الجادة الرئيسية، تلك التي تمر منها الحافلة التي حملته إلى بيت سيدة الشقة اليمنى من الطابق الأرضي، في مساء اليوم الذي

رأى فيه الرئيس يدخل إلى المحفوظات. وما لم يكن هناك من يعرف مسبقاً أنه موجود هناك، فإن أحداً لن يستطيع تمييزه بين الشجيرات، بين أغصان الأشجار الواطئة. وبسبب الرطوبة الليلية، لم يجلس دون جوزيه على مقعد، بل أمضى الوقت وهو يمشي في المرات المحفوظة بالأشجار، وشغل نفسه بالنظر إلى الأزهار والتساؤل عن أسمائها، فليس من المفاجئ أن تكون معارفه النباتية ضئيلة وهو الذي أمضى حياته كلها محشوراً بين أربعة جدران، ومتتفساً رائحة الأوراق القديمة اللاذعة، وما هو لاذع أكثر، رائحة الأقحوان والورد تلك التي تجوب الهواء دائمًا، والتي ذكرت في بداية هذه القصة. عندما أشارت الساعة إلى موعد فتح أبواب المحفوظات العامة للجمهور، انطلق دون جوزيه، الذي بقي بمنجي من لقاءات غير مواتية، باتجاه المدرسة. لم يكن متعملاً، فالنهار كله تحت تصرفه، ولهذا قرر الذهاب سيراً على الأقدام. وبما أنه انطلق من الحديقة فقد خامرته الشكوك حول الاتجاه الذي سيتخذ، وفكري في لو أنه اشتري خريطة للمدينة، مثلما كان ينوي، لما احتاج الآن لأن يسأل شرطياً ليوجهه، ولكن الحقيقة أن هذا الوضع، بوجود رجل قانون يوجهه نحو الجريمة، أشعره بشيء من السعادة الهدامة. لقد وصلت قضية المرأة المجهولة إلى نهايتها، ولم يبق أمامه سوى هذا التحري في المدرسة، وتفحص البيت، وإذا ما توفر لديه وقت بعد ذلك فسوف يقوم بزيارة سريعة إلى سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي ليخبرها بأخر المستجدات، ولا شيء بعد ذلك. وفكري كيف سيعيش حياته من الآن فصاعداً، وهل سيعود إلى مجموعات شخصياته المشهورة، وأعجب خلال ثوان سريعة بتخييل نفسه جالساً إلى المنضدة في السهر، وهو يقص الأخبار والصور من كومة صحف ومجلات بجانبه، مستشفاً بروز شخصية ستكون مشهورة، أو تحولها إلى الأضمحلال، ففي الماضي، توصل أحياناً إلى رؤية

مسابقة لمصير بعض الأشخاص الذين تحولوا إلى الشهرة، وكان في بعض الأحيان أول من أحس بأن إكليل غار هذا الرجل أو تلك المرأة سيببدأ بالذبول، بالجفاف، بالتحول إلى غبار، كل شيء ينتهي إلى القمامنة، قال دون جوزيه ذلك، دون أن ينتبه في تلك اللحظة إذا ما كان يفكر في الشهرة المفقودة أم في مجموعته.

الشمس التي كانت تعكس بقوّة على الواجهة، وخضراء أشجار الفناء، وأحواض الزهور المتفتحة، ومظهر المدرسة لم يكن يُذكّر بأي حال بالمبني المظلم الذي دخل إليه دون جوزيه في ليلة ماطرة، بالتسارع والخلع والكسر. إنه يدخل الآن من الباب الرئيسي، ويقول لموظفة هناك، أريد التحدث إلى المدير، لا، لست مسؤولاً من التربية، ولست موزع مواد مدرسية كذلك، إنني موظف في المحفوظات العامة للسجل المدني، والمسألة تتعلق بالعمل. اتصلت الموظفة عبر هاتف داخلي، وأخبرت أحدهم بمجيء هذا الزائر، ثم قالت بعد ذلك، تفضل بالصعود، السيد المدير ينتظرك في السكرتارية، إنها في الطابق الثاني، فقال دون جوزيه، شكرًا جزيلاً، وبدأ صعود الدرج باطمئنان، فهو يعرف أن السكرتارية في الطابق الثاني. كان المدير يتكلم مع امرأة لا بد أنها رئيسة السكرتارية، ويقول لها، إنني بحاجة إلى الرسوم البيانية غداً، فترد هي، ستكون جاهزة في الغد، وكان دون جوزيه قد توقف عند الباب منتظرًا أن ينتبهما إلى حضوره. أنهى المدير محادثه، ونظر إليه، وعندئذ فقط قال دون جوزيه، صباح الخير أيها السيد المدير، وبعد ذلك، وكان يحمل بطاقة هويته في يده، تقدم ثلاثة خطوات إلى الأمام، كما يمكنك أن تتحقق، أنا موظف من المحفوظات العامة للسجل المدني، وقد جئت لأمر يتعلق بالعمل. أومأ المدير بحركة رفض للبطاقة، ثم سأله، ما هو الموضوع، إنه يتعلق بمعلمة، وما علاقة المحفوظات العامة بمعلمي هذه المدرسة، ليست لنا علاقة بهم كمعلمين،

ولنما بوصفهم أشخاصاً، أوضح من فضلك، إننا نقوم بأبحاث حول ظاهرة الانتحار، سواء من حيث مظاهرها النفسية أو آثارها الاجتماعية، وأنا مكلف بقضية سيدة كانت معلمة رياضيات في هذه المدرسة وانتحرت. أبدى المدير ملامح الأسى وقال، يا للسيدة المسكينة، إنها قصة حزينة لم يستطع أي منا حتى اليوم أن يفهمها، فقال دون جوزيه مستخدماً أكثر نبرة رسمية ممكنة، أول عمل علينا القيام به هو المبادرة إلى مطابقة عناصر هويتها الموجودة في أرشيف المحفوظات العامة مع السجل المهني للمعلمة، أظننك تعني سجلها كعضو في هيئة التدريسية، أجل يا سيدي. فالتفت المدير إلى المسؤولة عن السكرتارية، ابتحي لي عن هذه البطاقة، نحن لم نسحبها من الدرج بعد، قالت المرأة ذلك بنبرة متأسفة، في الوقت الذي راحت تمر بأصابعها على بطاقات أحد أدراج الأرشيف، ثم قالت، إنها هنا. أحس دون جوزيه بانقباض مفاجئ في بوأب معدته، وببداية دوار لم يتعد لحسن الحظ إلا المرور سريعاً في رأسه، لقد كان الجهاز العصبي لهذا الرجل في حالة يرثى لها عملياً، إنما علينا أن نعرف بأن البطاقة التي تُعرض عليه الآن، كانت في متناول يده في مرة سابقة، فما كان عليه إلا أن يفتح ذلك الدرج الذي كُتبت عليه كلمة «الأستاذة»، ولكن كيف كان بإمكانه أن يتصور آنذاك أن الطفلة التي كان يبحث عنها ستصبح معلمة رياضيات في المدرسة التي تعلمَت فيها تحديداً. دارى اضطرابه، وإن لم يستطع مداراة ارتعاش يديه، وتظاهر دون جوزيه بأنه يطابق بطاقة المدرسة مع نسخة بطاقة المحفوظات العامة، ثم قال بعد ذلك، إنها الشخص نفسه. كان المدير ينظر إليه باهتمام، وسألَه، أنت لست على ما يرام، فرد هو ببساطة، هذا طبيعي، فأنا لم أعد شاباً، أعتقد أنك ستوجه إلى بعض الأسئلة، وهو كذلك، تفضل معي إذن، فلنذهب إلى مكتبي. ابتسם دون جوزيه بينه وبين نفسه بينما هو

يتبع المدير، وفكـرـ، أنا لم أكن أعرف أن بطاقةـها كانت هناكـ، وأنت لا تعرف أنتـي أمضـيـت لـيلـة علىـ أـريـكةـ مـكتـبـكـ. دـخـلـاـ إلىـ المـكـتبـ، وـنـبـهـ المـديـرـ، لـيـسـ لـديـ متـسـعـ كـبـيرـ منـ الـوقـتـ، ولـكـنـيـ تـحـتـ تـصـرـفـكـ، تـقـضـيـ خـالـلـ الأـيـامـ التيـ سـبـقـتـ الـانـتـحـارـ، لـمـ تـلـاحـظـ أيـ تـبـدـلـ، فـقـدـ كانـتـ شـخـصـيـةـ مـتـكـتمـةـ وـصـمـوـتـةـ جـداـ عـلـىـ الدـوـامـ، وـهـلـ كـانـتـ مـعـلـمـةـ جـيـدةـ، مـنـ أـفـضـلـ الأـسـاتـذـةـ الـذـينـ عـرـفـتـهـمـ الـمـدـرـسـةـ، هـلـ كـانـتـ تـرـيـطـهـاـ صـدـاقـةـ بـأـحـدـ زـمـلـائـهـ، صـدـاقـةـ، بـأـيـ مـعـنـىـ، صـدـاقـةـ، دونـ أـيـ مـعـنـىـ آخـرـ، لـقـدـ كـانـتـ لـطـيفـةـ، مـهـذـبـةـ فـيـ تـعـاملـهـاـ مـعـ الـجـمـيعـ، وـلـكـنـيـ لـأـظـنـ أـنـهـ يـمـكـنـ لـأـحـدـ هـنـاـ أـنـ يـقـولـ إـنـهـ كـانـ عـلـىـ عـلـاقـةـ صـدـاقـةـ مـعـهـ، وـمـاـذـاـ عـنـ التـلـامـيـذـ، هـلـ كـانـواـ يـقـدـرـونـهـاـ، كـثـيرـاـ، وـهـلـ كـانـتـ سـلـيـمةـ الـبـنـيـةـ، عـلـىـ حـدـ عـلـمـيـ، أـجـلـ، اـمـرـ غـرـيبـ، مـاـ هـوـ الـغـرـيبـ، لـقـدـ تـكـلـمـتـ مـعـ أـبـوـيهـاـ وـكـلـ مـاـ سـمـعـتـهـ مـنـهـمـ، إـضـافـةـ إـلـىـ مـاـ أـسـمـعـهـ الـآنـ، يـشـيرـ إـلـىـ الـانـتـحـارـ لـأـتـفـسـيـرـ لـهـ، فـقـالـ المـديـرـ، إـنـيـ أـتـسـأـلـ عـمـاـ إـذـاـ كـانـ الـانـتـحـارـ عـمـلاـ قـابـلـاـ لـلـتـفـسـيـرـ، هـلـ تـقـصـدـ اـنـتـحـارـهـاـ، بـلـ أـقـصـدـ الـانـتـحـارـ عـمـومـاـ، إـنـهـمـ يـتـرـكـونـ رـسـائـلـ أـحـيـانـاـ، هـذـاـ صـحـيـحـ، وـلـكـنـ مـاـ لـأـعـرـفـهـ هوـ إـذـاـ كـانـ بـالـإـمـكـانـ اـعـتـارـ ماـ يـقـولـونـهـ فـيـ تـفـسـيـرـاـ، فـيـ الـحـيـاةـ هـنـاكـ أـمـورـ كـثـيرـةـ بـحـاجـةـ إـلـىـ تـفـسـيـرـ، مـعـكـ حـقـ، مـاـ هـوـ تـفـسـيـرـ ماـ حـدـثـ هـنـاـ مـثـلـاـ قـبـلـ أـيـامـ مـنـ الـانـتـحـارـ، مـاـ الـذـيـ حـدـثـ، عـمـلـيـةـ سـطـوـ عـلـىـ الـمـدـرـسـةـ، صـحـيـحـ، وـكـيـفـ عـرـفـتـ ذـلـكـ، الـعـدـرـةـ، كـنـتـ أـحـاـوـلـ الـاسـتـفـهـامـ، وـرـبـماـ لـمـ أـوـفـقـ فـيـ النـبـرـةـ الـمـنـاسـبـةـ، وـلـكـنـ عـمـلـيـاتـ السـطـوـ يـمـكـنـ تـفـسـيـرـهـاـ بـسـهـوـلـةـ، اللـهـمـ إـلـاـ عـنـدـمـ يـصـعـدـ الـفـاعـلـ إـلـىـ سـطـحـ، وـيـدـخـلـ مـنـ نـافـذـةـ بـعـدـ أـنـ يـكـسـرـ الزـجاجـ، وـيـتـجـولـ فـيـ كـلـ أـنـحـاءـ الـمـكـانـ، وـيـنـامـ عـلـىـ أـرـيـكةـ مـكـتبـيـ، وـيـأـكـلـ مـاـ يـجـدـهـ فـيـ الثـلاـجـةـ، وـيـسـتـخـدـمـ أـدوـيـةـ مـنـ خـزـانـةـ الـإـسـعـافـ، ثـمـ يـفـادـرـ أـخـيـراـ دـوـنـ أـنـ يـأـخـذـ أـيـ

شيء، وكيف تعرف أنه نام على الأريكة، لأننا وجدنا على الأرض البطانية التي أغطى بها ركبتي لأحميهم من البرد، فأنا لست شاباً كذلك، مثلاً قلت حضرتك، وهل أبلغتم الشرطة، لماذا نبلغها، طالما أنه لم يسرق، فلا حاجة إلى ذلك، فالشرطة ستقول إنها موجودة للتحقيق في الجرائم وليس لحل الألغاز، أمر غريب دون شك، لقد تفقدنا كل شيء، كل المنشآت، وكان صندوق الخزنة سليماً، وكل شيء في مكانه، باستثناء البطانية، أجل، باستثناء البطانية، فهل تجد تفسيراً لذلك، يجب توجيه السؤال إلى الفاعل نفسه، ولا بد أن يكون لديه تفسير، وما إن قال دون جوزيه هذه الكلمات، حتى نهض قائلاً، أيها السيد المدير، لن أسطو على مزيد من وقتكم، أشكر لك اهتمامك الذي أبديته بالموضوع غير السعيد الذي جاء بي إلى هنا، لا أظن أنني قدمت لك مساعدة كبيرة، ربما كنت على حق عندما قلت إنه لا يمكن إيجاد تفسير لأي انتحار، إذا ما فُسرَ عقلانياً، سيفهم، كل شيء جرى كما لو أنها لم تفعل أكثر من فتح باب والخروج، أو الدخول، أجل، أو الدخول، حسب وجهة النظر، في هذا تجد تفسيراً رائعأً، فقد كان تعبيراً محازياً، والمجازات هي أفضل طريقة لتفسير الأمور، عمت صباحاً أيها السيد المدير، أشكرك من أعماق قلبي، عمت صباحاً، لقد سعدت بالتحدث إليك، ولستأشير بالطبع إلى الحدث الحزين، وإنما إلى شخصك بالذات، بالطبع، إنها عبارات تقال، سأراافقك حتى الدرج، وبينما كان دون جوزيه ينزل المقطع الأخير من الدرج، تذكر المدير أنه لم يسأله عن اسمه، ثم قدر على الفور، ليس لذلك أي أهمية، إنها قصة منتهية.

لم يكن بإمكان دون جوزيه أن يقول الشيء نفسه، إذ ما زال عليه أن يقوم بخطوة أخرى، عليه أن يبحث في بيت المرأة المجهولة عن رسالة أو عن مذكرات، أو عن مجرد ورقة ظفّت فيها عن كربها،

صرختها، ما يتوجب على أي منتحر أن يتركه خلفه قبل أن يعبر ذلك الباب حتى يمكن من يبقون في هذا الجانب من الباب طمانة ذعر ضميرهم بالقول، يا للمسكين، كانت لديه مبرراته. ولكن الروح البشرية مع ذلك، وكم من مرة توجب قول ذلك، هي المكان المفضل للتاقضات، وقد لوحظ مؤخراً أن تلك التاقضات تزدهر أو أنها تجد ببساطة ظروف وجود حيوية خارج الروح، ولا بد أن هذا هو السبب في مضي دون جوزيه هائماً على وجهه عبر المدينة، من جهة إلى أخرى، إلى أعلى وأسفل، مثل ضائع بلا خريطة أو دليل، وهو يعرف تماماً ما يتوجب عليه عمله في هذا اليوم الأخير، لأن الغد سيكون زمناً آخر، أو أنه هو نفسه سيكون شخصاً آخر في زمن مماثل لهذا، والدليل على أنه يعرف ذلك هو أنه قد فكر فيه، من سأكون أنا غداً، بعد الانتهاء من هذا الأمر، وأي نوع من الكتبة سأكون في المحفوظات العامة للسجل المدني.

مررتين من أمام بيت المرأة المجهولة، مررتين دون أن يتوقف، كان خائفاً، لن نسأله مما هو خائف، فهذا التاقض هو من أكثر التاقضات ظهوراً للعيان، لأن دون جوزيه يريد ولا يريد، يرغب ويخشى ما يرغب فيه، حياته كلها كانت على هذا المنوال. وهو الآن، من أجل كسب الوقت، من أجل تأجيل ما يعرف أنه محتم ولا مناص منه، يقرر بأن عليه أن يتساول الفداء أولاً، في مطعم رخيص، مثلاً تفرض عليه محفظته الهزيلة، ولكن عليه قبل كل شيء أن يكون بعيداً عن هذه الأماكن، حتى لا يرتاب أحد الجيران الفضوليين بنوايا هذا الرجل الذي مرّ من هنا مررتين. ومع أن مظهره لا يتميز عن المظهر الذي يبدو عادة على الناس الشرفاء، إلا أن ما نراه لا يوفر ضمانات مؤكدة على الدوام، فالمظاهر تخدع كثيراً، ولهذا نسميها مظاهر، مع أنه في هذه الحالة التي أمامنا، وبالنظر إلى السن وهشاشة البنية الجسدية، لا يمكن لأحد أن يفكر في القول مثلاً بأن دون جوزيه يعيش على سطو

البيوت ليلاً. أطّال أمد الغداء البسيط إلى أقصى ما استطاع، وعندما نهض عن المائدة كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بكثير، ودون تعجل، كما لو أنه يجرجر قدميه، راح يقترب من الشارع الذي عاشت فيه المرأة المجهولة. وقبل أن ينعطف في الزاوية الأخيرة توقف، وتتفس بعمق، لستُ رعديداً، فكر كي يمنح نفسه الحماس، ولكنه كان، مثلاً يحدث لكثير من الشجعان، شجاعاً في بعض الأمور، وجباناً في غيرها، فواقع أنه أمضى ليلة في المقبرة لا يعني أنه سيتخلص من الارتعاش في ساقيه الآن. دس يده في جيب سترته الخارجية، تلمس المفاتيح، أحدّها هو مفتاح صندوق البريد، وهو صغير وضيق، لا بد من استبعاده بالطبع، أما المفتاحان الآخرين فهما متماثلان تقريباً، أحدّهما لباب المبني المؤدي إلى الشارع، والثاني هو مفتاح الشقة، عسى أن يصيب في استخدام المفتاح الصحيح فوراً، لأنه إذا كانت هناك في المبني بوابة، وكانت من أولئك اللواتي يرصنون أي ضجة ليحشرن أنوفهن، فائي تفسير سيقدم لها، يمكنه أن يقول إنه جاء بتفويض من أبيي السيدة التي انتحرت، وإنه آت من أجل جرد الممتلكات، فأنا موظف في المحفوظات العامة للسجل المدني يا سيدتي، وهذه هي بطاقي، وقد أعطوني كما ترين مفتاح البيت. أصاب دون جوزيه في اختيار المفتاح من المحاولة الأولى، وحارسة البوابة، إذا كانت هناك حارسة في المبني، لم تظهر لتسأله، إلى أين أنت ذاهب يا سيدتي، مع أن أفضل حارس للكرم، كما يقال، هو الخوف من مجيء الحراس، وسوف نرى فيما بعد إذا ما كان الحراس سيظهر. لقد كان هناك في البناء، على الرغم من قدمه، مصعد، ولم يكن بإمكان دون جوزيه، بهذا الثقل الذي يشعر به في ساقيه، أن يصعد إلى الطابق السادس، حيث كانت تعيش معلمة الرياضيات. صرّ الباب لدى فتحه، مثيراً ذعر الزائر، الذي بدأ يتشكل فجأة في جدوى المبرر الذي فكر في تقديمها

إلى البوابة إذا ما واجهته. انسل بسرعة إلى داخل البيت، وأغلق الباب بكل حذر ليجد نفسه في عتمة كثيفة، لا تحتاج إلا قليلاً لتكون ظلاماً دامساً. تلمس الجدار إلى جانب إطار الباب، وعثر على مفتاح نور، ولكن الحذر أوحى له بعدم إشعاله، فقد يكون من الخطير إشعال الأنوار. وشيئاً فشيئاً راحت عينا دون جوزيه تعتمدان على العتمة، قد يقال إن ذلك ما سيخطر لأي شخص آخر في مثل تلك الحالة، ولكن ما هو غير معروف عادة، أن كتبة المحفوظات العامة، بسبب اضطرارهم إلى التردد بانتظام على أرشيف الموتى، يكتسبون، مع مرور الوقت، قدرات في التلاؤم البصري خارجة على المألوف. ويصل الأمر بهم إلى امتلاك عيون كعيون الهررة، ما لم تدركهم سن التقاعد قبل ذلك.

على الرغم من أن الأرضية كانت مغطاة بالموكيت، إلا أن دون جوزيه فكر بأنه من الأفضل خلع الحذاء ليتجنب أي اصطدام أو صوت يمكن أن يعلم ساكني الطابق السفلي بوجوده. وبألف حرص سحب مزلاج درفتي إحدى التوافذ المطلة على الشارع، ولكنه لم يفتحهما إلا بما يكفي لدخول بعض الضوء. لقد كان في غرفة نوم. وكان هناك صوان، وخزانة، وكوميدينو. أما السرير فهو ضيق، إنه سرير عازبة، كما كان يقال في ما مضى. وكان الأثاث من طراز بسيط وفاتح اللون، على العكس من الطراز القائم والثقيل للأثاث في بيت الأبوين. قام دون جوزيه بجولة في بقية غرف الشقة التي تقتصر على صالة جلوس مؤثثة بالأرائك المعهودة وبخزانة كتب تحتل جداراً من أقصاه إلى أقصاه، وغرفة أصغر تُستخدم كمكتب، والمطبخ الضيق، والحمام الذي يكفي لهذا الغرض وحسب. هنا كانت تعيش امرأة انتحرت لأسباب غير معروفة، امرأة كانت متزوجة وطلقت، وكان بإمكانها أن تعود للعيش مع أبوتها بعد الطلاق، ولكنها فضلت البقاء وحدها، امرأة كانت، مثل

الجميع، طفلاً وصبية، وفي هذا الوقت، بطريقة ما لا يمكن تحديدها، تحولت إلى المرأة التي صارت إليها، معلمة رياضيات لها اسمها كشخص حي في السجل المدني إلى جانب أسماء كل الأشخاص الأحياء في هذه المدينة، امرأة عاد اسمها كمية إلى العالم الحي لأن دون جوزيه انتسله من عالم الأموات، انتسل الاسم فقط، وليس هي نفسها، لأنه لا يمكن لكاتب عمومي أن يصل إلى أكثر من ذلك. ولأن كل الأبواب الداخلية كانت مفتوحة، فقد أنار ضوء النهار البيت إلى حد ما، ولكن يتوجب على دون جوزيه أن يبدأ بحثه إذا كان لا يريد التخلص عن مهمته في منتصفها. فتح درجاً في طاولة غرفة المكتب، حال بنظره متباينة على محتوياته، بدت له تمارين رياضيات مدرسية، حسابات، معادلات، لا شيء مما يمكن له أن يفسر حياة وموت المرأة التي كانت تجلس على هذا الكرسي، وتشعل هذا المصباح، وتمسك قلم الرصاص هذا لنكتب به. أغلق دون جوزيه الدرج ببطء، وكان قد بدأ بفتح درج آخر، ولكنه لم ينجز حركته، بل توقف مفكراً لوقت طويل، أم أنها كانت بضع ثوان فقط بدت له ساعات، ثم دفع بعد ذلك الدرج بقوة، ثم خرج من المكتب، ثم جلس على إحدى أرائك الصالة وبقي هناك. كان ينظر إلى جوربيه العتيقين المرفوفين، وبنطالة المجدد والمشمر قليلاً، وقصبتي ساقيه البيضاوين والنحيلتين والشعر القليل الذي عليهما. أحس أن جسده يتواافق مع تجويف تجريد الأريكة الذي يغطي النوابض والذي كان قد أحدهه جسد آخر، فغمغم، لن تعود إلى الجلوس هنا أبداً. الصمت الذي بدا مطبيقاً، بدأ يتقطع الآن بأصوات الشارع، وخصوصاً بمرور سيارة بين حين وآخر، ولكن كان هناك في الجو كذلك صوت تنفس متقطع، وخفق بطئ، ربما هو تنفس البيوت عندما تهجر، أجل، وربما لم يتبه هذا البيت بعد إلى أن هناك أحداً بداخله. ويقول دون جوزيه لنفسه إنه ما زالت هناك أدراج عليه تقدّها، أدراج الصوان،

حيث تُحفظ عادة الملابس الحميمة، وأدراج الكوميدينو، حيث تُحفظ في الغالب أشياء حميمة من نوع آخر، والخزانة، ويفكر في أنه إذا ما فتح الخزانة فلن يقاوم رغبته في أن يجوب بأصابعه الملابس المعلقة، هكذا، كما لو أنه يداعب ملامس بيانو صامت، ويفكر في أنه سيرفع أذياًل أحد الأثواب ليشم الشذى، العطر، مجرد الرائحة. وهناك أدراج طاولة المكتب التي لم يفحصها، ومجموعة الأدراج الصغيرة في خزانة الكتب، فلا بد أن يكون مخبأ في مكان ما ذلك الشيء الذي يبحث عنه، الرسالة، المذكرات، كلمة الوداع، علامه الدمعة الأخيرة. لماذا كل هذا، تساؤل، ثم أضاف، فلنفترض أن تلك الورقة موجودة، وأنني وجدتها، وقرأتها، لكن قرائتها لن تجعل الفساتين تبدل من كونها خاوية، فمنذ هذه اللحظة لن تجد تمارين الرياضيات حلولاً، ولن تُكتشف مجاهيل العادات الجبرية، ولن يزاح غطاء السرير من مكانه، ولن تتطبق طيبة الملاعة العلوية على الصدر، ولن يضيء مصباح القراءة الذي بجانب السرير صفحة الكتاب، فما انتهى قد انتهى. انحنى دون جوزيه إلى الأمام، وترك جبهته تسقط على يديه، كما لو أنه يريد مواصلة التفكير، ولكن الأمر لم يكن كذلك، لأن الأفكار قد نضبت. لقد خفت النور فجأة، لا بد أن سحابة تمر في السماء. وفي هذه اللحظة رنَّ جرس الهاتف. لم يكن قد انتبه إلى وجوده من قبل، ولكنه هناك، على منضدة صغيرة، في أحد الأركان، كشيء نادرًا ما يستخدم، دارت آلية تسجيل المكالمات، ونطق صوت أنثوي بالرقم، ثم أضاف بعد ذلك، أنا لستُ في البيت، اترك رسالتك بعد سماع الإشارة. أيًّا كان الشخص المتصل، فقد أغلق السمعة، هناك أناس ينفرون من التحدث إلى آلة، أم أن الحالة الآن هي خطأ في الاتصال، فلا حاجة إلى مواصلة المكالمة إذا نحن لم نتعرّف على الصوت الصادر عن آلة التسجيل. هذا أمر يجب توضيجه لدون جوزيه الذي لم يرَ في حياته عن قرب مثل

هذا الجهاز، مع أنه في الغالب لن يولي أي اهتمام للتوضيح، فقد أصابته الكلمات القليلة التي سمعها بالارتكاك، أنا لستُ في البيت، اترك رسالتك بعد سماع الإشارة، أجل، أنها ليست في البيت، ولن تكون فيه بعد اليوم أبداً، ولكن بقي صوتها، خفيضاً، مؤرقاً، كأنه ساهم كما لو أنها كانت تفكير في شيء آخر عندما قامت بالتسجيل. قال دون جوزيه، قد يعودون للاتصال، ومتعللاً بهذا الأمل، لم يتحرك عن الأريكة طوال أكثر من ساعة، وشيئاً فشيئاً راحت عتمة البيت تصير أكثر كثافة ولم يرن جرس الهاتف ثانية. عندئذ نهض دون جوزيه وتمتم، يجب علي أن أذهب، ولكنه قبل أن يغادر قام بجولةأخيرة على البيت، دخل إلى غرفة النوم، حيث الضوء أكثر، وجلس ببرهة على حافة السرير، مر بيده ببطء مرة بعد مرة على طية الملاعة المطرزة، ثم فتح الخزانة، وهناك كانت فساتين المرأة التي نطقت بالكلمات الحاسمة، أنا لستُ في البيت. مال على الفساتين إلى أن لمسها بوجهه، الرائحة التي تفوح منها يمكن تسميتها برائحة الغياب، أو أنها رائحة ذلك العطر الممزوج من الورد والأقحوان الذي ينتشر بين حين وآخر في المحفوظات العامة.

لم تظهر البوابة لتسأله من أين هو آت، البناء صامتة، تبدو وكأنها مهجورة. وكان هذا الصمت هو الذي ولد في رأس دون جوزيه فكرة، أكثر الأفكار جرأة في حياته، وماذا لو بقيت هذه الليلة هنا، لو نمت في فراشها، لن يعلم أحد بالأمر. قل لدون جوزيه إنه ليس هناك ما هو أسهل من ذلك، وإنه ليس عليه إلا أن يصعد مرة أخرى في المصعد، ويدخل الشقة، ويخلع حذاءه، بل قد يحدث أن يخطئ أحدهم مرة أخرى برقم الهاتف. وإذا حدث ذلك، ستستمتع مرة أخرى بسماع صوت معلمة الرياضيات المؤرق والخافت، أنا لستُ في البيت، ستقول هي ذلك، وإذا ما حدث، خلال الليل، وأنت نائم في فراشك، أن راودك

حلم لطيف هيج جسدك العجوز، فأنت تعرف، العلاج في متناول يدك، وما عليك إلا توخي الحذر بالنسبة للملاءات. إنها تهكمات وبذاءات لا يليق توجيهها إلى دون جوزيه، ففكerte الجريئة، أو الرومانسية أكثر مما هي جريئة، سرعان ما مضت مثلما جاءت، وهو لم يعد الآن داخل المبني، وإنما خارجه، ويبدو أن ما ساعده في الخروج هو تذكر جوريه العتيقين المرفرين وقصبتي ساقيه النحيلتين البيضاوين بشعرهما الخفيف المتفرق. لا معنى لأي شيء في العالم، غمغم دون جوزيه بذلك، وتوجه نحو الشارع الذي تعيش فيه سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي. كان المساء يشرف على نهايته، ولا بد أن المحفوظات العامة قد أغلقت، ولم تعد هناك ساعات طويلة قبل أن يتوجب على الكاتب أن يختلق قصة يبرر بها تغيبه عن العمل طوال يومه كاملاً. فالجميع يعرفون أنه ليس لديه أقارب يضطر إلى أن يهب لنجدتهم بصورة مفاجئة، وحتى لو كان له أقارب، لن يكون ثمة عذر في حالته، فهو الذي لا يفصله سوى جدار عن المحفوظات، ليس عليه سوى الدخول ليقول من الباب، وداعاً، وإلى اللقاء في الغد، فهناك ابنة عم لي تحضر. ويقرر دون جوزيه بأن ما جرى قد جرى، وأنه بإمكانهم أن يفصلوه إذا أرادوا، أن يطردوه من الوظيفة، ربما كان راعي الأغنام بحاجة إلى مساعد لتبديل أرقام القبور، خصوصاً إذا كان يفكر في توسيع مجال نشاطاته، فليس هناك مبرر لبقاءها مقتصرة على المنتحررين، فالمليتون جميعهم سواسية في نهاية المطاف، وما يمكن عمله لبعضهم يمكن عمله للجميع، الخلط بينهم، وما الفرق، فالعالم لا معنى له.

عندما طرق دون جوزيه بيت سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي، لم يكن يفكر إلا بفنجان الشاي الذي سيتناوله. طرق الباب مرة، مرتين، ولكن أحداً لم يفتحه. وبحيرة وقلق قرع جرس باب الشقة

اليسرى. ظهرت امرأة سألته بنبرة جافة، ماذا تريد، لا أحد يرد في الجانب الآخر، وماذا في ذلك، الا يمكنك أن تخبريني إذا كان قد حدث شيء، أي شيء تعني، حادث، مرض، مثلاً، هذا ممكן، فقد جاءت سيارة إسعاف لأخذها، ومتى حدث ذلك، منذ ثلاثة أيام، ولم يأت أي خبر آخر عنها، لا تعرفين أين هي الآن، لا يا سيدى، المعدرة. وأغلقت المرأة الباب تاركة دون جوزيه في الظلام. فكر، غداً سأذهب إلى المستشفيات. كان يشعر بالإنهاك، لقد أمضى النهار كله وهو يتقل من مكان إلى آخر، انفعالات قوية طوال النهار، وتأتي الآن هذه الصدمة للإجهاز عليه. خرج من البناء وبقي على الرصيف يتساءل عما إذا كان بإمكانه عمل شيء آخر، سؤال أحد المستأجرين الآخرين، فلن يكونوا جميعهم غير لطفاء مثل مستأجرة الشقة اليسرى في الطابق فوق الأرضي، رجع دون جوزيه إلى البناء، وصعد الدرج حتى الطابق الثاني، وطرق باب أم الطفلة وزوجة الرجل الفيور، لا بد أنه قد رجع من عمله في هذه الساعة، ولكن لا أهمية لذلك، فدون جوزيه ذاهب إلى هناك للسؤال فقط إذا ما كانوا يعرفون شيئاً عن الجارة المقيمة في الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي. كان نور الدرج مضاء، فتح الباب، ولم تكن المرأة تحمل طفلتها بين ذراعيها، ولم تعرف على دون جوزيه، سألته، ماذا ت يريد، اعذرني للإزعاج، لقد جئت لزيارة سيدة الشقة اليمنى في الطابق فوق الأرضي، ولكنها غير موجودة، وقد أخبرتني مستأجرة الشقة المقابلة بأنهم أخذوها في سيارة إسعاف قبل ثلاثة أيام، أجل، هذا صحيح، أتعرفين أين هي، في أي مستشفى، أو في بيت أحد أقربائها. وقبل أن يتاح الوقت لأم الطفلة للرد، سأل صوت رجل من الداخل، من هناك، فأدارت رأسها، إنه شخص يسأل عن سيدة الشقة اليمنى في الطابق فوق الأرضي، ثم نظرت إلى دون جوزيه وقالت، لا، لا نعرف عنها أي شيء. فخفض دون جوزيه صوته

وسائلها، ألم تتعزّفي علىّ، ترددت قليلاً، آه، بلى، قالت ذلك هامسة، وأغلقت الباب بيطء.

في الشارع، استوقف دون جوزيه سيارة أجراة، أوصلني إلى المحفوظات، قال ذلك للسائق وهو ساهم. كان يفضل الذهاب ماشياً لكي يوفر قليلاً من النقود ولكي ينهي النهار مثلاً بدأه، لكن الإنهاك لم يعد يسمح له بأن يخطو خطوة أخرى. أو هذا ما كان يظنه هو. وعندما قال له السائق، لقد وصلنا، انتبه دون جوزيه إلى أنه ليس أمام بيته، وإنما أمام بوابة المحفوظات. لم يكن هناك ما يستحق التوضيح للرجل بأن عليه أن يدور حول الساحة ويدخل في الشارع الجانبي، لأنه لن يحتاج لأن يمشي أكثر من خمسين متراً. دفع آخر ما تبقى معه من النقود وغادر السيارة، وعندما وطئت قدماه الرصيف، رفع رأسه ورأى أن نوافذ المحفوظات مضاءة. فكر، مرة أخرى، وسرعان ما تلاشى قلقه على سيدة الشقة اليمنى من الطابق فوق الأرضي وأم الطفلة الرضيعة، فالمشكلة الآن في العثور على تبرير يقدمه في اليوم التالي. انعطف عند الناصية، وهناك كان بيته، واطئاً، أشبه بطلل، ملتصقاً بجدار البناء العالى الذي يبدو مستعداً لسحقة. عندئذ ضفت أصابع همجية على قلب دون جوزيه. هناك نور في بيته. كان متائداً من أنه أطفأ النور قبل أن يخرج، ولكن، مع الأخذ في الحسبان الاضطراب الذي يسيطر على رأسه منذ عدة أيام، فإنه سيقبل الاعتقاد بأنه قد نسيه، لو لا ذلك الضوء الآخر، ضوء المحفوظات، النوافذ الخمس المشعة بنور قوى. أدخل المفتاح في الباب، وكان يعرف من سيرى، ولكنه توقف عند العتبة، كما لو أن التقاليد الاجتماعية تفرض عليه أن يبدي مفاجأته. كان الرئيس جالساً إلى الطاولة، وكانت أمامه بعض الأوراق المصفوفة بعناية. لم يكن دون جوزيه بحاجة إلى الاقتراب ليعرف ما هي، إنها وثيقتا التكليف المزيفتان، وبطاقات المرأة المجهولة المدرسية،

ودفتر الملاحظات، وحافظة ملف المحفوظات الذي يضم الوثائق الرسمية. قال له الرئيس، ادخل، فالبيت بيتك. أغلق الكاتب الباب، وتقدم باتجاه المنضدة وتوقف. لم يتكلم، كان يشعر في رأسه بدوامة سائلة تذوب فيها جميع الأفكار. اجلس، لقد قلت لك إنك في بيتك. انتبه دون جزئه إلى وجود مفتاح مثل مفتاحه فوق البطاقات المدرسية. سأله المدير، هل تنظر إلى المفتاح، ثم أضاف بهدوء، لا تطنه نسخة مزيفة، فيبيوت الموظفين، عندما كانت موجودة، كان لها مفتاحان دائمًا بباب الاتصال الداخلي، أحدهما لاستخدام ساكن البيت بالطبع، والآخر يبقى لدى المحفوظات، كل شيء منسجم كما ترى، باستثناء أنك دخلت إلى هنا دون إذن مني، تمكّن دون جزئه من قول ذلك، فقال المدير، لست بحاجة إلى إذن منك، فمالك المفتاح هو مالك البيت، ويمكننا القول إننا كلينا نملك هذا البيت، مثلاً تشعر أنت بأنك مالك المحفوظات وتخرج من أرشيفها وثائق رسمية، يمكنني أن أقدم تفسيرًا، لا حاجة إلى ذلك، لقد تابعت نشاطاتك بانتظام، كما أن دفتر ملاحظاتك ساعدني كثيراً، وأنا أنتهز هذه الفرصة لأهئشك على صياغاتك الجيدة وملكتك اللغوية، سأتقدم غداً باستقالتي، وأنا لن أقبلها. نظر إليه دون جزئه مذهولاً، لن تقبلها، لا يا سيدي، لن أقبلها، ولذا، إذا كان بإمكانني السؤال، يمكنك بالطبع، بعد أن صرت مستعداً لأن تكون شريكاً متواطئاً في أعمالك غير النظامية، لست أفهم. تناول المدير ملف المرأة المجهولة، ثم قال، سوف تفهم، ولكن أخبرني قبل ذلك بما حدث في المقبرة، فروايتك تتوقف عند المحادثة مع الكاتب هناك، سيطلب إخبارك بذلك وقتاً طويلاً، قوله بكلمات موجزة، حتى تكتمل اللوحة لدى، اجتازت المقبرة العامة مشياً على الأقدام حتى منطقة المنتحرين، ونمت تحت شجرة زيتون، وفي صباح اليوم التالي، عندما استيقظت، وجدت نفسي وسط قطيع من الأغنام، وعرفت بعد ذلك أن

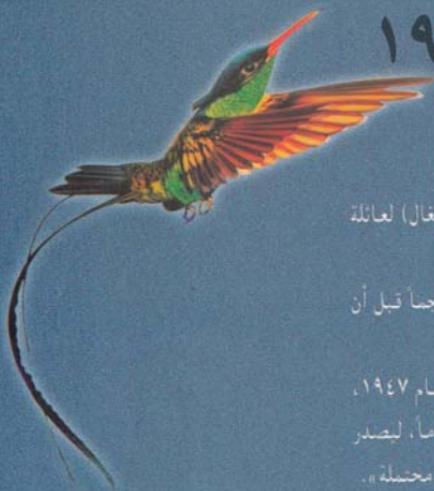
الراعي يتسلى باستبدال أرقام القبور قبل وضع اللوحات الحجرية عليها، ولماذا يفعل ذلك، من الصعب شرح الأمر، فكل ذلك يدور حول معرفة أين هم فعلاً الأشخاص الذين نبحث عنهم، وهو يعتقد بأننا لن نعرف ذلك قط، مثل بحثك عن تلك التي أسميتها المرأة المجهولة، أجل يا سيدى، وماذا فعلت اليوم، ذهبت إلى المدرسة التي كانت معلمة فيها، وذهبت إلى البيت الذي عاشت فيه، وهل اكتشفت شيئاً، لا يا سيدى، أظن أنت لم أكن أريد اكتشاف أي شيء. فتح المدير الملف، أخرج البطاقة التي جاءت ملتصقة ببطاقات الشخصيات المشهورة الخمس الأخيرة التي اهتم بها دون جوزيه، وسألها، أتعرف ما الذي كنت سأفعله لو أتنى مكانك، لا يا سيدى، أتعرف ما المحصلة المنطقية لكل ما فعلته حتى هذه اللحظة، لا يا سيدى، أن تُعدَّ لهذه المرأة بطاقة جديدة، مثل البطاقة القديمة، تضم كل المعلومات نفسها، ولكن دون تاريخ الوفاة، وبعد ذلك، بعد ذلك تعيد وضعها في خزانة بطاقات الأحياء وكأنها لم تمت، سيكون ذلك تزويراً، أجل، سيكون تزويراً، ولكن لن يكون لأى شيء مما قلناه، أنا وأنت، من معنى إذا لم نفتر هذا التزوير، لم أتوصل إلى فهمك. اتكأ المدير على الكرسي، مرّ بيده ببطء على وجهه، ثم سأل، هل تتذكر ما قلته هناك في الداخل يوم الجمعة، عندما جئت إلى العمل دون حلاقة ذفنك، أجل يا سيدى، تتذكر كل شيء، كل شيء، أنت تتذكر إذن أنت أشرت إلى بعض الأحداث التي لولها ما كنت توصلت أبداً إلى فهم عبئية فصل الأموات عن الأحياء، أجل يا سيدى، هل أنا بحاجة إلى أن أخبرك بالأحداث التي أشرت إليها، لا يا سيدى. نهض المدير، سأترك لك المفتاح هنا، فأنا لا أنوي أن أعود إلى استخدامه، ثم أضاف دون أن يتيح لدون جوزيه المجال للتalking، مازالت هناك مسألة تحتاج إلى حلّ، أية مسألة يا سيدى، ملف امرأتك المجهولة تتقصبه شهادة الوفاة، لم أستطع العثور عليها، لا بد أنها بقيت

في عمق الأرشيف، أو أنها وقعت مني في الطريق، هذه المرأة ستبقى ميتة ما لم تجدها، وستبقى ميتة حتى لو وجدتها، فقال المدير، إلا إذا أتلتفت الوثيقة. أدار ظهره لهذه الكلمات، وعلى الفور سمعت ضجة إغلاق باب المحفوظات. بقي دون جوزيه واقفاً في وسط البيت. لم يكن بحاجة إلى ملء بطاقة جديدة، لأن النسخة التي استنسخها كانت في الملف. وكان لا بد، أجل، لا بد من تمزيق أو إحراق النسخة الأصلية حيث دون تاريخ الوفاة. كما أن شهادة الوفاة ما تزال هناك في الداخل. اندفع دون جوزيه إلى المحفوظات، ذهب إلى طاولة الرئيس، فتح الدرج حيث ينتظره المصباح وخيط آريان. ربط أحد طرفي الخيط بكاحله وتقدم نحو الظلام.

*Twitter: @ketab\_n*

# بوزيه ساراماغا

## نobel ١٩٩٨



- ولد عام ١٩٢٢ بمنطقة اريشاغا (وسط البرتغال) لعائلة من فقرا، المزارعين.
- بدأ حياته صانع أفال، ثم صحافيا ومتրجما قبل أن يكتس وقته كليا للأدب.
- أصدر روايته الأولى «أرض الخطستة» عام ١٩٤٧، وتوقف عن الكتابة ما يقرب العشرين عاما، ليصدر عام ١٩٦٦ ديوانه الشعري الأول «قصائد مختتمة».
- أصدر نحو عشرين كتابا، ويعبره النقاد واحدا من أهم الكتب في البرتغال، يفضل روایاته المتعددة الأصوات والتي تستعيد التاريخ البرتغالي بتهكم دقيق، قریب من الأسلوب الذي اعتمدته فولتير.
- عضو في الحزب الشيوعي البرتغالي منذ عام ١٩٥٩.
- يعيش حاليا في جزر الكاريبي.
- أشهر رواياته: وجيز الرسم والخط (١٩٧٦)، ليفنسادرو دوشادو (١٩٨٠)، الإله الأكستع (١٩٨٢)، سنة مرت ريكاردو رس (١٩٨٤)، الطرف البحري (١٩٨٦)، قصة حصار لشبونة (١٩٨٩)، الإنجيل بحسب سمع المسيح (١٩٩٢)، العمى (١٩٩٥).
- حصل على جائزة نادي القلم الدولي عام ١٩٨٢، وعلى جائزة كاموس البرتغالية عام ١٩٩٥.
- في تشرين الأول ١٩٩٨، منح جائزة nobel للآداب.

ISBN:2-84305-541-X



9 782843 055416